إحداثيات خطوط الكف

رواية

عادل صوما



الكتاب: رواية إحداثيات خطوط الكف

المؤلف: عادل صوما

فكرة وتصميم الغلاف: عادل صوما

تاريخ النشر: آيار/مايو 2020

قد يروي العرّاف لزبونه حكايات خطوط على كفه من ماضيه، نظراً لأهميتها في إلقاء الضوء على حاضره ومستقبله . استخدمت هذه التقنية لقرائي لأول مرة في الرواية العربية.

يمكن يمكن التواصل مع الكاتب عبر بريده على النت

ilcentro@msn.com

الفصل الاول

"فنانة مشهورة تتعرض لأزمة صحية، حسب مصادر طبية رفضت إعطاء تفاصيل أكثر".

قرأ ميشال سعد هذا الخبر الصغير تحت عنوان "أسرارهم وأسرارهن" في مجلة فنية لبنانية معروفة، ولم يشك لحظة أن المقصودة هي الراقصة زاد، التي انقطعت أخبارها عنه لبضعة شهور بعد وفاة زوجها وصديقه المطرب جلال غندور، وتردد ميشال في الاتصال بها، وقد رجّح أن ظروفها ومعنوياتها سبب أزمتها الصحية التي تمر بها، لكنه حزم أمره في النهاية واتصل على هاتفها الخلوي الذي أعطته رقمه منذ اللقاء الاول الذي جمعه بها وبزوجها.

- كيف حالك يا ميشال. بادرته زاد بعدما تعرفت على المتصل بها من رقمه على شاشتها.
- كيف حالك أنتِ؟
- أنا بخير.
- قرأت خبراً عن صحة فنانة مشهورة منذ يومين.. هل المقصودة هو أنتِ؟
- نعم.
- ومن الذي سرّب الخبر؟
- إحدى الممرضات على الأرجح فالأطباء لا وقت لديهم للإتصال بالاعلام، وأنت تعرف السوشيال ميديا التي أوهمت كل الناس تقريباً أنهم صحافيون.
- وكيف حالكِ الان؟
- بشكل عام أنا بحالة أفضل.
- انا آسف على الازعاج الذي قد يكون سببه اتصالي بكِ؟

- بالعكس. لقد ألهمني اتصالك بحل كنت أبحث عنه، ولم أعلم كيف أبدأ سوى وأنا أتحدث معك.
- ما هي المشكلة طالما أنكِ تفكرين في حل؟
- أعرف علاقتك الوثيقة بأهل جلال، والمرجّح أنك ما زلت على اتصال بهم.
- من وقت لآخر.
- هذا سيسهل أموراً كثيرة.
- هل تريدين الاتصال بهم؟
- نعم، لكن عن طريقك.
- هل تريدين التمهيد لمقابلة معهم؟
- مع أبيه تحديداً.

تساءل ميشال في ما بينه وبين نفسه عن سبب طلب وساطة زاد لرؤية والد جلال غندور، ورجّح أنها قد تكون حاملاً في شهرها الرابع أو الخامس، وتمهيده قد يكون محاولة الاتصال بجد إبنها، لإعادة علاقات مفقودة بعد الظروف الملتبسة التي حدثت عقب زواجها، رغم علمها بمرض جلال بسرطان قاتل وموته في خلال أشهر قليلة، وكلام أخته وتلميحاتها الصريحة والوقحة أحياناً عن قبول زواجها منه لتورثه، وتأثير كلامها وتدهور صحة جلال وموته على العلاقات بينها وبين بقية أهل زوجها، بسبب عامل البيئة الشرقية التي لا يتقبّل أفراد عائلاتها زواج أي رجل فيها براقصة حتى لو كان مطرباً.

ذهبت زاد إلى منزل والد زوجها وهي ترتدي بلوزة سوداء وبنطلون بنفسجي غامق وحذاء نسائياً أنيقاً لا يرتفع عن الارض. كانت المرة الاولى التي تزور فيها عائلة زوجها، فظروف زواجهما التي تمت بشكل سري وبدون أي احتفال وما قيل عنها من أخته، منعتها من هذه الزيارة، وحتى عندما تدهورت صحة زوجها بعد شهور قليلة من زواجهما، كان يصّر على زيارة أهله منفرداً مع سائقه حتى لا يُنغص أي تعليق عليه

ويزيد أوجاعه، وبسبب هذ القطيعة وما رافقها من ظروف ملتبسة حزينة، أقاموا العزاء في منزلهم ولم يدعوها إليه.

ورغم إصرار والد زوجها على الحديث معها بدون وجود أي فرد من أسرته، دفعت الحشرية التي لا تُقاوم زوجته مَلكة للإندفاع نحو باب الشقة والوقوف بجانبه وهو يفتح الباب بعدما دق جرسه.

- كيف حالكِ يا ابنتي؟ سألتها ملكة وهي تعانقها.
- أنا بخير وتمنياتي أن تكونوا بخير أيضا. ردت زاد وهي تمّد يدها لتصافح محمود بيضون والد زوجها.
- نحاول تجاوز ما حدث، لكنني شخصياً ما زلت أحياناً أتوقع حضوره، ثم أعود إلى وعيي ودمعة على خدي. قال محمود.
- ما حدث ليس سهلا على أي منّا. هل جاء الاستاذ ميشال؟
- نعم ويجلس في الصالون. تفضلي.

بدد لقاء زاد ووالد جلال في منزل الاخير كل ما فكّر ميشال فيه بشأن هذه الجلسة العائلية، فقد تبيّن له من أول لحظة رأى زاد فيها أنها ليست حاملاً كما ظن، ثم أوضح الحديث أموراً أخرى.

- أنا هنا من أجل أمور مالية. قالت زاد بهدوء مباشرة بعد ثوانٍ من جلوسها ومصافحة ميشال لها، وهي تنظر إلى محمود بيضون الذي جلس معهما، بدون أي فرد من أفراد أسرته في صالون المنزل.
- وما هي هذه الامور؟ سألها الأب الذي أعادت زيارتها أحزانه كلها إليه في لحظة.
- لا مشاكل قانونية مطلقاً في كل ما تركه جلال وورثته.
- لكن هناك أمر جعلكِ تطلبين رؤيتي.
- حساب جلال في البنك وضعه قبل وفاته تحت إسميّنا معاً، كما نقل ملكية شقة ساحل علما لي. هل أخبرك جلال بذلك؟

- بكل أمانة أقول لكِ إنه صرخ في وجه أخته بعد مشادة بينهما، وقال إنه حر في التصرف بماله. وبعد هذه المشادة لم تسمح الظروف إطلاقاً بمناقشة هذا الامر، بسبب تدهور صحته. وأنا شخصياً مهما كان ابني يملك، خسارتي فيه لا تُعوض ولا أبالي بما ترك أو مَن أورث.
- ألم يخبرك بأي شيء حتى عندما كان يزوركم في أيامه الاخيرة؟
- لا. كان في معنويات سيئة للغاية.
- ....
- إذن أنتِ قانونياً تملكين كل ما أورثه لكِ. ما الامر الذي تريدين مناقشته معي؟
- يا عمي.. انا لم أتزوج جلال لأرثه كما قال بعض الناس.
- هل تريدين كوب ماء؟ لقد نسيت سؤالكِ ماذا تودين أن تشربي؟ سألها محمود بعد لحظات من توقفها عن الكلام بعد تهدج صوتها.
- قليل من الشاي.
- وكوب ماء أولاً؟ سألها وهو ينادي زوجته.
- نعم من فضلك.
- ما الأمر الذي تودين مفاتحتي به؟
- انا لست بحاجة إلى ما ورثته قانونياً، ومستعدة للتنازل عنه لك أو لمن تشاء من أفراد أسرتك.
- هكذا بكل بساطة!
- نعم.
- انا حقيقة لا أصدق ما أسمع.
- لماذا؟ سألته زاد.
- هل أنتِ حامل يا إبنتي؟ سألها والد جلال بعد لحظات صمت.
- لا.

- مازال في هذه الدنيا أولاد حلال. لكن ما سبب رغبتكِ في التنازل عن حقوقكِ؟ حقوقكِ شرعية وقانونية.
- يبدو أنك لم تتوقع ذلك؟
- أبداً. حتى حضورك هنا لم أتوقعه.
- الحقوق التي تقول عنها عبء عليَّ. أنا حقيقة لا أحتاج إلى هذه النقود ولا الشقة.
- خذي وقتك وفكري مرة ثانية واتصلي بي.
- انا فكرت وقررت وكانت مكالمة الاستاذ ميشال للسؤال عني هي بداية التفكير في لقائك لحل هذه المسألة.
- وما المطلوب مني؟
- قل لي لمن يجب التنازل، ثم نذهب إلى محام للإجراءات القانوينة. قالت زاد وأسندت ظهرها لأول مرة منذ جلوسها على الكرسي.
- لي. وانا سأتصرف بعد ذلك. لم أفكّر مطلقاً أنني سأرث ابني. قال محمود بيضون بعد لحظات والدموع تملأ عينيه.
- أقدّر تماماً ثقل هذه اللحظات عليك.
- هل تصدقين لو قلت لك أنني أحياناً أقول لنفسي لماذ تأخر هذا الولد ولم يتصل حتى في المدة الاخيرة؟ قال محمود بيضون.
- كنت تحبه كثيرا على ما يبدو.
- أكثر من الحب. كان شريكي في أمور كثيرة. هو جزء .. أنا حقيقة أشعر بوجع شديد في جسدي عند الحديث عنه أو تذكّره.
- على فكرة، هو كان يتحدث عنك بالطريقة نفسها. روح الشراكة في مشوار واحد والثقة غير المتناهية.

- كان مُساعدي في المحل ومستشاري في كل أموري. هو الابن الوحيد الذي شجعني على الزواج بعد وفاة أمه. غنى في حفلة زواجي المنزلية. قال محمود وهو يمسح دموعه ويبتسم.
- الله يرحمه. قالت زاد.
- انا أول من رآه بعد ولادته. رأيته قبل أمه، وأصرّيت على أن أكون آخر من يراه وهم يكفنوه. الله يرحمه لقد كسرني رحيله.

لم يقل ميشال سعد ولا كلمة أثناء حديث زاد ومحمود، لكنه غادر معها المنزل وهو يقول لمحمود أن مهمته انتهت لكن زياراته لهم لم تنته، وتبادل محمود وزوجته مَلكَة مصافحته باليد عند الباب، بينما كان محمود يقول لزاد أنه سيتنظر هاتفها للذهب إلى المحامي وقتما تشاء.

- مهتمك لم تنته بعد يا أستاذ ميشال. ستكون وكيلي عند المحامي، وهناك بعض التفاصيل المالية عن بعض حقوق جلال الفنية سأشرحها لك، لتتولى أنت شرحها لمحمود بيضون، ولا أعرف كيف سيتعامل المحامي معها.
- يبدو لي أنك تنوين إنهاء هذا الأمر برمته مع عائلة جلال.
- نهائياً. قالت زاد وهي تصافحه قبل التوجه لسيارتها وسط نظرات الفضوليين الذين توقفوا عن بعد ينظرون إليها.

كان سلوك زاد غير مُفسّر من محمود بيضون وميشال سعد، ولم يصل محمود وزوجته مَلكَة إلى أي تفسير معقول يقنع عقليهما، وقد استبعد محمود تماماً فكرة عدم حملها لترد ما ورثته قانونياً وشرعياً من ابنه.

- لا تبرير كما تقولين لإمرأة شيعية في رد ما ورثته من زوج سُني بعد وفاته. المسألة شخصية. لم أسمع بهذا الامر في حياتي. قال محمود لزوجته رداً على تفسيرها لما طلبته زاد.

كما لم يجد ميشال سوى راحة بال زاد في الخطوة التي فعلتها وتناسى تبريراته الشخصية، وقد أكدت زاد راحتها له وهي تقول "نهائياً". بدا واضحاً أنها أزالت عبئاً عن أعصابها. عبء لا يعرفه سواها.

- هل نَدَمتْ على زواجها وتريد طي تلك الصفحة من حياتها؟ سأل ميشال نفسه.

اعتبر ميشال ما فعلته زاد سواء بزواجها أو بتنازلها عن ما ورثته، لا تستطيع عمله سوى إمرأة ذات قلب حديدي، رغم الرومانسية التي بدت من زواج سري بين راقصة مشهورة وفنان يعرف أنه سيموت قريباً.

- هل يعشق أصحاب القلوب الحديدية؟

سأل ميشال نفسه مرة ثانية، وهو يتذكر الطريقة التي تحدثت زاد بها وألوان الملابس التي أتت بها لتقابل أهل زوجها المتوفي. كانت أنيقة بدون إثارة رغم جمالها، ومستقرة نفسانياً ومتجاوزة وفاة زوجها منذ بضعة شهور، رغم صوتها الذي تهدج وهي تتحدث، ولم تبد أنها ضعيفة أو متأثرة من الصدمة التي رآها على وجهها يوم الوفاة.

- لكن لماذا احتجبت عن ممارسة فنها بعد وفاة زوجها؟ وما أسباب زيارتها إلى طبيب والفحوص المخبرية التي أجرتها وتسربت أخبارها للإعلام؟ سأل ميشال نفسه.

اقتصرت معرفة ميشال على زاد من خلال لقائين كان آخرهما الحفل الصغير الذي أقامه في منزله بمناسبة زواجها، في ظروف غريبة كانت معرفتها بمرض جلال زوجها بسرطان مميت في البنكرياس، وتفضيلهما لزواج شرعي تم سرياً بشكل بسيط لا احتفال فيه، وعدم حضور أي من ذويها لأنهم لم يعرفوا بهذا الزواج. كانت مناسبة صغيرة للغاية ضمت ثلاثة أشخاص في شقة، وطلب ميشال طعاماً جاهزاً من أحد المطاعم الفاخرة.

رأى ميشال في اللقائين اللذين رأى زاد فيهما راقصة من نوع فريد، ففي المرة الاولى لم تكن تضع أي مساحيق أو رموش اصطناعية كعادة الفنانات، أو نظارة شمسية

تحجب وجهها مثلهن إذا كن بدون ماكياج. كان واضحاً أنها إمرأة تعرف كيف تتكلم وتنصت. كان هناك شيء قوي فيها ظهر أوضح في المرة التي كانت فيها عروساً، فقد كانت على يقين من انعدام الأمل بحياة زوجها ووفاته في خلال ستة شهور، ورغم ذلك أقدمت على الزواج. كانت في ليلة عرسها بأقل ماكياج تضعه إمرأة، وكان كل شيء فيها يدل على أنوثة بالغة. لم تكن مجرد إمرأة بل كانت أنثى في كل شيء تفعله حتى الطريقة التي تتحدث بها وتنصت.

- على فكرة.. زاد من مدينة صور. قال جلال لميشال وهم يتناولون طعام حفل الزواج البسيط ليلة زواجهما.
- الامر يعني أنكِ حفيدة حيرام بن أبي بعل. زعيم قوي جداً. قال ميشال لها.
- ولا تنسى الأميرة أوروبا التي خطفها كبير الآلهة زيوس من صور ونتج عن علاقتهما إزدهار الحضارة اليونانية. قالت زاد.
- أنتِ قارئة جيدة كما يبدو. قال ميشال مبتسماً وقد فاجأه تعقيبها.
- لكنني اليوم من أصول شيعية. قالت زاد.
- هل جاء أسلافكِ نازحين من العراق؟
- لا. هم لبنانيون.
- الدين ظاهرة خارجية لا تلغي أصول الجينات. قال ميشال.
- أنت رجل مثقف كما يبدو.
- سمعتُ مِن جلال أنكِ متخرجة في كلية الإعلام. قال ميشال وهو يلاحظ أنها لا تستمع إليه فقط، لكنها تُنصت وكأن على شفتيها سؤال.
- هذا صحيح. اليوم، كثير من الراقصات اللبنانيات خريجات جامعة. المهنة لم تعد كما كانت سابقاً. قالت زاد.

فسّر ميشال اتصال زاد به فجراً فور وفاة زوجها في مستشفى مدينة جونيه بسبب القطيعة بينها وبين عائلته، والمؤكد أنها اختارته وسيطاً مرة ثانية لصداقته بعائلة زوجها اسماعيل بيضون المعروف فنياً باسم جلال غندور.

كانت زاد، أو عنايات حسين الأمين حسب شهادة ميلادها، من مدينة صور كما عرف ميشال، من بيئة شيعية محافظة لم يكسر محافظتها سوى جدها وأبيه اللذيّن عاشا حياتهما بالطول والعرض، وكانت لهما تجارة مريبة علاوة على زراعة الحمضيات التي تشتهر بها المنطقة.

تزوجت جدتها سنا من جدها بدر الذي وُلد سنة 1910 بينما كانت جدتها مجهولة العمر بالنسبة للسنة التي وُلدت فيها، وقد قُدّر عمرها لاحقاً قبل الزواج مباشرة، لاستخراج شهادة ميلاد لها بدلا عن المفقودة، بسبب الاحداث التي شهدها جنوبي لبنان ما بين 1915 وسنة 1920، وقدّر الطبيب أنها وُلدت سنة 1921.

تزوجت جدتها وهي تعلم تماماً ظروف زوجها الذي يدير زراعة وتجارة والده المشبوهة التي لم يبال بها آنذاك الاحتلاليّن التركي والفرنسي في لبنان، بل كان أبو زوجها صديق لرجال مهمين في العهديّن، خصوصاً في القنصلية الفرنسية في بيروت، وكان من الذين يُعمل لهم ألف حساب في المنطقة التي يعيش فيها، وقد أهلّته نقوده إلى شراء كل الاراضي المتاخمة لبيته، التي تحولت في ما بعد إلى إقطاعية أهلّته ليكون من أعيان جنوبي لبنان.

- إسمع ما أقوله لك وتعلّم ما أفعله وانطلق مما سترثه مني. المدارس لا تعلّم كل شيء.

كانت هذه العبارة من مأثورات بدر الأمين التي ورثها عن أبيه ويرددها بينه وبين نفسه، بعدما قال أبوه عبد الكريم له أنه تعلّم ما يكفيه لقراءة ما يريده وحساب ما يملك وينفق، ولا داعي لمشوار الذهاب اليومي للمدرسة الثانوية التي أقامتها إحدى

الإرساليات المسيحية في المنطقة آنذاك. وقد ترتب على هذا القرار ملازمة بدر لأبيه ليتعلم ويرى ويفهم ما يفعله والده بعد الانتهاء من المرحلة الاعدادية.

بدأ بدر حياته من التعلم بالتجربة، وكانت زوجته سنا كأي إمرأة في ذلك العصر تتزوج بعد موافقة والدها على الخطيب، الذي كان من نصيبها أن يكون مُطلّقاً، وقد بادر والده بطلب يد سنا من أبيها لتكون ست بيت وأم أحفاد ابنه الوحيد بدر، بعد زواج فاشل لم يدم أكثر من شهور قليلة، علله أبوها بعدم كفاءة العروسين وقلة خبرتيهما لجعل زواجهما يستمر، بسبب صغر عمريهما وتمسكهما بقشور ذلك العمر.

كانت سنا فتاة مربعانية جميلة بمواصفات ذلك الزمان، وقد أهلّتها إرادتها أمام كل ظروف حياتها غير المتناغمة، التي عاشتها مع زوجها لتكون في ما بعد صاحب الكلمة العُليا، وامرأة صعبة المراس بسبب عنادها الفطري.

كانت على يقين داخلي أنها سوف تتسلط على مقدرات البيت بسبب إحدى سقطات زوجها، ولذلك صبرت مثل النمور التي تتابع عن بعد قطيع غزلان نهاراً، لتنقض على طريدتها بعد حلول الظلام، حتى تحولت بسبب عدة ظروف إلى سيدة صاحبة سلطة بطريركية لا تُناقش، وتمتلك المفاتيح التي تؤدي إلى العذاب أو النعيم، رغم كونها عاشت في بيئة كانت تحتم على الرجل إظهار رجولته واخفاء المرأة لإنوثتها.

استكانت سنا لكل شيء حتى لزوجها السكير صاحب النزوات والعلاقات غير الشرعية، التي أدت إحداها إلى زواج عُرفي دائم، أثمر ابنيّن غير شرعيين من علاقة مازالت مستمرة ولم تستطع مطلقاً جعل زوجها يهجر بيته الثاني.

لم تستطع سنا السيطرة على حياة زوجها خارج المنزل، فلا حيلة لها وهي عالة عليه، وكانت مجرد فكرة طلاقها وعودتها إلى بيت أبيها خصوصاً بعدما أنجبت، تعني المزيد من الاعباء والمناكفات والاحساس بأنها ورقة شجرة صفراء ملقاة على الارض تخضع لإتجاهات الريح، لذلك اقتنعت بسلطتها البطريركية داخل بيتها، والتعامل مع سلوكيات زوجها خارجه كمارق سيتوب يوماً لسبب ما، وقد اختارت ابنها الأكبر من

أولادها ليكون عينها على زوجها أينما ذهب. وكان الولد المراهق يصطحبه بسبب رغبة تحاشي والده للسان أمه السليط التي كانت لا تتورع عن فضح زوجها أمام اولاده في المنزل.

كان منزلهم كبيرا جداً من طابق واحد، وأصرّ بدر على كل من تزوج من أولاده الذكور أن يشيّد شقة فوق منزله، فاضطر المتعهدون إلى إضافة أعمدة أخرى في وسط ذلك البيت الضخم ليتحمل البناء الثقل الذي يزداد فوقه، كما شيدوا درجاً خشبياً مسقوفاً مريحاً خارج المنزل، للصعود إلى الطابق الأعلى الذي سيعلوه طوابق أخرى في المستقبل.

كانت جدة زاد بعدما تضخمت سلطة بطريركيتها تنغص على زوجها بسبب كل صغيرة وكبيرة، ما جعله يخفف كثيراً من زياراته لأماكن نزواته القديمة والاصدقاء الذين يسكر معهم، لكنه كان على اتصال بأبنيه غير الشرعيين وأمهما.

كان بدر يرى النساء نوعين، الاول هن من يبدأن شيخوختهن بعد الأربعين، وتؤدي العِشرة معهن إلى إنطلاق لسانهن السليط، خصوصاً بعدما يكبر أولادهن ويصيرون في عمر المراهقة وتبدأ قاماتهم تعلو قامة الأم، لأنهن يزهدن الحياة الجنسية ويبدأن في معاناة الملل واختلاق المشاكل والمناكفات بسبب روتين حياتهن. أما النوع الثاني فهن اللاتي يبدأن شبابهن الثاني بعد العمر نفسه ويعرفن كيف يُمتعن أنفسهن ورجالهن، مهما طالت سنوات علاقتهن بالرجل، وكان يرى في بعض نساء الغجر، أو النوّر كما يُطلق عليهم جنوبي لبنان، مبتغاه ليهرب من الملل والنكد ومماحكات زوجته التي شاخت في أواخر ثلاثينيات عمرها.

كان بدر رجلاً يستعمل ويستمتع بحواسه الخمسة، وكان من أكبر أسباب زهده في زوجته كونها إمرأة خرساء في الفراش، فقد تربت على فضيلة الصمت حشمة والتعبير عن الاحاسيس فحش لا تمارسه المرأة الشريفة بل العاهرات، وطالما حاول عبثاً إطلاق لسانها لكنه لم يفلح، فتوقف تماماً عن محاولاته بعدما قالت له ذات ليلة:

- شو بدي قول؟!

كان بدر بينه وبين نفسه، كرجل ليلي يعيش ويعشق حياة الليل ويعود في ظلمته الحالكة إلى بيته وسط المزارع، يعتبر وهو يمارس الجنس مع زوجته تحت الغطاء بغض النظر عن الفصل، وفي صمت مطبق كيفما وصلت درجات الشهوة، وكأنه يمارسه بين قبور لا تختلف عن السرير الذي ينام فوقه، سوى وجود الحركة التي أنتجت أربعة أولاد رغم عقم الاجواء، لذلك عشق الحرية ومارس الانعتاق من قيود علاقة زوجية نمطية رتيبة مملة، مع بعض نساء الغجر اللاتي يعشن في مخيمات من الصفيح، ويرتحلن بين القرى يبعن حُلي وأقمشة وبخور ومقويات جنسية للرجال ويقرأن الطالع للنساء، ويعرفن تماماً كيف يتعاملن مع الناس كافة، وكانت له تلك العلاقة العُرفية مع إحداهن، وأثمرت ولديّن تربيا وعاشا مع أمهما وتحت رعايتها وكنفه مالياً، بعيداً عن تجمّعات بيوت الصفيح والخيّم التي يعيش الغجر فيها عادة.

- انا لا أفهم سبب غضبكِ.. شرّع الله للمسلم أربعة. عارضيه هو واتركيني في حالي.

هكذا كان يرد على زوجته عندما تحتدم الامور بينهما بعد زيارة أو اقامة عدة أيام مع زوجته الغجرية.

- لماذا لم تتزوجها عوضاً من حياة التسكع والصعلكة هذه؟
- خوفاً من الجاه الزائف وتمحك الناس بالحسب والنسب. خوفاً من ألسنة أفراد عائلتكِ.
- لكنك تعاشرها وتعاشر غيرها.
- لا أعاشر غيرها. لقد انتهى هذا الزمن.
- هذا الامر حرام.
- الحرام هو بهار الحياة. الاكل بدون بهار وملح للمرضى وأنا لست مريضاً.
- هل تعلم أنك وقح فعلا؟

- هذا الامر الذي تعتبرينه حراماً مثل شرب الخمر عندي. كلاهما لا استطيع الاستغناء عنه. كلاهما يعينني على مواجهة الحياة. يعينني على مواجهة نفسي.. وهذا هو الأصح.
- أنت لا تقول الحقيقة.
- لأنكِ لن تفهميها!

كان بدر رجلاً غامض التحركات والصداقات، يحتفظ بأمور له ولا يقولها لأي إنسان تحت أي ظرف، وسمعت زاد بعض الاقاويل عنه، ولم يؤكدها لها عندما سألته عن صحتها بسذاجة الاطفال الذين يبحثون عن أي بطولات في تاريخ عائلاتهم، لكن عيناه وملامحه كانت تنبىء بما لا تقوله شفتاه لفتاة صغيرة.

كان بدر يتاجر بالمخدرات التي كان يزرعها في الجزء الخلفي من إقطاعيته مع تجار في فلسطين، علاوة على زراعة وتجارة الحمضيات التي تحتل الجزء الامامي وما حول بيته، وكان يعيش حياة تاجر مخدرات بكل ما فيها من أسرار وسطوة وعلاقات مشبوهة مع نافذين في السلطتيّن الاستعماريتيّن لحمايته، واستمر في زراعته وتجارته حتى بعد سنة 1948 وقيام دولة إسرائيل، وبدا لزوجته أنه لا يخشى تغيّر الظروف والحكام وموازين القوة الفاعلة الجديدة على الارض، ولا يعيرها أي اهتمام وكأن من يعرفهم أقوى نفوذاً من الحكّام الاسرائيليين الجدد.

ورغم ذلك اختفى بدر لشهور طويلة أثناء إحدى رحلاته إلى إسرائيل، وتناقل الناس همساً ثم علانية أقوالاً عن إلقاء القبض عليه ووجوده في سجن في تل أبيب، وما أكد تلك الاقوال لعائلته هو اختفاء رجاله الذين كانوا يهتمون بزراعة القنب الهندي في إقطاعيته، والافراد القلائل الذين كانوا يحرسونه ويخدمونه، وكذلك الرجال الذين كانوا يزورونه ويستقبلهم منفرداً في صالون منزله ولا يسمع أحد ما يقولون، واضطرت زوجته إلى إزالة كل النباتات المهملة الموجودة في أرضهم، خوفاً من حدوث مكروه لها ولأولادها

في غياب وجود الضبع، كما كانت تطلق على زوجها أحياناً عندما تحتدم الامور بينهما كما هي العادة.

ظهر بدر بعد اختفائه وهمسات أكدّت أنه أُعدم في إسرائيل، ولم تقلها زوجته سنا مطلقاً لأولادهما المراهقين، وعاد بغتة ذات بعد ظهر في سيارة أجرة وكان أول من تنبّه لوجوده خارج المنزل مباشرة أحد أولاده، وكانت الحكاية التي رواها للمهنئين هي إلقاء القبض عليه عن طريق الخديعة، بعد وشاية أحدهم للإسرائيليين بأنه يتاجر في السلاح مع الثوار الفلسطينيين، ثم تم الافراج عنه لعدم وجود أدلة.

لكن تلك الرواية لم تمنع تداول شائعات تقول أن الماسونيين ساهموا في إطلاق سراحه من سجون إسرائيل لأنه ماسوني، وكان مطلقو الهمسات يتحججون بوجود رموز مُعلقة على حيطان منزله لا تنتمي لأي مذهب اسلامي، علاوة على عدم ذهابه إلى المسجد للصلاة سوى في الاعياد أحياناً، وتردده من حين لآخر، الذي أكده كثيرون، على مجمّع كبير لا يسكنه أحد في بيروت، ويقول الناس عنه أنه محفل ماسوني.

لم يعترض بدر مطلقاً على ما قامت به زوجته في الارض الخلفية باقطاعيته، واستبدالها القنب الهندي بالحمضيات والموز وأشجار اللوز، لكنه قرر توسيع وتحديث هذه الزراعة كما بدّل تجار الجملة الذين يشترون محصوله بتجار أكثر نفوذاً وغنى، ثم قرر فجأة بعد بضع سنوات من عودته من إسرائيل زيارة الكعبة، ولم تثته سخرية زوجته له مطلقاً على ما عزم عليه، وتراجعت عن مناوشاتها شبه اليومية معه، بعدما نصحها أهلها بأنه ربما عاد إلى صوابه، وقرر التوبة وبداية حياة جديدة بعد الحج من أجل أولاده الذين يكبرون.

لكن بدر احتفل بطريقة مثيرة بعد عودته حاجاً، ومغادرة ضيوفه الذين جاءوا للتهنئة إلى منازلهم بعد حلول الظلام، إذ شرب الشمبانيا من الزجاجة مباشرة وهي تتدفق بعد الفرقعة المدوية للفلين، وهو غير مبالٍ بزوجته التي كانت تنظر إليه باستهجان، وبعد ذلك بدأ شرب الخمرة بعد أن أحضر المازة ومستلزمات جلسة سُكر

طويلة على الطاولة بنفسه، ضارباً عرض الحائط بنظرات زوجته التي لن تُحضِّر شيئاً له كما توقع بسبب غضبها، بعدما فسّر لها أن الشمبانيا يعتبرها إفتتاحية احتفاله فقط، فهي مظهر فرح ليس إلاّ، ولن تضبط إيقاع مزاجه عقب رحلة مُرهقة.

- لقد وفيّت ما للّه وما أفعله الان لجسدي. قال لزوجته التي جلست على مقربة منه وعلى زاوية فمها ابتسامة ساخرة، بعدما حثت أولادها وساعدتهم على الذهاب للنوم للقيام في الصباح والذهاب إلى المدارس.
- وفيّت ما للّه ظاهرياً كما يبدو، وهو سيحاسبك على ما تفعله بجسدك.
- هل سيحاسبني إذا شربت الشمبانيا؟
- الشمبانيا وغيرها.. ألم ترتدع يا رجل بعد طوافك بالبيت؟
- هل تصدقين أن الله سيحاسبني على شرب الخمرة؟
- وغيرها. قالت سنا وهي تذّكره بماضيه الذي يحاصر حاضره وينبىء بعدم تغيّر مستقبله.
- حقيقة لا قناعات نهائية عندي لكل ما تؤمنين ويؤمن الناس به، لكن عندي سؤاليّن لله: لماذا خلقتَ العنب؟ ولماذا ألهمتَ النفس فجورها؟
- يبدو لي أنك نسيت سؤالاً ثالثاً؟
- ما هو؟
- لماذا خلقتَ القنب الهندي؟
- الحق معك في هذا السؤال! لقد نسيته.
- يا بدر! لقد بدأت تكبر في العمر ويجب عليك تغيير إسلوب حياتك.
- الزمن اختراع إنساني لا تسير قوانيه عليَّ. ما أفعله ولن أتوقف عن عمله يحفظ شبابي. العجائز لا يفعلون شيئاً لذلك هم عجائز.

كانت إقطاعية جد زاد التي يتوسطها بيته، تقع جنوبي شبه جزيرة صور التي كانت جزيرة منعت الإسكندر الأكبر من الوصول إلى أسوارها، ثم ردم الطمي القادم من النيل

البحر من حولها لمدة قرون، وجعلها جزءاً من الساحل اللبناني، وهي آخر مدينة كبيرة قبل حدود لبنان مع إسرائيل، وسهلها الساحلي ضيق يتراوح عرضه بين كيلومتر واحد وكيلومتريّن عند أقصى إتساعه ويشرف عليه جبل عامل، والمنطقة غنية جداً بالمياه العذبة، حيث تقع ينابيع كثيرة جنوبي وشمالي مدينة صور ، وفي شمالها يوجد نهر الليطاني، والمنطقة بكاملها ذات جذور حضارية ممتدة في التاريخ، وكان سكانها أقوياء جداً لدرجة أن أقدم المراجع المكتوبة وهي أسفار العهد القديم تقول أنهم أوقعوا رعبهم على جميع جيرانهم، وشكلوا في كل حقب التاريخ أقوى وأهم المدن الفينيقية على الإطلاق.

كان منزل دارين، أم زاد، يقع على مرمى حجر من إقطاعية أبيها، الذي كان من تقاليده وتقاليد المنطقة أن الاولاد الذكور فقط هم من يعيشون في عِقار الاب. كانت دارين الفتاة الوحيدة بين ثلاثة صبيان، ولم تكن العلاقة بين زاد وأمها بقوة علاقتها مع جدتها، التي كانت في واقع الأمر أمها الصديقة التي تنصت وتتفهم، بينما كانت أمها تنهرها على بلادتها ودرجات امتحاناتها المتدنية في سنوات دراستها الاولى، حين واجهت زاد صعوبة بالغة في استيعاب القراءة والصبر عليها. لم تكن زاد تحب القراءة ويستحيل عليها متابعة ما تقرأه أكثر من سطرين، ثم تضع الكتاب أمام عينيها وتسبح فوق حافة صفحاته في خيالاتها.

- الكتب لا يوجد بها شيء لطيف أو مفيد. قال جدها يوماً لزوجته.
- هل يمكنك نسيان هذه الجملة التافهة التي لم تعد تصلح لهذا الزمن؟
- أنت دائما تخترعين شيئاً عكس ما أقول. فليكن. على الأقل، البنت يجب أن تقرأ ما تحبه.
- وماذا ستقرأ بنت في عمرها؟ سألته سنا؟
- سأشتري لها كتاباً جميل المضمون يحفزّها على القراءة، بدلاً من هذه الجمل التقليدية المملة التي يرددها التلامذة في المدارس من جيل إلى جيل.

اشترى بدر لحفيدته كتاب "ألف ليلة وليلة"، ونصحتها جدتها الأمية بقراءة حكايات وأساطير الكتاب المُسلية التي "كان يحكيها لنا الرواة ونحن صغار" كما قالت لها، وفعل الكتاب مفعول السحر مع ابنة الثانية عشر سنة، لأن الطبعة التي اشتراها جدها كانت الاباحية التي لم تُحذف أو تُوضع نقاط عوضاً عن أي كلمة أو فعل فاضح فيها.

بدأت زاد كدأبها في القراءة وهي تقرأ سطراً أو سطرين ثم تنظر إلى ما فوق حافة صفحات الكتاب وتسبح في خيالاتها، لكن ذات مرة بدأت بعض السطور تجذب انتباهها وهي تقلّب الصفحات بعشوائية، وجعلتها تجلس لساعات وهي تقرأ وسط دهشة الجميع، وكان الكتاب ذا الأثر الأكبر في غرس محبة القراءة عند زاد الصغيرة، وحب المعرفة وخوض عوالم الخيال المجهولة في ما بعد، بل وتفكيرها الطفولي أحياناً في أن تكون بطلة إحدى الاساطير.

أصبح عشق زاد للرقص المشكلة الأعمق بينها وبين أمها بعد تخطيها صعوبة القراءة. ولم يكن الرقص نفسه هو ما يؤرق أمها، فكل البنات الصغيرات في البيئة الشرقية يرقصن أحياناً، لكن تشجيع الحاضرين لابنتها وهي ترقص في الاعراس، والأداء الذي ترقص به كانا سبب حفيظة الام. كان حضورها طاغياً غريباً أمام الناس رغم عدم ظهور معالم أنوثتها كاملة، وكان الحاضرون يحبوها ويطلبون منها الرقص، وكانت محبتهم أقوى من زجر ونهي أمها لها قبل الذهاب إلى أي عرس، وتهديدها بأنها إذا رقصت ستُحرم من مصروفها لمدة شهر، وستجلس في غرفتها ككلبة جربانة وحيدة بعد رجوعها من المدرسة.

- البنت ترقص أفضل من أي راقصة في الاعراس. قالت دارين أم زاد لأبيها حسين ذات يوم.
- لا أعرف ماذا أقول لكِ. لاحظت ذلك. أين تعلمتْ ومَنْ علّمها؟ إنها هنا بيننا لا تذهب إلى أي مكان.

كانت سنا تنهر إبنتها على معاملتها لحفيدتها وتحتضن زاد، التي كانت تهرب إلى بيت جدها عندما يشتد غضب أمها عليها، وكانت تصعد أحياناً وتنام في إحدى غرف شقة أحد أبنائه الذي ذهب إلى بيروت ليعيش مع عائلته.

- إما أن تتفهمين هذه البنت وتتقبلين ما تفعله أو سوف تخسريها للأبد. قالت سنا لإبنتها دارين.
- كيف أتفهمها؟ كيف أتقبلها؟
- سأشرح لك.
- قولي لي.
- بعض النسوة اللاتي يرتلن في الكنيسة المجاورة لنا، وقد سمعتهن بنفسي في الجمعة العظيمة، أجمل صوتاً من فيروز نفسها، لكن الامر لا يتعدى ذلك ولم يفكرن باحتراف الطرب والغناء.
- هل تعتقدين ذلك بالنسبة لهذه البنت؟
- نعم. إنها مجرد بنت تهز خصرها في أي عرس لقريب لنا!
- وأعراس أهل المدينة ومناسبات الاعياد والمدرسة؟
- وهذه المناسبات أيضا!

شرحت سنا لإبنتها رأيها، لكنها في الوقت نفسه كان لديها إحساساً غريباً تجاه حفيدتها. إحساس غير مُفسر بأن هذه الفتاة ستكون شجرة أخرى مستقلة بنفسها، وليست غصناً من أغصان شجرة العائلة.

بدأ ذلك الاحساس ينتاب سنا عندما تأملت الطريقة التي تمشي بها حفيدتها. كانت تمشي وكأن الهواء يحملها كريشة، بينما نور النهار أو مصابيح الليل يزيدون جمال بشرتها روعة. كانت تسير مثل طيف وتتحدث بأنوثة وتأكل بدلال. وكانت كل هذه السلوكيات تتم بدون افتعال منها. وحطمت ابنة الثانية عشرة كل ما ترسّخ في عقل جدتها التي بدأت تتوغل في العمر، كل ما تعرفه عن الرزانة والوقار اللذيّن يجب

أن تكون المرأة عليهما، وجعلتها تخشى أحياناً من التمادي في التفكير عندما تراها وهي ترقص، ولم يقدّر أحد ما تشعر زاد به وهي ترقص، ولم تبح هي سوى لصديقة دُرزّية لها في المدرسة، استعارت اسمها عندما بدأت مشوار الاحتراف، عن ما تفعله الموسيقى في جسدها عندما تسمعها.

- إيقاع الطبلة لا يجعلني أهتز فقط.. يجعلني أشعر أنه ينظّم دقات قلبي حسب سرعته.. ويمدّني بالحياة والحيوية.. انا أذهب فعلا بأحاسيسي إلى مكان آخر، ولا أفيق من .. لا أعرف كيف أصف شعوري.. سوى عندما أرجع. هل تفهمين كلمة أرجع؟
- لا. من أين ترجعين وأنت ترقصين بين الناس؟
- لا أعرف كيف أشرح لك. رغم حركتي أمام الناس، إلاّ أنني شخصياً أنسى جسدي وأنا أرقص.. لا أشعر به!
- وماذا ستفعلين في المستقبل؟
- سأكون راقصة. هذه ستكون مهنتي.
- يعني ستكونين ...
- إخرسي. ليس كل الراقصات مثلما يقول الناس.
- هل أنتِ مجنونة؟
- لماذا؟
- سيذبحكِ أهلكِ.
- هم من النوعية التي لا تذبح. سيتبرأون مني فقط، وعندما سأصبح نجمة سيعترفون بالامر الواقع. قالت زاد لصديقتها.
- هل تعتقدين أنكِ ستكونين نجمة؟
- مسألة وقت. قالت زاد بكل ثقة وهي تبتسم.

عندما فاجأت أول دورات خصوبة الأنثى زاد، هرعت إلى جدتها وأخبرتها بينما كانت أنفاسها ترتفع وتنخفض، وضحكت الجدة سنا وقالت لها: لقد بلغتِ هذا كل ما في الامر.. ولا داعي للقلق. ثم أعانتها على تدبير أمورها وأعطتها بعض النصائح للمستقبل، لأن هذا الامر سيتكرر شهريا حتى تصبح في الخمسين.

- ولماذا الخمسين؟ سألت زاد جدتها وهي تستبدل ملابسها الداخلية.
- لقد بلغتِ اليوم، وعندما سيتوقف هذا الموعد الشهري فمعنى هذا أنك بدأتِي تشيخين. مثلي تماماً يا بنت. تذكريني.

كان لزاد حتى ذهابها للجامعة في بيروت في منتصف تسعينات القرن العشرين سيدتيّن لعبتا دور الأم الصديقة. كانت علاقتها بجدتها أكثر خصوصية واستيعاباً من علاقتها بأمها، التي كانت لا تستطيع رؤيتها سوى كأنثى يجب الخوف عليها، بينما كانت صديقتها زاد بمثابة العقل الذي تستطيع البوح له بأسرارها وجموح خيالات البنات.

- جامعة في بيروت؟ سألتها أمها وقد تجمدت ملامحها من الدهشة.
- وما المشكلة؟ قال أبوها.
- أين ستعيش هذه البنت؟ سألته زوجته.
- عند أخي محمود في الفترة الاولى حتى تتدبر أمر غرفة في بيت الطالبات وتتعرف على المدينة، أو يمكنها الذهاب عدة مرات هذه الصيفية لترتب كل أمور حياة مستقلة بمساعدة عمها.
- يبدو أنني آخر من يعلم بما سيحدث.
- فاتحتني عنايات بالامر عدة مرات قبل نهاية دراستها الثانوية ورأيت ما قالته مقنعاً. كانت بيروت على زماننا بعيدة، لكنها الآن تبعد حوالي ساعتين بالسيارة.
- وهل ستشتري لها سيارة؟
- مستعملة.

- وماذا ستدرس في بيروت؟
- الإعلام.
- هل أصبح الإعلام مجال دراسة؟ أنا أعرف أن الموهوبين فقط إعلاميون.
- الموهبة لا تكفي وحدها اليوم فالحياة تتطور والكتابة وحدها ليست الإعلام. ممكن تكون صحافية أو مذيعة تلفزيون. هذا هو أملي فعلا.

كان الموقف مختلفاً تماماً عندما فاتحت زاد جدتها بالامر، لأنها تعتبر رأيها في قوة رأي أبيها معنوياً بالنسبة لها.

- ما هذه الأعلام التي ستتخصصين في صناعتها؟! أعرف صانع أعلام في صيدا يحقق أرباحاً كبيرة، ولم يذهب إلى جامعات ولا شهادات لديه.
- مَن الذي تتحدثين عنه يا جدتي؟! سألتها زاد وهي تضحك.
- زياد صانع الأعلام في صيدا الذي يبيع مئات الأعلام الاميركية والاسرائيلية والبريطانية والفرنسية وغيرها، ويحرقها المتظاهرون الغاضبون والفلسطينيون والناصريون والقوميون أو غيرهم في مظاهراتهم. الرجل لم يتعلم في جامعات!
- يا جدتي الإعلام غير الأعلام.
- شو يعني إعلام؟
- يعني مجلات..صحف ..راديو.. تلفزيون!
- طيب قولي من الأول صحافة وراديو وتلفويون. بلا هالفلسفة!

كان لحسين والد عنايات ثلاثة صبيان، سافر أكبرهم إلى أميركا لدراسة ادارة المستشفيات لأنها أرخص من لبنان أو أوروبا، أو هكذا أقنعه إبنه الذي كانت له ميول للعيش في الولايات المتحدة بعيدا عن نفوذ "حزب الله" الذي بدأ يتنامى في المنطقة ويجنّد الشباب في صفوفه، وكان إبنه الثاني الأكبر من زاد صاحب موهبة فطرية غريبة في تفكيك أي قطعة في هيكل السيارة وإعادة تركيبها، وتعلّم أيضا كيفية دهان

السيارات وتدرّب على دهان برادات سكان الحي القديمة، ولما أتقن حرفة دهان الثلاجات بدأ دهان سيارات سكان الحي بأقل سعر ممكن حتى يثبت لهم مهارته.

- شو الفرق بين دهان سيارة وبراد. نفس الطريقة.. ما بدي منك مصاري بس حق البضاعة. كان أخوها يقول لأي صاحب سيارة يريد دهانها.
- ولو صار شي غلط.
- رح أعطيك تمن دهانها متل ما أخدته منك.

هكذا كان يقول لأصدقائه الذين كانت ألوان سياراتهم باهته، أو الذين صدموا سياراتهم ولا يملكون نقوداً كافية لتصليحها أو لإعادة دهانها.

- معقول؟ رجعت جديدة. هكذا كان صاحب السيارة يقول له بعد إسبوع.
- ما قلت لك.

كان واضحاً أن أخاها لا يريد الذهاب إلى جامعة، لأن صناعة النقود كما كان يقول لوالده لا تحتاج إلى دراسة، أما الأخ الأصغر فكان طالباً في المدرسة الثانوية وطموحه أن يكون مليونيراً من تجارة الأثاث مثل والده.

الفصل الثاني

- أنا محتجبة عن الفن ومناسبات المجتمع لأنني ببساطة لم أعد قادرة على الرقص، أو الاندماج في الطقوس الاجتماعية. أنا لا أصدق ما يحدث لي.

قالت زاد لميشال وهما جالسان في قهوة أحد فنادق بيروت الكبرى، لتكون بعيدة إلى حد ما عن عيون المتطفلين، بعدما أنجزت كل إجراءات التنازل القانونية لأهل زوجها المتوفي، ووكلّت ميشال للتوقيع بدلاً منها ليكون الامر برمته بعيداً عن الإعلام، لتطوي صفحة زواجها السابق وما نتج عنه سراً، تماماً مثلما تزوجت، فميشال وقّع عن عنايات الأمين وليس زاد، وعنايات ليست شخصية عامة معروفة لدى مندوبي الدوائر الرسمية.

- بصراحة.. هل تعتبرين هذا التنازل كان لازماً لطي صفحة والبدء بأخرى؟ سألها ميشال.
- أتمنى فعلا ذلك. أنا مرهقة للغاية ولستُ مريضة.
- بصراحة أكثر.. هل أنت نادمة على زواجكِ؟ سألها ميشال.
- هل يمكن أن يمحي تنازلي قانوني ذكرياتي؟
- أنا أتكلم عن الندم..
- لست نادمة..حقيقة كنتُ في مرحلة انعدام للوزن. تخيل قصة حب بدأت منذ شهور، وفجأة جاءت حبيبتك وقالت لك أنا مصابة بسرطان مميت، وأطلب منك الزواج حتى أتوفى بسلام، لأنني بحاجة شديدة إليك في شهوري الاخيرة العصيبة. هكذا لم أستطع رفض طلب جلال للزواج مني.
- هل أشفقتِ عليه من الرفض؟

- يمكنك قول ذلك. كان جلال يعلم تقريباً متى سيموت. هذا ليس سهلا. قالت زاد وهي تبتسم ابتسامة خفيفة على شفتيها، وكأنها تنظر إلى ما يدور في عقلها وليس إلى مَن تحدثه.
- هل تعلمين أول فكرة خطرت ببالي عندما قرأت الخبر في المجلة عنكِ؟
- لا.
- اعتقدتُ أنكِ حاملاً، ولذلك كانت زياراتكِ للطبيب والفحوص الطبية.
- جلال كان يعرف متى سيموت. قالت زاد ثم صمتت ونظرت إلى عيني ميشال مباشرة، ولم تكمل جملتها ورجعت إلى نظرتها الداخلية لنفسها وابتسامتها.
- كيف تملئين فراغك في ظروفكِ الراهنة؟ سألها ميشال بعد لحظات صمت ثقيلة محاولاً جذبها إلى اتجاه آخر من التفكير.
- بالرياضة والسباحة والقراءة، وزيارة بيت أهلي في صور كل عطلة. أحياناً أذهب مساء الخميس وأظل إلى بعد ظهر الاحد أو صباح الأثنين.
- إسبوعياً؟
- عطلتي طويلة كما ترى.
- وبدون أي مضايقات؟
- "الحركة" و"الحزب"* أذكي من التورط في إزعاج راقصة. قالت زاد وهي ترفع كتفها الأيمن.
- وربما لأن لبنان يختلف عن باقي دول المنطقة.
- ربما لا تعلم أنني أحمل البطاقة الخضراء الاميركية. حصلت عليها بواسطة أخي الذي يعيش في أميركا.
- إذن أنت مشروع مواطن أميركي.
- وهناك أمر أخطر هو عائلتي صاحبة التاريخ الطويل من التمرد على النفوذ التسلطي العشائري والعائلي في منطقة صور. يمكنك القول أنهم خط أحمر.

*تقصد "حركة أمل" و"حزب الله"

- كيف؟
- أرسل أحد المتنفذين رجالاً إلى بيت جدي في بدايات التسعينات بعد إتصال هاتفي، وقابلهم جدي وأحد أعمامي.
- وماذا كان هدف الزيارة؟
- قالوا زعيمهم معجب جداً بإقطاعية جدي ويريد شراءها، لأنه يملك مالاً كثيراً لاستثمار هذا العقار المهم أفضل مما نفعل، وهذا الاستثمار سيفتح مجالات عمل لكثيرين من شباب المنطقة، وعرضوا ثمناً كبيراً.
- وماذا كان رد جدكِ؟
- قال لهم أنهم قطعوا عليه خلوته بعد الظهر التي يشرب فيها جرعتي عرق بلدي، لأن صحته لم تعد تساعده على شرب النبيذ.
- هل أنتِ جدية في ما تقولين؟
- هذا كان رده فعلا!
- وماذا كان ردهم؟
- فهموا مغزى الرسالة لكنهم قالوا أنهم يريدون رأياً واضحاً لزعيمهم.
- وماذا كان جواب جدّكِ؟
- استأذنهم وذهب إلى غرفته، وكان عمره آنذاك ثلاث وثمانين سنة.
- ثلاث وثمانون سنة!
- الشيطان لمسه وأعطاه القوة كما كانت جدتي تعتقد.. على أية حال، ذهب جدي إلى غرفته ثم عاد ومعه أحد رشاشاته، وأخبر الوفد بأنهم لو عادوا مرة ثانية سيفرّغ طلقات رشاشه في جسد زعيمهم.
- وماذا كان ردهم؟!
- سكتوا ورحلوا.

- هكذا؟!
- بل أكثر.. قال جدي لهم وهم في طريقهم لسياراتهم بالقرب من المنزل: لو رأيت حتى في منامي أن أحدهم يحاول إتلاف محصولي أو حرقه، أو يعرض عليَّ عرضكم نفسه، سأفرّغ رصاصات رشاشي هذا في جسد معلمكم. أنا لا أخاف من إبليس نفسه. سأجعل جسده مثل المنخل. لا شيء يخيفني أو أخشى خسارته. قولوا له حرفياً هذا الكلام. واحد بلطجي كلب!
- وماذا قالوا؟
- لا شيء.
- أتمنى فعلا بداية جديدة لكِ. أنت قادرة على هذا جينياً وشخصياً. قال ميشال وهو يبتسم.
- لم تمنعي ظروف حياتي الصعبة في بيئة شرقية من الرقص. أنت لا تستطيع تخيّل معاناتي التي تخطيتها، والآن لا أدري ماذا يحدث لي.
- جئتِ من بيئة غنية كما سمعتُ وقرأتُ عنكِ.
- أنا لم أرقص من أجل النقود، لذلك لم أعرف البهدلة ولا استجداء الظهور، أو النوم مع أحدهم ليرشحني للرقص في مكان ما. رقصتُ لأني أعشق الرقص، ولم أفكر حقيقة في الشهرة التي أنا في دائرتها، ولم أتكالب عليها. لعب الحظ دوراً مهماً في حياتي، لكنه اقتصر على الرقص فقط. قالت زاد ثم ضحكت من قلبها.
- ......
- على فكرة.. أنا نجحت في اختبار كاميرا، لكنني بعد الشهرة وأنا مازلت في الجامعة لم أجد مُنتِجاً تلفزيونياً واحداً يتقبّل فكرة الجمع بين مذيعة تلفزيونية وراقصة.
- لماذا؟
- اعتبرها كل مدراء الانتاج فكرة فاشلة.
- لماذا؟

- قالوا الناس يريدون رؤيتي وأنا أرقص، ولا يريدون رؤيتي وأنا أحاور. لا يصدقون أن الراقصة تفكر!
- .....
- هذه هي الحقيقة. ينسون أن بعض المذيعات بدأن مشوارهن وهن لا يعرفن كيف يقلن جملة واحدة.. كل شيء مُعد لها سلفاً.
- هل جاء وقت الاتجاه للتلفزيون كمذيعة؟ سألها ميشال وهو يبتسم.
- أنت انسان يوحي كما يبدو. كن على اتصال بي ولا تعتبر معرفتنا انتهت بعد مساعدتك في اتمام الاجراءات القانونية.
- سأظل على اتصال وأرجو ألاّ تعتبرين ذلك تطفلاً.
- أنا ممن يحتفظن بأرقام هواتفهن ولا يغيرنها مع كل جهاز جديد.
- هل تردين بنفسك دائماً؟
- إذا كنتُ أعرف مَنْ يطلبني على هاتفي المحمول الخاص بي، أمّا هاتف منزلي فعادة أستمتع إلى ما سُجل عليه كل صباح.

غادرت زاد المكان وميشال يتابعها بعينيه وهو يتأمل التناقضات بين ظواهر وخفايا حياة فنانة، تكاد ظروفها الشخصية أن تحطم ثمار مشوارها الوعر، بينما هي في ذهن جمهورها الانسانة التي ربما لا تعاني من أذى ولن تطالها شيخوخة أو مرض أو حتى حزن. وسرت في جسمه قشعريرة وهو يفكر في الجملة المبهمة المقتضبة التي توقفت في منتصفها وهي تصف مشاعر زوجها. لم يدر ميشال لماذا قذفته هذه الجملة خصوصاً إلى جزء من حياته لم يُطلع أحد عليها.

لم يندم ميشال على مبادرته بدعوة زاد على فنجان قهوة، بعد اتمام إجراءات تنازلها لعائلة زوجها عن ما ورثته، عندما رآها متوترة وهي تسير نحو سيارتها بجواره صامتة لا تقول شيء. صمت لا يليق بشخصيتها. ذهبا إلى القهوة كلٌ في سيارته ولم يتوقع منها سماع قصصها التي روتها بعفوية وأحياناً بصراحة مذهلة. بدت زاد له ينبوعاً متدفقاً لا

ينضب من الاحاسيس الصافية، رغم تعكّر حياتها بسبب عدم قدرتها على العودة لفنها، وضيقها من ذلك الامر ونيتها في عدم اتخاذه بداية للإعتزال، ولم يدر لماذا أحس أنها امرأة قادرة على بث المشاعر الايجابية بحضورها وشخصيتها وبساطتها في الحديث، ووجهها الخالي من أية مساحيق أو رموش اصطناعية.

كانت زاد في الثامنة عشرة من عمرها عندما ذهبت إلى بيروت لتعيش في منزل عمها وتلتحق بكلية الإعلام. بدا الامر لها غريباً للغاية؛ كيف يعيش المرء على بعد أربعة وثمانين كيلو متراً من عاصمته ولا يراها؟ وكان طبيعياً وهي تتجول في نص البلد ألاّ تجد ما سمعته من جدها بدر عن أجمل ذكريات مشاهد طفولته في بيروت مثل "سوق النورية" و"سوق أبو النصر" و"سوق الصيّاغين". شخصية بيروت آنذاك وهويتها المنفتحة المتميزة بذلك التجمُّع البشري المتنوع، الذي يَصعُب على عين الزائر رؤية أي تمييز أو اختلاف مذاهب أو أديان، في الحشد المتزاحم بالمتجولين والباعة والأصوات المرتفعة والمساومات الشرقية المعروفة عند البيع والشراء :"بشرفي يا حبيب قلبي هيدا رأسمالو".. "وحياتك ياعمي ما في قرش زيادة".. "خدها وما بدي مصاري".. "دوق هالحلو ببلاش وبعدين اشتري.. إذا مش اليوم بكرا"... "ياستي قطعة هالقماش مش غالية.. مستحيل تلاقيها بهالسعر حتى باسطنبول شو عم تحكي؟".

روى جدها لها ان بيروت تبيع الطعام والفواكه والعطور والقماش والتوابل والأوهام، كما تبيع الاقناع وهو فن لا يتقنه سوى الباعة المحترفين، ودائما يدفع الزبون ثمن اقناع البائع أو بضاعته، وفي الحالتين يكون راضياً، وطالما اشترى جدها لأن البائع أقنعه وليس البضاعة، وقد تعلم بائعو بيروت أباً عن جد منذ أكثر من ألف سنة من هو الشاري ومن هو المتسكع، وتعلو قيمة البائع بالنسبة لنفسه أو لصاحب المحل حين يبيع لمتسكع.

رأت زاد في بيروت مدينة أكبر من صور وأي بلدة رأتها جنوبي لبنان، يحاول نصف منها أخذ طابعاً ما غير موجود في صور أو صيدا، ولم تفهمه لقلة خبرتها في الاماكن، لكنها رأته جميلاً جذاباً أنيقاً، وأحبته كثيراً لكنها لم تستطع تفسير السبب.

- إذا أردتِ أن تكوني بيروتية فيجب عليكِ التصرف والحديث مثل بنات بيروت. قال لها عمها.
- كيف؟
- ستلاحظين بنفسكِ. أنت ذكية وستتعلمين بسرعة.

بدأت زاد دراستها وأخذ شعورها بالاغتراب يتلاشى مع كل اسبوع يمر، ولم تتوقع أن تكون لهجتها الجنوبية سبب ابتسامة بعض الفتيات عندما تتحدث معهن، أو تجنّب بعضهن الحديث معها، بينما تجاهل الشبان لكنتها بسبب جمالها الذي كان جواز سفر عبورها إلى المجتمع الجامعي وانخراطها فيه، قبلما تتعلم كيف تتكلم اللهجة البيروتية إلى حد معقول في خلال شهور معدودة.

اختارت زاد كلية الإعلام عن سابق تصوّر وتصميم لتكون بوابتها إلى التعرف على إعلاميين يكونون حلقة صلة بين رغبتها وبين عالم الفن. ومن أجل هذا السبب كانت الاستقلالية في حياتها في بيروت هدفها الثاني الذي حاربت من أجله كل أفراد اسرتها، ما عدا أبيها الذي دعمها معنويا ومالياً.

- إذا لم تحكم قبضتك على هذه البنت ستفلت من يدنا. قالت أمها دراين لزوجها.
- أنا أثق في ابنتي. ستعيش وحدها في غرفتها الصغيرة المستقلة التي أعجبتها. من ينوي عمل شيء سيفعله في خياله إذا مُنع عنه.
- هناك فرق بين العهر في الخيال والعهر في الواقع!
- ابنتي ليست عاهرة. لا أريد سماع هذه الكلمة منكِ بتاتاً.
- هل نسيت هوايتها؟
- لم أنس.

- هذا ثاني لغم توافق على زراعته من وراء ظهري لينسف حياتها وحياتنا. الاول كان موافقتك على التحاقها بكلية الإعلام.
- هذه حياتها ولا أستطيع وضع خطط لحياة أولادي ومستقبلهم. هي مَنْ ستقرر ذلك، وأنا أدعم مالياً وأتمنى نتيجة جيدة.
- أنت لن تنسف حياتها فقط لكن حياتنا. ستفتح أبواب ألسنة الناس علينا. ستجعلهم يتطاولون علينا بعدما صنع أبي هذه الهيبة للعائلة.
- الناس يمكنهم التوقف عن أي شيء إلاّ الكلام.
- وماذا عنك يا محترم؟ هل تريد ترك الحِدادة والبويا لتكون قبضاي أختك الذي يحميها في الافراح والكباريهات؟ سألت الام بصوت عالٍ ابنها الذي كان في غرفته.
- ....
- وأين ستسكن؟ في الضاحية؟ لن يتقبلها الشيعة بدون شادور أو حجاب.
- ستسكن في شارع المقدسي في منطقة الحمرا. صحيح أنها منطقة سُنية لكن التنوع فيها أكبر.
- هل يمكنك تقبّل فكرة وجودها على مسرح وهي ترقص أمام الناس؟ سألت دارين زوجها.
- سأتقبل أي واقع تختاره هي رغم إنني قد لا أكون راضياً عنه. رد أبوها.
- إذن أنت وهي تخططان للأمر نفسه، أنت بالصمت وهي بالتنفيذ.. ستبكي كثيراً يا حسين..أنا لن أتكلم بعد اليوم. قالت أمها وهي تنهي الحوار.

بدأت دارين تلاحظ منذ مراهقة ابنتها أن بعض الدعوات التي تصلهم لحضور حفلات الاعراس، كانت من عائلات لا صلة لهم بها، ولا حتى كانت من جيرانهم، بل كانت في الواقع تأتي لإبنتها لكي ترقص. كانوا يلبون الدعوة أحياناً إذا أعقبها اتصال هاتفي لتأكيد حضورهم لأهميتهم في مجتمع صور، وكانت دارين كما هي العادة تطلب من ابنتها عدم الرقص، لكن الفتاة المُدللة التي تتمنى كل الفتيات أن يكن في مثل جمالها

وجرأتها، كانت ترضخ لطلب جمهورها الصغير، وكانت أمها تندهش فعلا من سحر رشاقة خطواتها وانسيابية حركاتها، وخصرها الذي يتحرك بليونة وجاذبية غريبتين. كانت زاد تعكس نوراً وهي ترقص. نور لا مصدر له ينساب على وجهها وجسدها.

بدأت زاد التعرف أكثر على العاصمة وضواحيها، وتأكدت من معرفتها تقريباً لكل شوارعها عندما تخطت مقولة أهل بيروت "الأشرفية بتضيّع"، وبدأت تتفاعل مع المدينة التي يمكن رؤيتها بلمحات عابرة في ساعة أو أكثر بقليل، لكن سحرها المتوسطي يظل في الروح مثلها مثل جواهر أخرى على البحر المتوسط. كما بدأت زاد تعرف طرقات بعض القرى التي تحيط ببيروت وقد تحولت بفضل النمو العمراني إلى بلدات صغيرة، وكانت التحقيقات الميدانية في السنة الجامعية الثانية سبب هذه المعرفة، وبوابة عبورها إلى العالم الذي يعمل الاعلاميون فيه، فقد بدأ يطلب بعض الاستاذة من التلامذة تحقيقات ومقابلات صحافية، وساعدها بعض تلامذة الصف النهائي في الكلية، لأنهم كانوا يعرفون أرقام هواتف وعناوين كثير من الأعلاميين.

- "دار السنابل". هذه نصيحتي لك. هي منبع كل الاخبار سواء كانت فنية أو نسائية أو سياسية أو صفقات عسكرية. قال لها أحد زملائها.
- مِن أين أبدأ ومع مَنْ؟
- من أي طابق فيها. أي موظف هناك سيكون دليلكِ. إذهبي فقط وسترجعين وأنت متحمسة للمزيد.

تأكد كل زملاء زاد في الجامعة استحالة مواعدتها لأحدهم، بعدما حاول كثيرون طلب ودها لكنها وضعت حاجز الزمالة أمام الجميع، وبدت لهم بعد سنتي دراسة كأنها جاءت إلى هذا المكان لتفعل شيئا آخر، حتى غير الدراسة التي استنتجوا أنها طريق تسلكه لغرض في نفسها لا تبوح به لأحد.

توسط لها أحد الشعراء اللبنانيين الكبار الذين يعملون في "دار السنابل" لتجري مقابلة إعلامية مع مطرب معروف ليُنشر في جريدة الجامعة، وكانت الوساطة لأن كبار المطربين والمطربات عادة لا يوافقون على مقابلات سوى مع المجلات الكبيرة.

- يا ابنتي لقد رتبت لك كل شيء ويمكنني مراجعة أسئلتكِ إذا رغبتِ لتكون المقابلة ممتازة. قال لها الشاعر.
- بكل سرور يا أستاذ. قالت زاد.

غيّر الاستاذ كل أسئلة الطالبة التي صاغتها وفق قوالب ما تعلمته في الجامعة، لأنه يدرك أن بعض المطربين لا يستطيعون التحدث ببراعة مثلما يغنون، وصاغ الحوار في قالب فني خفيف جعلها تخرج بحديث شيّق، نصحها أستاذها في الجامعة بنشره إذا استطاعت في إحدى المجلات الفنية، وقد ساعدها الشاعر الكبير مرة ثانية في هذا الامر.

تساءل بعض الناس في الوسط الإعلامي عن صاحبة الاسم غير المعروف التي أجرت مثل ذلك الحوار، الذي كانت صورة مطربه على غلاف المجلة، وكان الحوار سبب دخول زاد إلى بيوت فنية أخرى لتجري حوارات، بعدما تعلمت حرفية صنعة صياغتها من الشاعر الكبير، الذي نصحها بدخول بيوت السياسيين لحوارات بعيدة عن السياسة، ورشّح أسماءً يمكنها إعطاء حوار غني يتناول الجوانب الاجتماعية والانسانية وربما الفنية التي لا يعرفها الناس عنهم، كما شرح لها بروتوكولات هذه الحوارات وكيف ترتجل وأين، بعيداً عن الاسئلة المُعدة سلفاً. وكان حصاد ذلك أكثر من عشرة مقابلات غير سياسية لاقت استحساناً من القراء، ومن رئيس تحرير المجلة الذي طلب منها المزيد.

- أنا أقرأ كل حواراتكِ وأتمنى فعلا أن تكوني مذيعة تلفزيون. لديكِ الموهبة. قال أبو زاد لها بعد ظهر يوم أحد.
- هناك سنتان باقيتان في الجامعة. أنا أعمل كل ما في وسعي.

- إنني أنتظر مكالمة هاتفية منك تقولين فيها أنك ستجرين حواراً تلفزيونياً وليس لمجلة يوماً ما.

اصطحب الشاعر الكبير زاد ذات ليلة إلى حفل عرس أحد أبناء السياسيين في أحد أهم فنادق منطقة برمانا الراقية. كان يحاول تقديمها إلى المجتمع المخملي الفاعل لتشق طريقها، وكانت هي تثق فيه ولا تأبه للهمسات التي تُقال، فقد كانت تزوره في بيته رغم أنه أرمل يعيش وحيداً، لأنها تعلّم تماماً أنه يعاملها مثل ابنته، فلم يكن الرجل متصابياً أو ممن يطلبون خدمات جنسية أو أوهام الحب أو موديلا نسائياً يلهمه لكتابة قصيدة. كان هدفه مساعدتها لأنه رأى فيها موهبة التعامل في المجتمع وإمكانيات إجراء حوارات، وكل ما تحتاجه هو صقل كتابتها لتحترف هذا المجال، لأنها لا تملك موهبة التحليل السياسي.

وكما هي عادة بعض الفتيات ذهبت زاد لترقص أمام أحد المطربين الذي أحيوا حفل العرس، لأن إيقاعات الأغنية التي كان يغنيها بدأت توقظ الغموض المتأصل في جيناتها تجاه الايقاع، وتجعلها لا تستطيع الجلوس على كرسيها، وعندما بدأت زاد الرقص تلاشت في الحالة التي لا يمكنها وصفها وتفقد شعورها فيها بمن حولها، وبدأ النور الآخاذ الآتي من لا مكان ينعكس على جسدها وحضورها، وكان يزداد روعة كلما انسابت عليها أضواء المسرح المتراقصة المُتغيرة، بشكل جعلها كإلهة من آلهات الغوى يستحيل مقاومة لون بشرتها وشعرها البني وعينيها داكنتي الاخضرار، وسطوة جمالها كما آلهات الاساطير المتوسطية.

- هذا أكبر بكثير حتى من كل خيالات قصائدي. صاح الشاعر الكبير وهو يستقبلها وافقاً، بعد رقصتها وهو يصفق مع بقية الحاضرين بشكل حماسي متواصل.
- هل أعجبتك الرقصة يا أستاذ؟
- مْن علمكِ الرقص؟ سألها وهو يضحك بعدما جلسا.
- مجرد هواية.

- هواية؟ سألها الشاعر وهو يُمرر إبهام يده اليسرى على شفته السفلى.
- نعم.. لا أكثر أو أقل. قالت وعينيها تبتسمان.
- هل تعلمين أنكِ سرقتِ الأضواء من المطرب رغم شهرته؟ سألها هامساً.
- هل تعتقد ذلك؟ سألته بطبقة الصوت نفسها.
- لقد طلب بحركة يده من الموسيقيين تكرار بعض الجمل الموسيقية، عندما لاحظ تجاوب الناس معكِ، ليعطيكِ فرصة أطول للرقص. هو شخصياً بدا مندهشاً لكنه تمالك نفسه لأنه محترف وواصل الغناء.
- لم ألاحظ ذلك!
- كيف؟! سألها بنبرة صوتية أعلى بقليل وهو مندهش.
- لا تفسير عندي. لأنني عدت إلى وعيي تماماً بعد بدء تصفيق الناس وانتهاء الأغنية. قالت بهدوء وصوت منخفض.
- هذا أهم بكثير مِن كل ما قالته مُلهِمات قصائدي.. هذا ما يقوله الصوفيون!
- هذه مجاملة كبيرة.
- لن أندم يوماً لأنني كنت الأب الروحي لكِ. أنت كنز يجب إعادة إكتشافه ولا أعلم تماماً ماذا سيكون مصيركِ في الحياة.

وبينما كان الشاعر وزاد يتحدثان مع مَنْ يجلسون معهم على الطاولة الكبيرة، وهم يأكلون ويتسامرون ويطلبون من الشاعر المزيد من الاخبار الطريفة الحقيقية وليست المتداولة أو المُفبركة عن أهل الفن، أحست زاد بشخص يقترب منها كثيرا.

- هل يمكنكِ الرقص مرة ثانية بدون مطرب؟ سألتها امرأة وهي منحنية وتهمس قريباً من أذنها اليسرى.
- بكل سرور.. لكن متى؟ ردت زاد عندما أدركت أن المرأة هي أم العريس.
- شكراً يا حبيبتي ..بعد قليل. سأخبركِ في اللحظة المناسبة.

سألت زاد قائد الفرقة الموسيقية إذا كان يوجد إيشارب كبير نسبياً، فنهض وسأل الحاضرات وهو يبتسم، فقامت احدى المدعوات وذهبت إلى المكان الذي سترقص زاد فيه وأعطتها إيشارب حريرياً فاخراً لتربطه حول خصرها، ورقصت زاد على مقطوعة موسيقية اختارتها بنفسها وعزفتها الفرقة الموسيقية، وألهب رقصها الراقي حماس الحاضرين الذين تابعوها باعجاب كبير، وهي ترقص لهم وتلتفت أحياناً لترقص للفرقة الموسيقية التي تعزف لها، وهي لازمة تبنتها دائماً في ما بعد في كل رقصاتها، وجعلت رقصة زاد أم العريس تتخلى في نهاية الرقصة عن وقار مركز زوجها السياسي وتزغرد لها بصوت عالٍ وتندفع نحوها وتقبّلها.

أصبحت تانيا زوجة السياسي الماروني تعويذة زاد الثانية بعد الشاعر الكبير، بعدما فتحت أبواب المجتمع المخملي لها على مصاريعه، لتحاور مَنْ تختاره وتنشر الحوار في إحدى مجلات "دار السنابل"، كما مهدت لها طريق العمل في الإذاعة اللبنانية لتقدم برنامجاً يقوم على محاورة ضيوف لبنان فقط، ليكون أول مصدر دخل مالياً ثابتاً لها، وكانت تدعوها إلى مرافقتها لأي عرس تذهب إليه لترقص كهاوية فيه.

- هذه الفتاة شيعية. يعني من جهتكم. قالت زوجة السياسي لمدير الاذاعة على الهاتف، بعدما لاحظت تردده بعد الاختبار الصوتي الذي أدته زاد.
- لكن صوتها....
- ستكون مذيعة وليست مطربة. صوتها هادىء وواضح.
- ما قلتيه صحيح.
- إذن ما المشكلة؟ هل ستتحول هذه الإذاعة إلى مركز للمتقاعدات من التلفزيونات اللبنانية والاذاعات؟
- أنت تعلمين كيف تسير الامور هنا.
- البنت لديها عقلاً يفكر. لا تجعلني أزيد عن ذلك وأذكر التفاهات التي نشاهدها ونسمعها. أعطيها فرصة.

- يستحيل إعطاءها أكثر من ساعتي بث في الشهر. ميزانيتي لا تسمح بأكثر من ذلك.
- عرض مقبول. هل أعجبتك فكرة برنامجها؟
- الفكرة جديدة لكنها تحتاج إلى اتصالات.
- أنا سأتكفل بذلك الامر. هل أخبرها ذلك لتقدم نفسها على أنها مذيعة في الاذاعة اللبنانية؟
- نعم.

ابتسمت الدنيا لزاد، لكن أهل بيتها كانوا عابسين بسبب سماعهم أخبار رقصها في بعض الاعراس، ورؤيتهم صورها وهي ترقص في مجلات فنية واجتماعية.

- أرجو أن تكون حواراتك الصحافية وعملك في الاذاعة طريق وصولك للتلفزيون. قال أبوها أثناء جلسة حوار حامية ضمت كل افراد الاسرة.
- الكذب على النفس هو نفسه ياحسين. أنتما تكذبان على نفسيكما وتريدان منّا تصديق ذلك. قالت أمها.
- نحن هنا نتحدث ولا نتكاذب.
- هذه البنت تفعل كل ما تفعله لتكون راقصة محترفة. إذا بدأت تشق طريقها في الصحافة فما الداعي لرقصها في الحفلات؟
- مجاملات. قالت زاد.
- مجاملات؟ هل تضحكين عليّ يا بنت؟ هل يمكنني إقناع الناس هنا بأن ذلك مجاملات.
- لا شأن للناس بنا. أنا لا أحتاج لهم. هل أنت تحتاجون إليهم؟
- الامر ليس حاجة. ما سيحدث مستقبلا .. ياحسين.. هل تقبل أن يُقال عنك أبو الرقاصة.
- كنت أرقص هنا ولم يقل أحد هذه الكلمة. صرخت زاد في أمها.

- هل تصرخين في وجهي يابنت؟ أنا أعرفكِ وأعرف نواياكِ. سأتبرأ منكِ.
- لا داعي للتشنج. هاتي من الآخر.. هل تريدين القول أن كل هؤلاء المطربات والراقصات شراميط؟
- طبعاً.
- هذا كلام فارغ. لقد أصبحت بعضهن مثل مؤسسات. هل تعلمين كم عائلة ترتزق من وراء مطربة مثل نجوى كرم؟ قال حسين أبو زاد.
- يعني أنت موافق ضمناً؟ سألته زوجته.
- الحياة أكبر منّا. هناك مهن كانوا يسخرون ويحطون من شأن من أصحابها سابقاً، لكن أصحابها اليوم سفراء فن. هكذا يقولون عنهم. بل أن بعضهم سفراء فخريين في الامم المتحدة.
- أقسم أنها لن تدخل بيتي لو أصبحت راقصة، وحتى لو صارت سفيرة فخرية لأميركا التي ستحمل جنسيتها.
- لماذا نجادل بعضنا بعضاً على مستقبل غير معروف. قال أخو زاد الأصغر.
- مستقبلها معروف تماماً لها. قالت أمه.

كانت زاد مترددة فعلا بسبب أجواء عائلتها في اختيار المهنة التي ستعطيها عمرها ووقتها، وكان التردد يصبح مخاوفا أحياناً، لكنها في الصف الرابع في الجامعة حسمت أمرها واشتركت في مسابقة للرقص الشرقي، أقيمت برعاية شبكة تلفزيونية كبيرة، ورغم الثقة التي تملأ قلبها وجعلتها تتجاوز مخاوفها وترددها، لم تدرِ لماذا عادت كلمات أمها إلى ذاكرتها بشكل رَجْع متكرر كأنه صديٍ يرّن داخل رأسها.

- كل جزء من وجهكِ على حدة جميل، لكنه ككل بشع. لا أعرف لماذا.
- أنا لا أعرف لماذا يشجعوكِ ويصفقون لكِ في الافراح. أعتقد لأنهم فلاحين لا يفهمون.
- أنت لست طويلة والراقصة يجب أن تكون طويلة.

كانت أمها دائما تقول لها ذلك دائما حتى تُفقدها الثقة في نفسها ولا تفكر في الرقص. ورغم تجاهل زاد لهذه العبارات بعنادها العظيم، بدأت العبارات نفسها تطّن في رأسها فجأة قبل موعد المسابقة، ربما لأنها سترقص لأول مرة أمام جمهور ببدلة رقص.

كما أيقظ هذا الطنين في لاوعي زاد ما قالته عرّافة لها على شاطىء صور وهي في السنة الدراسية الاخيرة في المدرسة الإعدادية، وكان كفيلاً لكي يوسوس لها بالانسحاب من المسابقة. قالت العرافة التي تلقي الأحجار على الارض وتقرأ أشكالها: "بيدكِ إبريق لكن ما رح تشربي منه"... "الحظ والنحس بيشتغلوا بنفس اللحظة معك"... "رح تتعذبي كتير وتعيشي متل المهجّرين".

- نصح عرافون المعتصم بعدم خوض معركة لأنه سيخسرها، لكنه خاضها وربح. رد الاستاذ على سؤالها له بشأن انسحابها من المسابقة بسبب هواجسها.
- لكن يا أستاذ..
- هل يُعقل لمَن ترقص بمشاعر المتصوفين اعتبار ما قالته امرأة تبيع التفاؤل والتشاؤم جدياً؟
- وماذا عن أمي؟
- هذا أمر شخصي لا أستطيع الخوض فيه.
- ماذا أفعل؟ سألته.
- إذا كانت هذه رغبتكِ افعليها. زوجتي كانت تقول أنني أضيع وقتي في كتابة الشعر، ما يجعلني لا أعرف كيف أكتب حياتي ولا كيف أرتزق، حتى سمعت كبار المطربين يتحدثون معي على الهاتف.
- هل تتوقع لي الشيء نفسه؟
- إرقصي من أجل الرقص نفسه لا من أجل شيء آخر. سأشاهد البث المباشر لهذه المسابقة. لكن هل سترقصين بإسم عنايات الامين؟

- زاد.
- شهر زاد؟
- زاد فقط. اسم صديقة درزية كانت أول من فاتحتها برغبتي وتهيبت من اختياري. على أيه حال، أحب هذا الاسم.

الفصل الثالث

رجحت الطلة وسحر الحركة وجاذبية الحضور وعدم ابتذال الاداء كفة زاد لتفوز بالمركز الأول في المسابقة، لكن سعادتها كانت ممتزجة بتوترها بسبب زوبعة أمها التي ستواجهها في أول زيارة لها إلى صور، وربما بعدوانية بعض زملائها في الجامعة، لكنها في قرارة نفسها كانت تعلم يقيناً أنها اختارت قدرها وعليها مواجهة تداعياته كافة.

- أريد المساهمة في رفع شأن الراقصة من الصورة النمطية لهذه المهنة، خصوصاً في معظم الأفلام حتى الستينات، إلى شيء أفضل.
- وما هي هذه الصورة؟
- المرأة التي تجالس الزبائن بعد وصلتها الراقصة ليفتحوا لها زجاجات الشمبانيا أو الويسكي ليستفيد المحل، أو الفاتنة الشريرة "خاطفة الزوج الغني" من زوجته وأولاده.

هكذا ردت زاد على أول سؤالين لها في برنامج حواري استضافها في الشبكة التلفزيونية نفسها التي رعت مسابقة الرقص الشرقي.

- لكن الصورة النمطية ما زالت مسيطرة على أذهان الناس. قالت لها المذيعة.
- هذا صحيح بسبب سمعة بعض الراقصات الشخصية بعيداً عن الفن، وبسبب عدم تطور عقلية البيئة الشرقية.
- وما رأيكِ في الراقصات الاجنبيات اللاتي غزون هذه المهنة في الشرق الاوسط؟
- بعضهن جامعيات.. مدرسات.. محاميات.
- محاميات؟!
- نعم محاميات في بلادهن، والهدف من الرقص بالنسبة لهن مختلف تماماً. هدفهن الفن. نحن لا نعرف هذا الهدف مع الأسف.

- الناس يعرفون الرقص كفن للغوى؟
- بعض الناس يملكون موهبة فن النصب على الاخرين، لماذا نقول عن هذا الصنف "الشاطر بشطارته"؟ وأعتذر عن قول الجملة التي يصفون بها راقصة، لأنها ستكون ثقيلة جداً وغير مقبولة على الهواء.
- مازالت ثقيلة لماذا اخترتِ هذه المهنة الصعبة؟
- هواية.. قدري.. لأنني اراها فناً.
- لماذا كررت كلمة فن؟
- السينما فن. هل هذا صحيح؟
- نعم.
- لكنها تنتج أفلام إثارة بدون خدش حياء المشاهد.
- مثل ماذا؟
- بعض أفلام هند رستم.. سعاد حسني.. فيلم "حادثة النصف متر" الذي ألمح إلى الاغتصاب بدون أي كلمة إباحية، مع عدم نسيان الفنانات نبيلة عبيد ومديحة كامل. ماجدة في فيلم "السراب". السينما تعالج كل المشاكل والجنس أحدها.
- لكن..
- السينما تنتج أفلاماً إباحية أيضاً.
- لكن هذا ليس فناً.
- أصبح له جوائز في لوس آنجلس. ربما تقولين جوائز هابطة لفن هابط.
- يعني أنتِ اخترتي وجع الرأس.
- يمكنكِ قول هذا، لكنني لست على إستعداد لأكون محامية هذا الفن. وقتي مخصص لفني. سأرقص بطريقتي.
- كيف؟ سألتها المذيعة باستفزاز.

- بدلال موج البحر الذي يداعب رمال الشاطىء، في يوم رياحه هادئة. سأرقص كأنني على الرمال تحية لموج البحر الخالد الذي أحبه كثيرا.
- هذه نظرة شاعرية لواقع يراه الناس مختلفاً.
- هل الراقصة الشرقية تساعد الناس على الافصاح عما في صندوقهم الأسود بشكل غير مباشر؟ السؤال ليس لكِ ولا للجمهور لكنه للتاريخ.
- أشكركِ فعلا على هذا الحوار لأنكِ لم تسعِ فيه إلى شعبية في أول مشوارك، وكنت جريئة وواجهتينا بما نخجل من قوله.

طلب حسين والد زاد رؤيتها في بيروت قبل ذهابها لزيارتهم في صور، وتوجست هي شراً من هذه الزيارة، خصوصاً إنه لم يزرها طوال دراستها سوى مرات تُعد على أصابع اليد الواحدة، فلماذا يزورها وهي على وشك التخرج في الجامعة بعد عامها الرابع؟ لم تتوقع زاد أن يكون سبب زيارته مكروه أصاب فرد من عائلتها، لأن مثل هكذا أمور تُبلغ على الهاتف ويُطلب من المستمع الحضور الفوري. توقعت زاد تفاقم الامور كثيراً في أسرتها بسبب ظهورها في مسابقة الرقص، أو بسبب مشاهدتها في البرنامج الذي تؤكد فيه مشاركتها في المسابقة، لدرجة مبادرة أبيها بزيارتها ليمنع تلاسن أُسري أو شر على مستوى عائلي بسبب البيئة المحيطة، قد يؤدي إلى شيء لا يرغب هو شخصياً في حدوثه.

لم تتوقع زاد إطلاقاً أن يطردها أبوها من البيت، كما توعدتها أمها، لأنها تعلم تماماً تصرفاته ومحاولاته دائما لتفهّم أولاده، وتدرك عدم موافقته على الرقص لأنه كان يحثها على نجومية التلفزيون.

كان حسين الأمين لا يُصدق أحياناً أن ابنته يمكنها احتراف الرقص، ويطرد التخيلات التي تقتحم عقله نهاراً، ويقوم فجأة من النوم ليدخن عندما تهاجمه كوابيسها ليلاً، لكنه كان على استعداد لتقبّل الامر بغفران القديسين مع عدم نسيانه.

- لم أتوقع بتاتاً رؤية أمكِ بهذه الحالة من الغضب. إنها على استعداد لتقتل. قال أبوها بعد مجاملات الدخول إلى المنزل.
- تقتل مَنْ؟ سألته زاد.
- أنا أو أنتِ !
- إنني أفهم الحس التطهري الأرثوذكسي لديها بسبب سيرة جدي وأبيه، وهي لا تطيق أي تلوث.
- بيئي أو أخلاقي. إنها مهووسة نظافة. قال حسين وهو يبتسم لابنته رغم كآبة الأجواء.
- أولا.. أنت من أعظم أباء العالم. من هذه البداية أريد الحديث.
- وماذا تريدين مني؟
- لا أريدك أن تكون ضحيتي.
- هل أترك الامور تسير إلى مشكلة لا حل لها؟
- نعم. الوقت كفيل بحل المشكلة. هل أمي لا تريدني في البيت؟
- نعم.. ويجب الوصول لحل.
- أنا يمكنني العيش خارج نطاق أسرتي. لست أنانية لكني أحب نفسي وأريد النمو.
- هل يمكن النمو بعيداً عن الرقص؟
- أجد متعة فيه. إنني يا أبي أقف على أبواب الشهرة.
- أرجو ألاّ يؤثر الأمر على حياتك الشخصية.
- أعلم ما تفكر فيه تماماً. هذا الامر لن يحدث.
- المؤكد أنكِ لا تستطيعين دفع إيجارك وتدبير شؤون حياتكِ.
- هذا صحيح. ربح المركز الاول في مسابقة لا يعني أنني وجدت عملا بدوام كامل.
- والصحافة؟

- أعمل بالقطعة.
- حسناً. سأتكفل بكِ كأنكِ تلميذة حتى تستطيعين تدبير أمور حياتك العملية، وأرجو أن يحل الوقت هذه المسألة سريعاً. أنتِ لا تعرفين كيف سأنام بهذا الوضع.
- لم اتوقع أبداً إزعاجاً لم يسببه أخوتي الرجال لك. أنا فعلاً آسفة.
- ستُحل الامور إن آجلا أو عاجلا.

أدار حسين الأمين محرك سيارته وقادها إلى صور، وهو مُدرك للعاصفة التي ستواجهه هناك، بعدما أدرك تماماً أن ابنته تستطيع العيش خارج نطاق أسرتها، ويمكنها عمل أي شيء من أجل ما تحب، وربما ستعيش بدون زواج من أجل سواد عيون مهنة تحبها.

لم يكن سهلاً على زاد رفضها من معظم أسرتها، خصوصاً أمها التي قادت كما بدا الحملة، وسايرها معظم أخوتها ما عدا الأخ الأكبر في الولايات المتحدة، الذي بادر بالسؤال عنها هاتفياً بعد أيام قليلة من زيارة أبيها، وطلب منها الاتصال به إذا لم يتصل بها إسبوعياً، والغريب أنه لم يلّمح حتى بأمر فوزها بمسابقة الرقص، بل اكتفى بالقول أن الانسان أحياناً ينتبه إلى خطأ فعله ويتدارك العواقب قبل استفحال الامور.

الامور قد تسوء بالنسبة لفتاة مثل زاد، لكنها حسمت أمرها كما يبدو، وكانت تخطط في ما بينها وبين نفسها للتأقلم مع الامر الواقع، ومحاولة رأب الصدع الذي صار، فهي تعتقد أن الاواصر الاسرية يستحيل موتها و"الدم ما بيصير مي". ورغم ذلك أخذت تسخر من كل شيء تفعله حتى أبسط سلوكياتها اليومية، لتدّرب نفسها على مواجهة الرفض.

- يا زاد هذا ليس مكان المنشفة. ضعيها في المكان المناسب.
- يا زاد شعركِ لونه بني. إصبغيه بلون أسود.
- لماذا تضعين حذاءً في قدميك. هذا لا يجوز. السير حافية القدمين أكثر صحة.

- لماذا تحافظين على وزنكِ؟ زيادة الوزن مطلوبة حتى تصيرين مثل الفيل.
- وقحة! كانت تقول لنفسها وهي تقف أمام المرآة أحياناً.

هكذا كانت زاد تحاول التغلب على شعور المنبوذة من أهلها وآخرين، الذي يسبب آلاماً نفسية، لأنها قررت تجاوز أي صعوبات تقف أمام مشوار نجاحها، وكانت تبحث عن من يؤازرها في بيئة لا تقبل التغيير بشكل عام. لم تخرج زاد طوال أربع سنوات في الجامعة بصديق أو صديقة وفيّة ولم تجد غير صديقة طفولتها زاد لتبادلها الافكار والهواجس.

- زاد. إنني احتاج إلى صداقتكِ أكثر مما تتوقعين. ليتكِ كنتِ قريبة مثل أيام زمان. قالت زاد لصديقتها على الهاتف.
- المسافات غير مهمة. أنتِ تؤأم روحي لدرجة أنكِ استعرتِ اسمي لترقصين.
- هذا صحيح والشهرة سنتقاسمها يوماً. في كل مكان سيجد الناس إسمك مألوفاً وليس غريباً كما هو الان. قالت زاد وهي تضحك.
- علمتُ ما جرى، لقد أصبح حديث البلدة، فكيف يمكنني مساعدتكِ؟
- كوني عيني في منزلنا. زوريهم من فترة لأخرى واروي لي الانطباع.. هل تخف حدّة الدمدمة حولي أم تزيد بسبب كلام الناس.
- سأفعل ما تريدين.
- حاولي زيارتي من وقت لآخر. لديّ شقة صغيرة جداً كما تعلمين ولن تنامي في أوتيل.
- سأزوركِ ونتحدث.

روضت زاد نفسها على رفض وجودها في شِلل بعض طلبة السنة الرابعة، بسبب الغيرة أو ادعاء الشرف الكاذب لأنها كانت على يقين من وجود علاقات جنسية بين طالبات، يتأففن من وجودها، وطلبة بدون زواج أو حتى بوعود زواج، كما رفضت بحسم محاولة بعض الطلبة للوصول إلى فراشها، فمن تعرض جسدها على المسرح من

المُفترض سهولة الوصول لها، وتأقلمت مع كل السلوكيات حتى لا تؤثر عليها سلباً، لأنها كانت على يقين من وصولها إلى دائرة الشهرة الذي سيخلق لها المحبين والمعجبين وسيغيّر نظرة المجتمع لها.

- الناس يصفقون لمن لا يستطيعون أن يكونوا مثله. قال لها الاستاذ.
- لماذا؟ سألته زاد.
- اعتراف بفوز يغارون منه.
- هل هذا تفسيرك الخاص؟
- نعم.

لكن ما أزعج زاد حقاً في الجامعة كان أستاذا مُحاضرا، وفي الوقت نفسه من المحللين السياسيين في جريدة مرموقة، وكان ينظر بغرور إلى تلامذته ويعتبر أن أحداً منهم لن يصل إلى ما حققه يوماً.

- الاعلام هو الكشف عن الحقائق. قال الاستاذ ذات يوم مرتجلاً بعيداً عن موضوع المحاضرة.
- وإذا لم يكشف عن حقائق؟ سأله طالب.
- يكون ما يُكتب مواضيع إنشائية. إعلانات مبوّبة.. ثرثرة.. أي شيء غير الإعلام.
- لكن الإعلام يخفي الحقائق أحياناً أو يغيّرها. قال طالب آخر له.
- هذا ليس إعلاماً. هذا تضليل.
- الصحافي يصطدم أحياناً بقوة أكبر منه فيخاف من قطع الارزاق، وربما ما هو أخطر. وأحيانا يكتب لكن ما يكتبه لا يُنشر.
- يمكنه في هذه الحالة العمل في حقل غير الإعلام، ويمكنها إذا كانت امرأة العمل في كشف مفاتنها. قال الاستاذ وهو ينظر إلى زاد ساخراً.
- مَن تكشف مفاتنها تكشف أيضا عن حقيقة. هذه جرأة. قالت زاد بعدما تيقنت أنها المقصودة، وبدأ الضحك في القاعة واتجهت معظم العيون نحوها.

- أنا لا أرد على مثل هذه الترهات. قال الرجل مُنهياً حديثه بتعالٍ.

بكت زاد لأول مرة أمام أستاذها الشاعر، وكانت من المرات النادرة التي بكت فيها في حياتها، لأنها لم تكن تتوقع من إعلامي ومُحاضر جامعي قول ما قاله، وما تفوه به كان في نظرها لا يُعبر عن أي احساس فني، ولا حتى رأي أستاذ ضمن الكادر الجامعي.

- أولاً.. ماذا حققتِ بنيلك المركز الأول في المسابقة حتى اليوم، قبل التكلم عن هذا الموضوع. قال الشاعر لزاد ليجعلها تهدأ.
- الرقص بأجر مرتفع في أعراس علية القوم. زوجة الوزير رشحتني ثم دفعتني شهرتي التي تنمو يوماً بعد يوم لأرقص في أعراس أكثر. ردت زاد.
- وماذا عن الشهرة على مستوى البلد؟ أين أنتِ على خريطة المشاهير.
- أنا لا أحد حتى اليوم على هذه الخريطة. أخطط للرقص في المهرجانات حتى أكون في دائرة أوسع.
- فقط؟
- فقط. أنا حتى اليوم لا أرقص من أجل الشهرة أو المزيد من الجوائز. أرقص كهواية من أجل ترسيخ صورة معينة لي في المجتمع.
- لماذا جئتِ اليوم وكأنكِ مثل الحبق؟
- لماذا اخترت الريحانة لتصفني؟
- لأنك مثلها. إذا لم تر الشمس لمدة يومين تتقوص إلى الداخل أكثر وتذبل وكأنها ستموت.
- كما شرحت لك. لم أتوقع سماع ما قيل لي في حرم الجامعة.
- على فكرة.. هذا الرجل عقائدي ومتزمت دينياً. هنا بيت القصيد. قال لها الشاعر وهو متجهم بعد صمت.
- هل أنت متأكد؟

- أنا إعلامي أيضا وأعرف خبايا الحقل الذي أعمل فيه. بشكل عام.. هذه بداية لما سنراه مستقبلا في هذا البلد المنفتح.
- ورؤيوي كما يبدو. قالت زاد وهي تضحك.
- هذا الرجل لا يكتب بل يُكتب له.
- وكيف صنع شهرته؟
- تُكتب معظم مقالاته له. لا وقت لديه ليكتب. وقته لاستعمال المباخر والمجاملة والثرثرة حتى يحافظ على مصادر قوته. إنه يُملي أفكاره على الهاتف ويصيغها عادة كاتب مبتدىء يطمح للشهرة، بعدما دربه على إسلوب كتابته.
- لم أرك ولا مرة مُهاجماً بهذه الطريقة.
- لأنه وضيع وانتهازي حقير.
- لأول مرة أراك هكذا.

رغم التنوع السكاني لمنطقة الحمرا التي كانت يوماً شارع الأناقة الأشهر في الشرق الاوسط، وتُناقش في قهاويها جميع التيارات السياسية العربية، لاحظت زاد أن سكان البناية التي تسكن فيها لا يقتربون منها، وعللت الامر بكونها العزباء الوحيدة بين عائلات، ومن عادة المتزوجات ألاّ يتخذن عزباء صديقة، خصوصاً إذا كانت جميلة، وفي حالتها تزيد المهنة المسافة أكثر. ثم بدأت تلاحظ نساء البناية وهن يدفعن أطفالهن داخل منازلهن إذا تصادف وصول أسرة في اللحظة التي تغادر فيها شقتها أو العكس، وكان الزوج أول الداخلين إلى المنزل بنظرة صارمه من زوجته، وبدأ هذا التصرف يزداد حدة كلما كبرت شهرتها.

كانت زاد تتوق إلى الشهرة لتثبت لنفسها ولمن حولها، خصوصاً أفراد عائلتها الذين نبذوها أنها نجحت ولم تعد مُهمشة، ولم تعد تستحق التعنيف أو النَبْذ اللذين مورسا عليها، وقررت ترك شقتها الصغيرة التي تقيم فيها بأسرع ما يمكن، إلى منطقة أوسع

صدراً وأكثر تقبُلا لها، ووجدت مبتغاها في منطقة الحازمية ذات الأغلبية المسيحية. وكان وراء هذه النصيحة الاستاذ الشاعر.

- مازال الإعلام عرف طريقه الدائم إليك، ستحلين ضيفة على برامج كثيرة، وستجدين مجالات أوسع للعمل، وستضيق الدائرة عليكِ في مكان سكنكِ. أنصحكِ بالانتقال في أقرب وقت قبل أن يُطلب منك ذلك صراحة.
- أنا شخصياً غير مرتاحة. لا أستسيغ دخول شقتي كسارق.
- بيروت التي أعرفها يا بنتي ماتت سريرياً. لا شخصية ولا هوية لها اليوم. التوسع العمراني ليس كل شيء في حياة الشعوب.

انتقلت زاد إلى مسكنها الجديد، وأحست في الشهور اللاحقة أنها تستقبل الشهرة وتودع الهامشية، عندما بدأ الناس يحيوها في الشارع والسوبر ماركت وموقف السيارات، والنساء يتنازلن لها عند الحلاّق عن طيب خاطر عن دورهن في صالون الحلاقة، لكنها كانت في الواقع تودّع الهامشية الواسعة وتدخل في صندوق زجاجي، يحكم الناس عليها وهي داخله بما يشاؤون، ويؤلف عنها الإعِلام أخباراً تصبح مرويات في المجتمع لا قِبَل لها بتكذيب غير الحقيقي منها، فهي رغم عملها أيضا كمذيعة لا تستطيع استخدام منبرها كمنصة دفاع عن أخبار مفبركة، ودخلت عزلة الشهرة حيث تنهمر عليها فلاشات المصورين كنجمة جديدة تتناولها الأقلام، وتجعلها توغل أكثر فأكثر في عزلة شهرتها سواء كراقصة أو كمذيعة صاحبة برنامج إسبوعي في إحدى إذاعات FM المعروفة التي يسمعها الشباب.

كانت علاقة الشاعر جوزيف نجار وزاد مُلتبسة بالنسبة لمعظم الناس، وفي منتهى الصفاء بينهما، وطالما أثار وجودهما معاً في أماكن عامة تساؤلات وغمزات وهمسات، حتى بالنسبة لدائرة الاعلاميين الذين كانوا يتحلقون حول الشاعر في إحدى قهاوي نص البلد في بيروت للدردشة والاستشارة أحياناً. لم يكن أحد مقتنعاً بعدم وجود علاقة حب بينهما رغم فارق العمر الذي يبلغ أكثر من نصف قرن، وكان تفسيرهم لذلك الحب

هو أن الفتاة في بعض الاحيان تبحث عن رجل أب حنون صاحب خبرة، وتمر في هذه المرحلة ثم تعبرها عندما تجد أحدهم قد وقع في غرامها بشكل صاعق، وكان أغيظ ما يخطر ببالهم جمال زاد وتجاهلها لدعوات شبان في مثل عمرها، واصرارها على مصاحبة ذلك "الختيار المُكَحكَح"، رغم أنه كان محتفظاً بجسده بدون أي زيادة في الوزن، ولم يفقد شعر رأسه الأشيب مثل معظم الرجال، كما كانت روحه فعلا شبابية وذاكرته عجيبة في قوتها، لأنه كان يذكر لمَن حوله نادرة حدثت في "دار السنابل" بينه وبين مطربة أو موسيقار أو سياسي جملة بجملة، وليس مُجمل الحوار أو خلاصته.

- هل أنتِ متأكدة أنك لا تحبين هذا الرجل؟ سألتها صديقتها زاد وهما ساهرتان في الحازمية، بعد وصلة رقص أدتها زاد في عرس واصطحبت صديقتها معها، لمصادفة حضورها لزيارتها في اليوم نفسه.
- لا أعلم لماذا يظن الناس العلاقة بين رجل وامرأة يجب أن تكون جنسية. هل الأمر موروثا دينيا؟
- أنا لا أتحدث عن أي امرأة يا عنّونة (هكذا كانت زاد تغنّج صديقتها عنايات)
- هذا الرجل، إذا وُجد مثله، بيروتي عتيق لا تجدين مثله سوى في الافلام الأرشيفية. علّمني كيف أبني العلاقات الاجتماعية.. كيف أتحدث في مجتمع مخملي.. نوّرني.. جعلني من النخبة المثقة.. جعلني أرى مشهورين وأنا مغمورة.. مهّد لي طرقاً كثيرة بدون مساومات جنسية.. كان سبب ظهوري على غلاف مجلة مشهورة لأنه أجرى الحديث معي. صحيح أنني أعرف كيف أتكلم لكنه أنطقني بما جعل الاخرين يركضون ورائي لإجراء أحاديث أخرى.
- .....
- نعم أنا أحبه لكن هذا الحب من النوع الذي يؤدي إلى عوالم راقية. لا تنسي أنه جنوبي مثلنا.

وُلد جوزيف نجار في بلدة روم وهي "المستودع" بالسريانية، لأنها كانت مخزن التجار على طريق القوافل الذي يربط صيدا ووادي البقاع وسورية، لكنه هجر صناعة أجداده وضل طريقه في أكبر غابات الصنوبر في الشرق الاوسط، ليقع في غرام شلالات جزين ووديانها السحيقة وجبالها الشاهقة التي تُشرف على أرض كنعان التاريخية، وقابل ملائكة الوحي الذين أملوا عليه بعض قصائده، ووجد الامر فألاً حسناً فقد كان وهو صغير يحلم أن يكون زجالاً من الذين يطوفون بالقرى ويتبارون بالزجل مع غيرهم، وشجّعه أهله بسبب موهبته في كتابة الزجل ورخامة صوته، لكنه رأى نفسه بعد ذلك أقدر على كتابة الأغاني والشعر من الزجل، وكان من الرعيل الاول في الحقل الاعلامي في لبنان، بعدما بدأ كتابة قصيدة إسبوعية في مجلة فنية مشهورة، وسرعان ما لاحظ رئيس التحرير سخريته في ما يكتب فنصحه بالكتابة والنقد الفني، ولعب الحظ في حياته دوراً مهماً عندما غنت له مطربة ذات ثقل فني، فأصبح من كُتّاب الأغنية الذين يطلب المطربون والمطربات منهم التعاون معهم، كما شارك في كتابة حوارات بعض المسرحيات المُغناة، وتزوج وهو في قمة شهرته امرأة فرنسية وأنجبت منه ولداً صار مهندس مقاولات، لكن زوجته توفت بعد إصابتها بمرض غامض أتلف شبكتها العصبية وجعلها مشلولة لمدة سنتين، وعاش أرملاً رغم أنه كان في أواخر أربعينات عمره، و بعد رحلة معاناة مع الوحدة والاكتئاب وإدمان المخدرات، بدأ ما أطلق عليه "طقوس الانغمار في الحياة" والاستمتاع بكل دقيقة فيها.

من هذه الخلفية رأى جوزيف نجار في زاد قطعة ماسية نادرة في سوق مليئة بأحجار لا تماثل قيمتها، لكنها متداولة بحكم واقع تداول الناس لها، فحاول صقلها بما يؤهلها لتكون تراثاً فنياً، وقد نصحها من وحي الضباب الذي يغطي جبال جزين في الليل والصباح الباكر ارتداء بدلة رقص تداعب خيال الرائي وتجعله يتخيل ما وراءها، لأنه تيّقن أنها تستعمل جسدها من أجل الفن، وكان أحياناً يناديها براقصة المعبد.

- هناك مدن لا تُذكر على خريطة السياحة العالمية، وهي بالكاد موجودة على خريطة بلدها، لكنك تقع في غرامها من أول نظرة. قال جوزيف للمتحلقين حوله وبينهم زاد في القهوة إياها في نص البلد.
- ما هي المدينة التي تحبها فعلا؟
- تُبنى الصداقات بين الزائر والمدن وقد تنتهي سريعا بعد العودة. أنا هنا من أنصار تعدد العشيقات العابرات، لكن بعض المدن توجد بيني وبينها علاقات عشق حقيقية. عشق لم يمت ولم يشخ مع شيب شعري.
- قل لنا مدينة منها.
- قررت حب موسكو قبل زيارتها، لكنني فعلا لم أتوقع ضخامة تماثيل وأبنية كييف. حجم ساعة محطة القطار فيها، جعلتني أقف أمامها كعابد أوثان أمام صنمه.

كانت زاد قد رجعت لتوها من السوبر ماركت ظهراً، وبينما كانت تفرّغ أغراضها من الأكياس، سمعت أحدهم يسجل رسالة صوتية لها على هاتفها المنزلي، وأهملت الرد على الهاتف كعادتها لتستمع لها كعادتها في الصباح، لكن ما كانت تسمعه جعلها لا تصدق ما يُقال، فركضت نحو الهاتف ورفعت السماعة وقالت للمتحدث أنها ستكون في خلال دقائق عنده، ومن فرط ارتباكها نسيت وضع بقية الأغراض على الرفوف وفي الثلاجة.

- متى حدث هذا الامر يا مارون؟
- مر الاستاذ جوزيف كالعادة ليأخذ رسائله في الصباح قبل فتح المكتب للناس، وتحدثنا في أمور الدُنيا ثم أخذ رسائله من صندوق بريده الخاص، ورفع يده بالسلام وسار باتجاه الباب وفتحه، لكنه رجع وطلب مني الاتصال بأبنه جورج.
- لماذا؟ سألته زاد وهي في حالة ذهول.

- ليأتي ويأخذه للمستشفى. شعر بوجع شديد مفاجىء في ظهره وصدره في الوقت نفسه. كما وصف.
- وماذا حدث؟
- طلبت منه الاسترخاء على سرير صغير لدينا في غرفة خلفية، يرتاح عليه مَن يفرز البريد ليلا إذا شعر بالتعب من السهر.
- وماذا حدث؟
- جاء جورج بعد حوالي ربع ساعة، لكن الاستاذ جوزيف كان قد توفى وهو ممسك بيدي بقوة، وكأنه لا يريد مغادرة الحياة.
- وماذا حدث بعد ذلك؟
- كما تعلمين. هذا البلد لا شرطة فيه ولا قانون ينظم هذه الامور. وضعنا جسده في سيارة ابنه ونقلناه إلى بيته، واتصلنا بطبيب ليأتي ويكتب وثيقة وفاته. وعندما عدتُ كان أول ما فعلته هو الاتصال بكِ لأنني أعلم كم كان يحبكِ.
- هكذا!
- هذه هي الحياة. مَنْ يعلم ماذا سيحدث بعد ساعة. كان الاستاذ لديه مشاكل في القلب لكنه لم يخبر أحدا بها، وكانت الامور تتفاقم لأنه ظل لسنوات لا يأكل بشكل صحي، وأحياناً لا يأكل على الاطلاق.
- وكان مُدخنّاً كبيراً.
- قال لي عدة مرات التدخين قد يقلص عمره سنة أو خمس سنوات لكنه لا يبالي، لأن كيفية الحياة عنده أهم من عدد سنواتها.
- هل هذا ما قاله لك؟
- كان يخشى وجع المرض فقط، وكان قلبه رحيماً به لأنه توقف في أقل من دقيقة.
- ومتى ستكون الجنازة؟
- بعد غد عند الظهر، حتى يتسنى لبعض الناس الحضور من أماكن بعيدة.

- وهل سيظل جسده في بيت ابنه حتى وقت الجنازة؟
- لا.. سيذهبون به اليوم إلى مستشفى جزين الحكومي، وصباح الجنازة سيُسجى في كنيسة الروم الكاثوليك في بلدته. رد عليها مارون روكز بصوت حزين متهدج.
- منذ متى وأنت تعرفه يامارون؟
- أكثر من ثلاثين سنة. وكان هو سبب معرفتي بكِ، حين اقترح عليكِ استئجار صندوق بريد في مكتبنا ليكون عنوانكِ أيضا ويبعدك عن المتطفلين.
- أنا حقيقة لا أصدق ما أسمع. الله يرحمه. سأكون بعد غد في الكنيسة صباحاً.
- هل تريدين مرافقتي مع زوجتي إلى هناك؟
- لكنني أريد الذهاب قبل بدء صلاة الجنازة وحضور الناس.
- وأنا أيضا. سأجلس أمامه لأستعيد حكايات جميلة رواها لي قبل ذهابه إلى التراب.

كانت ملامح جوزيف نجار في تابوته تدّل على ألم غير محتمل حدث قبل الوفاة، كما وصف لها مدير مكتب البريد، واقتربت زاد منه، وكانت لأول مرة في حياتها ترى متوفياً، لأن أبوها وأمها منعا أولادهما من رؤية أي متوف في العائلة، ووضعت كفها الأيمن على صدره وهي غير مصدقة أن هذه هي آخر مرة تراه فيها، وحاولت تذكّر آخر عبارة قالها لها، لكنها غابت في شريط ذكريات وصور في الذاكرة لا حصر لها كانت تتوالى بشكل سريع في عقلها، ثم دفعتها هذه الصور إلى أول لحظة رأته فيها في مكتبه في "دار السنابل"، وهو يبتسم ويقف مُصافحاً الطالبة التي كانت تبحث عن طريق الفن بواسطة الإعلام. وبكت زاد وهي تُقبل جبينه.

لم تدر زاد لماذا أحست بالرعب في تلك الليلة عندما عادت إلى شقتها. رعب من مشهد ورائحة الموت، ورعب من حضور المتوفي نفسه إلى بيتها! كان جوزيف حداد حاضرا بقوة في عقلها وأمام عينيها، ومن فرط رعبها وضعت فرشة خفيفة تستعملها عندما تذهب إلى الشاطىء أو البرية بجوار باب شقتها، ولم تدر لماذا تصرفت بهذه الطريقة، وحاولت النوم لكنها لم تستطع، فقامت وأضاءت مدخل شقتها وجلست تقرأ

ديوانه الذي أهداه له لعلها تسترخي وتنام لكنها لم تستطع، فذهبت وجلست في البلكون ليذهب عنها رعب مشهد الموت الكئيب، وأخذت تلهي نفسها بمراقبة النجوم، ثم عادت إلى فرشتها بجوار الباب عندما بدأت أنوار الفجر تفتح الباب للظلام لكي يرحل، ونامت نوماً عميقاً ودموعها على خدها.

عانت زاد من حالة الرعب هذه حوالي اسبوعين، وكانت تهاجمها ليلاً بعد عودتها من عملها إذا كانت تعمل، وبعد حلول الظلام إذا كانت في شقتها، واستمرت في النوم بجوار باب شقتها، وحاولت التخلص من هذه الحالة بدعوة ضيوف، لكنها كانت أيضاً تهاجمها بعد مغادرتهم. كان الامر مزعجاً وفكرّت زاد في الذهاب إلى أوتيل للنوم حتى تكسر متلازمة الرعب والليل، لكنها تراجعت لأن الليل يحّل في الاوتيل أيضا، ومن ثمة سيأتي الرعب معه.

لكن المتلازمة بدأت تخف عندما خاطبت زاد نفسها ذات ليلة في البلكون بالقول: هل يمكن أن يكون حضور الاستاذ مرعب لو جاء فعلاً من بين الاموات؟ لم يعد أحد من بين الاموات على أية حال.. بل الحضور في الذاكرة فقط. وبكت زاد وهي تتذكر لطف الرجل وابتسامته التي لم تفارق شفتيه وهو يتكلم معها وحنانه بها.

- إنني فعلا مرعوبه من غيابه كما يبدو وليس حضوره. قالت زاد لنفسها.

كان جوزيف حداد وزيارات أبيها حسين الأمين أهم أسباب عدم احساس زاد بالفراغ العاطفي الكبير بعيداً عن معظم أفراد أسرتها، خصوصاً أمها وبيت أهلها نفسه، فليس هيناً عيش الانسان مقطوعاً من غصون الشجرة التي ينتمي إليها. كانت نخبوية ومساندة الشاعر وأستاذيته في مواجهة الحياة مسّكِن الألم النفسي بالنسبة لها، خصوصاً بعد دخولها عزلة شهرتها، وأصبح الاهتمام بتفاصيل عملها في الاذاعة والرقص هما المُعينان على مواجهة حياتها كفتاة تعيش بمفردها، في الوقت الذي ترتفع فيه الحواجب وتتسع العيون عند رؤيتها في أي مكان، ما عدا سكان بنايتها في الحازمية الذين تعودوا على وجودها وأصبحت رؤيتها روتيناً يومياً لهم، كما كانوا أكثر تقبّلاً لها،

ولم تلحظ بتاتاً أي زوجة تدفع أولادها أو زوجها إلى داخل الشقة عندما تراها، بل كانوا يحيوها بابتسامة، ويتحدثون عنها أحياناً ويتعجبون بينهم وبين أنفسهم من عدم وجود رجل في حياتها، إذ كان كل زوارها من الاعلاميين أو الفنانين، ولم يكن أحد منهم يظل في شقتها بعد زيارتها.

الفصل الرابع

لم تكن زاد تتعامل مع معدّين لحلقاتها الاذاعية الاسبوعية، وكانت تعّد أسئلتها بنفسها، كما كانت تقوم بالاتصال بضيوف بيروت لدعوتهم لحوار في برنامجها. كان وقتها بالكامل مشغولاً في وظيفتيها، وقد اندهش المقربون والبعيدون لجمعها بين وظيفيتين لم تجمع بينهما راقصة من قبل. أما هي فكانت تشعر بسعادة غامرة وراء الميكروفون، وبنمو شخصيتها ومعلوماتها واتصالاتها مع كل ضيف تقابله، وكانت تأمل أن يكون عملها الاذاعي الجسر الذي قد يعيد علاقتها الطبيعية بمعظم أهلها.

- هل يُعقل أن أمي لا تسمع هذا البرنامج؟ سألت زاد أباها ذات زيارة لها في بيروت.
- تسمعه، لكن العناد أحياناً يُطفىء البصيرة، أو قد يجعل الناس حمقى.
- هل تعتقد أنها تشتاق لي؟
- كان أبوها وجدها تاجري مخدرات، ورغم ذلك أحببتها وتزوجتها. أنت لا تؤذين الناس.. على الأقل.
- أتمنى ذلك.
- على فكرة.. أنا لست ضعيفاً. كانت أمي تقول عني أنني طيب جدا لدرجة يحسبني الناس بسببها ساذجاً، وشرير جداً لدرجة يعتقد الناس فيها أنني بدون قلب.
- أنت أب عظيم. هذا كل ما في الامر.
- وأقول لك أنني أتمنى ألاّ تأتي لحظة ألغي فيها كل مَنْ لا يتقبلك كما أنت من حياتي. سأعتبره قد مات، ولن أحضر جنازته كائناً من كان.

كانت الدائرة القريبة التي تتعامل زاد مع أفرادها في فنها صغيرة جداً، إذ كانت تقتصر على فتاة تذهب معها لمساعدتها في وضع الماكياج وتصفيف شعرها وارتداء

بدلة الرقص، والثرثرة أثناء وبعد أداء وصلتها سواء في عرس أو مناسبة أو مهرجان، للتخفيف من وطأة مقابلة الجمهور، وحدّة توترها النفسي الذي كان يتلاشى تماماً بمجرد بدء الفرقة الموسيقية في العزف، أو المقطوعة الموسيقية إذا كان المكان لا موسيقيين فيه، وكانت تستأجر سيارة فاخرة للذهاب إلى المكان الذي سترقص فيه، لأنها كانت تقود سيارتها بنفسها إلى الاذاعة أو أي مكان آخر.

- أنا لا أرقص كل يوم ومن ثمة لا داعي لتوظيف سائق. أحب احساس الحرية بعيدا عن المظاهر الكاذبة. هكذا كانت ترد زاد على من يتهمها بالبخل أو بضرورة الالتزام بقواعد طلة المشهورين والنجوم في المجتمع.
- ولماذا لا يرافقكِ حارس شخصي؟ كانت تُسأل أحياناً.
- وهل أنا رئيس مجلس النواب؟ لا أعداء لي. كانت ترد ساخرة.

قال أخو زاد الذي يعيش في أميركا لها على الهاتف أنها يجب عليها القيام بزيارتها الدورية لكي لا تخسر بطاقتها الخضراء، وأعدت نفسها لهذه الرحلة بتسجيل حلقات مسبقة للإذاعة، والاعتذار عن إحياء أي حفل خلال الشهر الذي ستقضيه في لاس فيغاس، حيث يعيش أخوها ويعمل في إدارة مستشفى، ويملك ويدير محلا لبيع التذكارات الشرقية، وكانت محطتها الاولى في رحلتها هي أمستردام، ومنها ستطير إلى لوس آنجلس ثم إلى فيغاس في رحلة طيران داخلية، لأنها كانت تكره السفر بالسيارة لمدة ثمانية ساعات.

لم تكن زاد ممن يلمحن مَن حولهن بزاوية عيونهن ليتأكدن أنهن محط أنظار الناس، سواء كانت في السوبر ماركت أو في الطريق أو في المطار، وكان طبيعياً أن ترمقها العيون في الطائرة وتلاحقها الابتسامات وكلمات المجاملة خصوصاً من المضيفات، وحدث مرة أن مسافراً وقف وارتجل بيتين من الزجل تحية لها وسط ضحك الركاب وتصفيقهم، لكنها شعرت بعد اقلاع الطائرة في رحلتها إلى أمستردام بمن يلاحقها بعينيه من الكرسي الذي يقع خلفها عن يسارها، ولم تشك لحظة في سبب هذه الملاحقة البصرية. لكن

الشاب الثلاثيني الذي كان يرمقها حاول بدء حوار معها بسؤالها ما إذا كانت هي نفسها زاد أو فتاة تشبهها، وقد سألها بطريقة جعلتها تضحك.

- أنا زاد ولستُ شبيهتها. هل تعتقد أن الركاب واهمون؟
- طبعاً لا، لكن بعض الالتباسات تحدث أحياناً.
- أنا زاد .. اطمئن. قالت وهي تسترسل في الضحك.

عاد الشاب إلى كرسيه مرة أخرى، لكن زاد لاحظت نظراته إليها من وقت لآخر، وشكرته عندما أشترى لها هدية من المضيفة التي تبيع هدايا في النصف الثاني من الرحلات الجوية الطويلة.

- أرجو الاحتفاظ بهذه الهدية الرمزية تقديراً لفنكِ. قال الشاب لها.
- Merci. قالت له.
- يا زاد.. هل وجهتك أمستردام أو مكان آخر؟
- مكان آخر. قالت زاد.
- وأنا أيضا. قال ثم ذهب إلى كرسيه وجلس.

حاول الشاب الاقتراب من زاد بينما المسافرون يغادرون الطائرة، وتبعها إلى المكان الذي جلست فيه في انتظار طائرتها التالية.

- هل سأزعجك إذا جلست بجوارك؟ سألها الشاب.
- لا. قالت زاد بتحفظ.
- لم أقدم نفسي اليك. ناجي العمري. أبي أحد نواب طرابلس في البرلمان.
- وأنت؟
- رجل أعمال.
- بالوراثة؟
- أبي عنده مشاريع كثيرة منها واحد في قبرص، وأنا وأخي ندير مشروعين منها.
- هل تعمل في لبنان أو قبرص؟

- لبنان.
- وما العمل الذي تديره؟
- صناعة المطابخ وتركيبها وصيانتها.
- أنتم أثرياء فعلا.

تبادلت زاد وناجي حديثاً لم يطل كثيراً، فقد كذب عليها لأن أمستردام كانت وجهته، وكان عليه مغادرة المطار ليقابل شخصاً في انتظاره، ولاحظت طوال حديثه معها نظرة اعجاب لا تنبع من كونها مشهورة، بل نظرة اعجاب ذكورية، لكن زاد شعرت باستحالة مبادلته هذا الاعجاب لسبب خفي لم تعرفه.

- أعرف كثيرين قد يطلبوكِ للرقص في مناسباتهم. بزنس.. هل يمكنني طلب رقم هاتفكِ؟
- على فكرة أنا بزنسي الرقص والاذاعة فقط. لا أتعاطى أي بنزنس آخر.. قالت زاد بتحفظ .
- مفهوم. رد ناجي عليها.
- هذا رقم هاتف منزلي، لأن رقم هاتفي المحمول لا أعطيه لمن لا أعرفه.
- على أي حال. هذه بطاقة عملي. سنلتقي يازاد يوماً. قال ناجي مرتبكاً من تحفظها البالغ.

كانت زاد تعتقد أن الصداقات أو الاعجاب أو الحب يبدأون في السفن والمطارات والمستشفيات والقطارات سريعاً بسبب ظروف مكثفة موقتة، وينتهون في نهاية الرحلة أو الاقامة في المستشفى، قصيرة كانت أمّ طويلة، بمجرد الخروج من بوابة المستشفى أو المطار أو محطة القطارات، وبعض الناس يقعون في وهم للحظات يشعرون بسبب كثافتها وظروفها والمشاعر الشخصية الآنية، وكأن هذه الصداقات أو حتى الحب سيعيشون للأبد.. كأنها دقات القدر على باب المنتظرين.. لكن الامر واقعياً

ينتهي عند حمل الحقيبة وقلب الصفحة لصفحة أخرى في يوميات الحياة، أو الخروج من باب المطار للقاء من هم في الانتظار.

لم تعتقد زاد مطلقاً أن هذا "العمري" يمكن أن يكون حتى صديقاً، أو قد يتصل بها فعلا لعمل، وتابعته وهو يسير نحو الباب ومزقت بطاقته وألقتها في سلة المهملات بجوارها.

- هل أولاد الأثرياء يسيرون بهذه الطريقة أم أنه دلوع أمه؟ سألت زاد نفسها وهي تراقبه وتهم بالوقوف للذهاب إلى الكافتيريا.

عادت زاد من الولايات المتحدة وكعادتها بدأت تسمع الرسائل الصوتية التي تركها المتصلون بها لمدة شهر، زارت فيه ولاية نيفادا حيث يعيش أخوها واستمتعت برؤية بحيرة "تاهو" كالمعتاد وركبت مركباً صغيراً فيها، وتجولت في عدد كبير من صالات القمار في الشارع الرئيسي في فيغاس، وأنفقت نقوداً قليلة على آلات القمار بسبب الفضول لأنها لم تكن من هواة المقامرة، كما زارت الاخدود الكبير وبعض محميات ولاية كاليفورنيا، وذهبت إلى"يونيفرسال ستوديو" وتفقدت بعض النوادي التي تعلّم الرقص الشرقي كرياضة للمحافظة على الوزن واللياقة، وحضرت رقصاً شرقياً في أحد مطاعم مدينة "أناهيم".

"أرجو أن تكوني قد عدتِ من رحلتكِ بخير وصحة. أنا ناجي الذي قابلكِ في رحلة أمستردام. سأتصل بك مرة ثانية".

كانت هذه إحدى الرسائل الصوتية التي تلقتها زاد في غيابها، وكان محتوها مكرراً عدة مرات بكلمات مختلفة، لكن زاد محتها ولم تعد تفكر فيها أو بصاحبها.

ثم عاد ناجي للإتصال بعد فترة وكان يترك رسالة صوتية لها بشكل شبه يومي بعد عودتها، تسمعها هي في الصبح كعادتها ولا تبادر بالاتصال به كما كان يطلب منها.

- لماذا لا تتصلين به ياعنّونة؟ سألتها صديقتها زاد.

- لا أشعر بأي شيء تجاهه.
- ولماذا تطلبين استشارة مني مازال الامر كذلك؟
- بسبب رسائله اليومية. لماذا يتصل بي؟
- أعطيه فرصة. اتصلي به لتعرفي نيته ثم قرري.

اتصلت زاد بناجي الذي قال لها أنه يريد رؤيتها عن قرب مرة ثانية في بيروت في أي مكان تختاره وترتاح له.

- لماذ تريد رؤيتي؟ سألته.
- هناك مثل فرنسي يقول: "التلفون وسيلة سيئة للإتصال!".

ذهبت زاد إلى موعدها مع ناجي وهي لا ترغب في الذهاب، وفكّرت فعلا وهو تقود سيارتها بالعودة، لكنها أكملت القيادة.

- لماذا فعلا كل هذا الالحاح على مقابلتي؟ سألته وهما يجلسان في مطعم على البحر في بلدة المعاملتين.
- رؤية الناس المشهورين لها وقع عند الناس حتى لو لا تحبيهم.
- هل أنا مشهورة لهذه الدرجة؟
- طبعاً.
- هل ستفيدك شهرتي في شيء ما؟
- أنا بدون أي مواربة شعرتُ بجاذبية لا تُقاوم نحوكِ من أول نظرة.
- أنا لا أعرف كيف ينجذب الناس.
- ألم تقعي في الحب حتى الان؟
- مشغولة بصناعة حياتي. أنا في الرابعة والعشرين وحياتي كراقصة قصيرة جداً، لذلك أركز على عملي الاعلامي لأنه أطول عمراً.
- هل يمكن أن نكون على اتصال لنعرف بعضنا أكثر. من يدري؟
- ماذا سنعرف؟

- على الأقل أنا. إذا عرفت أنني حقيقة أحبكِ سأفعل المستحيل من أجل هذا الحب.
- نحن من مدينتين مختلفتين فكيف سنعرف بعضنا بعضاً؟
- أحضر إلى بيروت مرتين على الأقل إسبوعياً. عمل.. يمكننا رؤية بعضنا.
- أريدك أن تشاهدني مرة على الأقل وأنا أرقص بين الناس لتراني جيداً. هذا سيساعدك كثيراً على الحكم الصائب.
- اتفقنا.

كان الانطباع الجيد الوحيد الذي تركه ناجي العمري في زاد هو عدم تلميحه بأي دعوة جنسية إليها، أو حتى إطراء جمالها بطريقة وقحة كما يفعل كثيرين من الشبان. كان ينظر طوال الوقت إلى عينيها وشعرها. لم تشعر زاد نحوه بأي انجذاب أو حتى ومضة في إحساسها وهو يقول لها: شعرت بأنني منجذب إليك من أول نظرة، رغم أنها كانت المرة الاولى في حياتها التي تسمع فيها مثل هذه الجملة. كان هناك شيء في ناجي لا تفهمه ويثير شعوراً فيها لا تستطيع وصفه.

كان هذا الاحساس سببه أموراً ظاهرة فيه مثل طريقة قص أظافره وتلوينها بلون يطابق لونها الحقيقي، وإزالة الشعر الزائد في حاجبيه. كما كانت حلاقة وتصفيف شعره غريبة لم ترها حتى في أميركا. كان واضحاً أنه لا يفعل كل هذه الامور بنفسه حتى قص أظافره، وعللت ذلك الامر بالثراء الكبير، واقناع العاملين في صالون الحلاقة لزبائنهم الاغنياء بضرورة عمل هذا أو ذاك لأنهم رجال أو نساء مجتمع ويجب عليهم الظهور في أبهى صورة.

فسرت الامر بهذه الطريقة فهي شخصياً تجيب على بعض المندهشين الذين يسألوها عن ظهورها بدون أي مساحيق، بأنها لا تستعملها سوى أثناء عملها وبشكل خفيف جداً، من أجل تناغم وجهها مع الاضاءة المركزّة عليها، كما لا تضع رموشاً اصطناعية ولا ترى حرجاً في ذلك، بل هي حتى لا تضعها أثناء الرقص وتفضّل الكحل.

كانت محاولة التقرّب منها أكثر واضحة في كل مرة ترى زاد ناجي فيها، ولم يبدُ أنه تأثر سلبياً برؤيتها وهي ترقص، بل قال لها الناس يعلّقون بوقاحة أو بلطفٍ على شيء يثير انتباههم، كلٌ حسب طريقته لأن ما لا يثير انتباههم يتجاهلونه، وأنها جميلة فعلاً ولا يمكن لأحد تجاهلها. كما لم يحاول ناجي أبداً دعوتها لأماكن منعزلة أو طلب الذهاب إلى شقته أو شقتها لأنه عرف أنها تعيش بمفردها. كان يتقرب منه بلطفٍ كبير ويحاول التأثير على حياتها.

ترددت زاد كثيراً وهي تقف لأول مرة أمام باب بيت أهلها في صور بعد سنوات من القطيعة وعدم زيارتهم، ولم تستعمل مفتاحها في زيارتها المفاجئة بعد ظهر يوم أحد. كان قلبها يدق بشدة وهي تضع إبهامها على جرس الباب.

- أهلا.. أهلا يابنتي. لماذا لم تقولي لي على الهاتف إنك ستزورينا. قال أبوها لها مباشرة بعدما فتح الباب.
- فضلّتُ المفاجأة.
- وهي فعلاً مفاجأة جميلة جداً. تفضلي.
- مَنْ الطارق يا أبو عمّار؟ سألت أمها من المطبخ وهي تعد بعض الحلوى.
- عنايات. قال أبوها بصوت مرتفع.
- أهلاً. قالت أمها بصوت ذي وقع معدني بارد لا انفعال فيه، بعدما خرجت من المطبخ ووقفت بجواره مباشرة ولم تسر نحوها.
- كيف أحوالكِ؟ سألها أبوها عندما جلسا في غرفة الجلوس.
- جيدة. أين أخوتي؟
- الشبان كما تعلمين في هذا العمر يأتون ويذهبون كما يحلو لهم.
- أنا أعلم أنني شخص غير مرغوب فيه هنا، لكنني جئت من أجل قرار يجب عليكما مشاركتي فيه. قالت زاد وهي توجه كلامها إلى أبيها.

- أنت تأخذين قراراتكِ بنفسكِ من سنوات، فلماذا تريدين منّا مشاركتك اليوم؟ سألتها أمها بحدة.
- هناك أمر جدّي يجب مشاركتها فيه لا التشاجر معها. قال أبوها بحزم.
- تعرفتُ على شاب يريد التقدم لخطبتي. قالت زاد بسرعة لحسم أي جدل.
- طبّال أو قوّاد؟ سألتها أمها بسخرية.
- إبن النائب أحمد العمري. ردت زاد فوراً لتقطع الطريق أمام أي تلاسن بين أبيها وأمها الذي تأهب للرد عليها.
- ابن أحمد العمري نائب طرابلس؟ سألتها أمها بالسخرية نفسها.
- نعم. وقد جئت إلى هنا لأنه لا يُعقل عقد زواجي بدون حضوركم. وبدون حضوره هنا أولا مع عائلته ليطلبوني منكم حسب التقاليد.
- ابن أحمد العمري سيتزوجك أنتِ؟ سألتها أمها وهي تشير إليها بسبابتها.
- أنتِ ما زلتِ على قناعة أنني عاهرة. ليكن.. هذه قناعتكِ لن أجادلك فيها. أنا هنا لأخبركم بما قلته.
- ولماذا لم تتخذين قراركِ بنفسكِ كما هي عادتك؟ سألتها أمها وهي تضع ابتسامة ساخرة على زاوية فمها.
- هل يمكنكِ تجاهل كل ما حدث أمام هذا الامر المهم في حياة إبنتنا؟ هل يمكننا الحديث باحترام؟ سأل الاب زوجته بحزم.
- على فكرة.. أنا شخصية مؤثرة في المجتمع. مجلات محترمة أجرت حوارات معي. شخصيات مهمة رأتني بعين الاعجاب. وزارات ثقافات دعتني للرقص في مهرجانات..
- وزارات؟ سألتها أمها بالابتسامة نفسها.

- عندي دروع من وزارات وجمعيات.. رقصت مجاناً عدة مرات لمؤسسة تكافح السرطان عند الاطفال لجمع تبرعات لها، واستقبلني الاطفال بالتصفيق والقبلات.. إنسِ الافكار السخيفة التي في رأسكِ. أنا لست عاهرة.
- لنتحدث في المهم يا ابنتي..
- وهل سيقبل أبوه بممارستك الرقص بعد زواجكِ؟ سألت أمها بعدما بدأت تفكر لأول مرة في ما قالته ابنتها.
- سأتفرغ للعمل الإذاعي بعد زواجي. سأعتبر الرقص كان هواية.. مرحلة انتهت من عمري.. إذا كانت عائلة العمري موافقة على رقصي هل ستعارضين أنتِ للأبد؟ سألت زاد أمها.

كان أحمد العمري من النواب الصاعدين من عائلات غير سياسية في تاريخ لبنان، ومن الثوريين أمام الميكروفونات وفي البرلمان، لكنه رجل أعمال يستغل دوائره السياسية في أعماله الخاصة، وقد شق طريقه بنفسه وبمساعدة نواب من طائفته السُنية ليكون ضمن نخبتهم، وكان الشرط الوحيد الذي وضعه النائب هو اعتزال زاد الرقص حتى يوافق على زواج ابنه منها، بعدما فهمت أنه رجل منفتح عقلياً ويقدّر الفن بكل فروعه.

- حتى كرة القدم صارت أرقى. كانت للعاطلين عن العمل وأولاد الشوارع في شبابي، وأصبحت اليوم مهنة تدر الملايين ولاعبوها رجال أعمال. قال أحمد العمري لها في أحد لقائاته القليلة معها.
- ولماذا تطلب مني الاعتزال من ثمة؟
- لا يمكنني التفرغ لسفاهات الناس وتعليقاتهم في كل مكان أذهب إليه..
- خصوصا البرلمان. قاطعته زاد.

- صحيح. معظم الناس لا يفهمون مغزى ما قلته لكِ، ولديهم الوقت للقيل والقال، وأنا وحتى أنتِ لا وقت لدينا للدفاع عن ما يقوله المجتمع. دعينا نتفرغ للأهم، وأنا سأدعمكِ لتكوني أهم مذيعة تلفزيونية وليس إذاعية في لبنان.

عادت العلاقات طبيعية بين زاد وأسرتها بعد زيارة أسرة العمري لعائلتها في صور، وبدأت تزورهم كل فترة مع خطيبها، ولاحظت أمها تعمّد بعض الجيران زيارتهم عندما يرون زاد في صور، وبدلاً من نظرة الاستهجان التي توقعتها أمها من الناس لإبنتها، اندهشت من فرحتهم واعجابهم بها وعبارات المديح التي يمطروها بها.

- أنتِ فخر مدينة صور.
- نشاهدكِ في التلفزيون دائما. ونسمع برنامجكِ في الاذاعة.
- رأيناكِ في التلفزيون وأنت ترقصين في جرش والقاهرة.
- يجب انتخابكِ ملكة جمال لبنان. لماذا لا تشاركين في هذه المسابقة يا زاد؟
- أنت لستِ فخر مدينة صور فقط بل لبنان.

ذُهلت دارين من ردة فعل الناس أنفسهم الذين اعتبروا ابنتها عاراً على المدينة في أحاديثهم خلف الابواب، عندما اشتركت في مسابقة الرقص لأول مرة، وعندما أصبحت مشهورة بدأ يتفاخرون بها في العلن، ورشحوها لتكون ملكة جمال لبنان وتسابقوا لالتقاط الصور معها ومع ابن نائب طرابلس. بل سأل بعض الناس أخاها صاحب محل حدادة ودهان السيارات لماذا لا يضع بوستر كبير لأخته في المحل.

- بوستر؟ سألته أمه.
- نعم هذا ما طلبوه مني.
- ما الذي يحدث للناس؟
- هذا حالهم دائماً.

سارت خطوات زواج زاد بشكل طبيعي، وبدأ الخطيبان يسألان أبا زاد عن أفضل الأثاث لمنزلهما في طرابلس، وكان رده دائماً أنه ترك أمر المطبخ لهما وعليهما ترك أمر

الأثاث له. وعاشت زاد لأول مرة في حياتها قصة حب دُفعت إليها دفعاً بواسطة شاب فعل المستحيل ليستميلها، لكنها لم تشعر أبدا بأي passion في قلبها كما كان يقول جوزيف نجار وهو يتحدث عن الغرام. لم يقلها أبداً باللغة العربية، كان يقولها بالفرنسية ويضم قبضته ويقربها إلى صدره.

ورغم ذلك كانت سعيدة كأي فتاة لا يشغل قلبها أي انسان، ووجدت مَنْ يحبها بصدق ويحترمها، وكانت خطوته من الزواج بها سبباً في عودة مياه علاقتها بأسرتها كلها إلى مجاريها الطبيعية.

بدأت زاد تضع قائمة أسماء دعوة زواجها، وعادت بذاكرتها لكل من ساعدوها في بدايات حياتها، ومنهم تانيا زوجة السياسي الماروني جورج الراعي، التي لم تزل على اتصال بها من وقت لآخر، ووضعت عليها حتى من قدّم أصغر خدمة لها مثل مارون روكز مدير مكتب البريد، وحاولت عدة مرات الاتصال بميشال لكن هاتفه كان خارج الخدمة، فرجحت وجوده الموسمي في فرنسا، وأثناء انشغالها التام بهذه الاستعدادات وبدء التمهيد للإنتقال إلى طرابلس، سمعت على مجيب هاتفها الصوتي المنزلي ذات صباح رسالة مقتضبة يقول فيها صاحبها أنه أرسل إليها "سي دي" على صندوق بريدها الخاص بالحازمية، ويرجوها فيه مشاهدة محتواه بنفسها بعيداً عن أي شخص آخر، وسيتحدث معها بعد يومين بعدما تكون قد شاهدت محتوى ما أرسله.

توجست زاد من هذه الرسالة، وعادت بذاكرتها إلى ماضيها، ولم تتذكر أنها رقصت شبه عارية في أي حفلة خاصة في يخت أو قصر أو فيللا، كما لم يكن لها علاقات جنسية ربما صورها أحدهم أثناءها، ولم تقف عارية أو شبه عارية أمام كاميرا للمجلات، وحتى كل بدلات رقصها من النوع الذي يداعب خيال المشاهد، ويستر أكثر مما يكشف. شعرت زاد أنها قد تكون مستهدفة بابتزاز ما بسبب زواجها من ابن نائب.

ووصل طرد بريدي فعلا بعد يومين باسمها، كما قال لها مارون روكز على الهاتف، وشاهدت "سي دي" فور عودتها إلى شقتها لتعرف ما نوع الابتزاز الذي ستقع فيه،

وبمجرد بدء مشاهد الفيلم الذي صُور بطريقة خفية، لكن كل تفاصيله كانت واضحة، بدأ الذهول يشّل كل عضلات جسدها، فالفيلم صوّر علاقة مثلية بين ثلاثة رجال وكان خطيبها يلعب دور المرأة.

كان واضحاً جداً أن ناجي العمري في حالة سكر أو تحت تأثير مخدر ما، لكنه لم يكن فاقد الارادة مطلقاً. تمت مضاجعته ومّص أعضاء الرجلين الذكورية بارادته طوال مدة الفيلم، وقد تناوب الذكران على مضاجعته، ولم يبادر بمضاجعتهما ولا مرة كما كانا يفعلان، وكان دائماً يمّص عضو الذي لا يضاجعه، بل أنه لحس ما قذفه أحد الذكريّن على وجهه بلذة تامة، وهو يقول له كلاماً فاحشاً.

كان كل شيء واضحاً أمام زاد، وما لم يكن واضحاً هو هل صُور الفيلم بدون أو بعلم ناجي العمري، لكن مدة الفيلم والكلمات التي تبادلها الذكور الثلاثة تؤكد أن ما تم كان بين رجال يعرفون بعضهم بعضاً تماماً، ويمارسون المثلية باحتراف ولذة، فما شاهدته يستحيل أن يكون صدفةً، أو بين ثلاثة مراهقين لا يجدون إمرأة يمارسون الجنس معها.

أحست زاد بأنها تريد التقيؤ وهي تشاهد الفيلم، فأسرعت إلى دورة المياه ولم تستطع لأنها لم تكن قد أفطرت بعد، وشعرت بأن عضلات معدتها تكاد تتمزق وبعض اللعاب يخرج من فمها بصعوبة. ثم عادت لتكمل مشاهدة الفيلم مرة أخرى لتتأكد أن ما يحدث لا تلاعب أو خدع بصرية فيه، لكن الحقيقة كانت عارية وصوت خطيبها واضحاً للغاية، وثقة الذكور الثلاثة ببعضهم بعضاً واضحة تماماً لأنهم لم يستعملوا واق ذكري، ومن ثمة لا يخافون من مرض ينتقل بينهم، وكان ما أثار انتباهها في المرة الثانية وهي تتابع الفيلم، أن خطيبها لم يكن لديه أي عيب خَلقي في عضوه الذكري، وهو قادر على الانتصاب بشكل طبيعي، بل أن أحد الذكرين داعب عضو خطيبها بيده حتى قذف مثلهما وسط ضحكهم وتعليقاتهم الفاحشة، ثم أخذوا في تدخين لفائف

أضخم من السجائر العادية بعد ذلك، ما يعني أنهم كانوا يدخنون حشيشة الكيف أو أي شيء آخر ولا يشربون الكحوليات.

- هذه الدقائق جزء من وقت أطول.. المونتاج واضح في اللقطات. أرادوا إعلامي بشيء محدد.. لكن ما الغرض من هذا الفيلم؟

سألت زاد نفسها وهي تشرب اليانسون لتهدىء تقلصات معدتها التي تؤلمها، وقررت عدم اتخاذ أي قرار سوى بعد المكالمة الهاتفية المرتقبة التي حددها المتحدث بيوميّن، وزيارة طبيب نفساني للإستشارة ومساعدتها على تجاوز المرحلة القادمة التي ستكون صعبة.

- لماذا أرسلتم هذا الفيلم لي؟ أقول أرسلتم لأنه لا يُعقل أن تكون وحدك وراء هذا العمل. قالت زاد على الهاتف.
- لا تضيعي وقتك بالبحث عن شخصية المرسِل لأنها مزيفة وكذلك العنوان.
- لماذا أرسلتم الفيلم لي؟ كررت زاد سؤالها.
- لأنكِ شخصية عامة ومحبوبة. ارسلناه لتكوني على بينة وتأخذي قراركِ.
- هل كان ناجي العمري على علم بالتصوير؟
- ولا واحد منهم. وُضعت الكاميرا بدون علم ناجي وهو صاحب الشقة التي ستتزوجين فيها.
- هل الهدف هو الابتزاز؟
- لا. تهديد أحمد العمري بالفضيحة لينسحب من شراء ترخيص فرع لشركة عالمية في بيروت، إذا رفض الرضوخ. ومن المحتمل أن يكون قد شاهد ما شاهدتيه. أنا دوري فقط يختص بكِ.
- هل أحمد العمري يعلم بمثلية ابنه؟
- يعلم تماماً من زمان.. وهذا مبرر قبوله زواج ابنه منك. يظن أن زواجه سيجعل النافذين يعتقدون ما يُقال إشاعات.

- لا أعرف ماذا أقول لك..
- هذا الشاب مدمن شم أفيون أيضاً. أنتِ شخصية عامة ومحبوبة ولكِ حرية الاختيار بعد كل ما عرفتي.
- هل أنا في نطاق أي ضغوط قد تحدث في المستقبل؟
- لا أعرف أي شيء أكثر مما قلته، لكني أعتقد أنكِ بعيدة تماماً عن أي ضغط. احتفظي بما عرفتي لنفسك، ولا تتورطي في أمور أكبر منكِ. مع السلامة يا زاد.

كانت الخطوة التالية بينما زاد تستعد لحفل عرسها الذي لم يبق سوى أقل من إسبوعين فقط عليه هي مقابلة طبيب نفساني، لأنها أحست أنها في ورطة عظيمة لا تعرف كيف تتعامل معها أو تتخلص منها، وطلبت من الطبيب النفساني رؤيته خارج عيادته لخصوصية حالتها.

- أنا لا عيادة لي خارج المستشفي الذي أعمل فيه. يبدو أن كل من خارجها أصحاء في هذا البلد ونحن المجانين. قال لها الرجل وهو يضحك.
- هل تعمل في مستشفى العصفورية فقط؟
- نعم. كيف سأدفع مصاريف عيادة في بلد كل سكانه لا مشاكل نفسية لديهم؟ قال لها وهو يسترسل في الضحك.
- لكن..
- هذا رقم هاتف بيتي ومن ردت عليكِ زوجتي وليست سكرتيرتي.
- وكيف يمكنني رؤيتك؟
- في المستشفي إذا أردتِ.
- أنا شخصية عامة.
- يمكنني رؤيتكِ في بيتي إذا كان الامر يناسبكِ. زوجتي تحترم مهنتي وأسرارها.

ذهبت زاد إلى شقة الطبيب النفساني وهي غير مصدقة لما يحدث لها وتوقيته، وفي حالة شبه انهيار نفسي من التساؤلات التي ستنتظرها إذا رفضت الزواج المُعد له من

كل الزوايا، خصوصاً الإعلامية وهي الأشرس، وماذا سيقول المجتمع عنها وما هي الاعذار التي ستختلقها لتبرير إلغاء زواج أعلنت عنه وأكدته لعدة وسائل إعلامية، وماذا ستقول أسرتها خصوصاً أمها.

سيطرت كل هذه الاسئلة على عقل زاد، في الوقت نفسه التي وقعت فيه فريسة مشاعرها التي تتحرك بين القرف الشديد والذهول من خطيبها الذي رأت ذكريّن يضاجعانه، بينما يعتبرها الناس رمز الغوى وملكة جمال لبنان غير المتوجة كما قيل لها، والأنثى التي يتمنى ألوف الرجال مجرد ابتسامة منها.

كادت زاد أن تتصدع تحت وطأة كل هذه المُنغصات، ولم تتفاجىء بذهول الطبيب نفسه عندما رآها على باب شقته، وتلعثم للحظات ظناً منه أنها أخطأت الشقة، وليست المريضة التي ينتظرها ليساعدها على حل مشكلة.

- هذا الرجل ثنائي الجنس. حالة معروفة علمياً، لكنها غير مُعلنة في مجتمع محافظ كمجتمعنا. قال الطبيب لزاد بعد روايتها لما رأته.
- سمعت عن رجل مشهور جداً أنه لوطي لكنه متزوج، ولم أصدق ما سمعته لأن لديه أولاد.
- صدّقي. مزدوج الجنس قادر على ممارسة الجنس مع إمرأة والانجاب، ويحب ممارسة رجل معه.
- وماذا أفعل؟
- أنتِ صاحبة القرار.
- إذا عدنا لهذا الرجل المعروف.. هل تعتقد أن زوجته تعرف؟
- ربما.
- يستحيل عليَّ العيش مع رجل رأيت رجليّن يضاجعانه.
- هذا قراركِ.
- هل تعتقد أنه يمكن أن يُشفى؟ هذا مرض أليس كذلك؟

- سيظل على سلوكه نفسه، ودائماً لدى هذا النوع تبريراته الخاصة التي ربما تحسبيها أنت وقاحة أو تبجح.
- هل هذا أكيد؟
- نعم. هل هو غني؟
- جداً.
- هذا يُفسر انحلاله علاوة على مثليته.
- كيف؟
- ما وصفتيه في الفيلم حالة انحلال، فممثلو الاباحية يتصرفون بهذه الطريقة من أجل جذب المشاهدين، لكن ما فعله خطيبك كان من أجل متعته.
- ما الحل؟
- يجب التحدث معه بكل صراحة ووضوح لتصلي بنفسكِ إلى نتيجة أو حل ما. لا تؤجلي هذه المصارحة لما بعد الزواج، ولا تتكتمين عليها وكأنكِ لم تعرفي، فحياتكِ ستكون جحيماً.
- وما عاقبة هذا الجحيم؟
- ستتحولين إلى قنبلة نفسانية موقوتة ستنفجر في أي لحظة. قد تقتلينه. احتمال وارد بسبب شخصيتكِ.
- سأفاتحه قريباً جداً.
- قد تكون زوجة هذا الرجل المشهور على علم بما يفعله زوجها. ليس مَنْ سمع كمَنْ رأى. أنتِ رأيتي وهذا أفظع. وقد تكون هي قد رأت لكنها صمتت لأسباب لا نعرفها. الامر معكِ يختلف تماماً. الشخصية كما قلت لكِ.
- هل يمكنني دعوتك لحضور حفل زفافي؟
- لماذا؟ سألها الطبيب وهو غير متوقع لدعوتها.

- أعّز صديق عندي وهو مَن أتكىء عليه في أزماتي خارج لبنان. أريد التوكؤ على شخص ما في هذا اليوم حتى أستطيع الوقوف.
- سأكون هناك. قال الطبيب لها وهو مندهش من قرار سيرها في طريق الزواج حتى النهاية.

لم تجد زاد مفراً من مفاتحة ناجي العمري بما عرفته، وقالت له أن أحدهم ترك رسالة صوتية على مجيب هاتف منزلها، يخبرها فيها بما حدث في شقة زواجهما.

- هل ذكر لكِ اليوم؟
- نعم ليؤكد روايته بعدما اتهمته بالكذب.
- وهل تصدقين روايته؟
- أنا أسألك قبل الزواج لخطورة الامر بالنسبة لي.

اختلقت زاد ذكر اليوم لأنها رأت التاريخ على الفيلم، وبدا خطيبها متماسك الاعصاب لكن بلمسة خجل واضحة، وقال بعد تفكير، وكأنه يتحدث مع نفسه بسبب الصدمة غير المتوقعة، أنه أدرك سر توتر واحباط والده في الفترة القريبة وانسحابه غير المبرر من مشروع ضخم جداً، وكان متكتماً للغاية على ما يزعجه وسر انسحابه وهو قاب قوسين من التوقيع.

كان التفكير في مشاريع الاسرة إشارة واضحة لزاد على أن البزنس هو الأهم عندهم وحتى عند خطيبها، فما حدث بالنسبة له هو معرفة خطيبته لسر أسرع كما يبدو مما توقع، ولم تدر زاد كيف أصبح يفكر في صفقة زواجهما، بعدما صارت كل الامور واضحة رغم كل مشاعر الحب التي أحاطها بها، وبهدوء غريب طلب من زاد الاستمرار في التحضير للزواج لأن الانسحاب في هذه اللحظة سيضر الجميع، ووعدها بتحسّن كل الامور في المستقبل، لأن أحوال الناس لا تدوم على ما هي عليه، وهي تلميحة خجولة عن سلوكياته هو شخصياً.

احتفظت زاد بشقتها التي تؤجرها لصعوبة الحصول على شقة للإيجار في بيروت، لأنها كانت تتوقع نهاية زواجها في غضون بضعة شهور، كما قررت حضور عرسها وكأنها مدعوة عادية، حتى تتغلب على حالة التصدع الجسدي والتشتت العقلي التي كانت تعاني منهما. كانت تشعر أحياناً بأنها ستنهار على الارض في أي لحظة بسبب عدم قدرتها على الوقوف، وقد ساعدتها لياقتها البدنية العالية ورشاقة جسدها على تجاوز هذه اللحظة بسلام دائماً، لكن تقلصات معدتها كانت مشكلتها المزمنة التي لم تستشر طبيباً فيها لأنها تعرف سببها.

كما قررت زاد التمتع بمظاهر وبذخ العرس الذي أراده أحمد العمري غربياً تماماً ليبعد أي لمسة شرقية عنه، وكأنه يريد لضيوفه تجاهل ماضي زوجة ابنه، وتفادي طلب أحد السخفاء فجأة منها الرقص. كان البوفيه فخماً ومتنوعاً ومفتوحاً، والخدم بزي موّحَد وغالٍ وكأنه فُصِّل لهذه الحفلة، وعزفت الفرقة الموسيقية ألحاناً أجنبية، وتنوعت المشروبات بكثرة وطُلب بعضها من أوروبا.

كان هذا البذخ في خدمة الاناقة المفرطة التي حضر المدعوون بها، وكانوا صفوة من أهل السياسة والفن والفكر والتجارة والصناعة، وكانت زاد في قمة تألقها رغم شعورها بتهالك جسدها، وقد أثّر تألقها الخارجي وكونها محط أنظار كل المدعوين ومظاهر محبتهم لها على أمها التي كانت تدمع باستمرار طوال الحفلة، وهي تتذكر الكلمات التي كانت تصف زاد بها، والضرب المبرح الذي نالته ابنتها منها عقب رجوعهم من أول عرس رقصت فيه وهي صغيرة.

كان طبيعياً أن تراقب زاد المدعويين، وصدقت توقعاتها بحضور أحد الذكريّن اللذين كانا في الفيلم مع زوجها، لكنه لم يقدم لهما التهنئة ولم يقترب من طاولتهما، وحتى عندما سار العروسان لتحية الضيوف وهم يأكلون وتبادل كلمات المجاملة، تعمّد ناجي عدم الذهاب إلى الطاولة التي يجلس عليها الرجل مع بعض الضيوف، واكتفى برفع كأس الشمبانيا الذي كان بيده لهم من بعيد، لكن زاد غافلته وذهبت

وصافحت الطبيب النفساني وشكرته على حضوره، ثم تحركت نحو الطاولة إياها حيث حياها الجميع.

- زاد زوجة ناجي. قدمت زاد نفسها للرجل الذي كان في الفيلم وهي تبتسم وتتأمل ملامحه بهدوء.
- تشرفنا.. ألف مبروك. أنا أحمد صديق ناجي. قال الرجل بعدما نهض ليصافحها.
- وهل تعمل في البزنس نفسه؟ سألته زاد.
- لا.. ابن تاجر أدوات صحية.
- أين زوجتك؟!
- أنا أعزب. أنتِ أجمل بكثير من الصور.
- شكراً على المجاملة.

عندما صعدت زاد مع عريسها إلى غرفتها بالفندق في ساعة متأخرة بعد منتصف الليل، حيث ستبقى لمدة يومين ثم يسافران بعدهما إلى رحلة شهر عسل في باريس، تصرفت بشكل عادي وكأنها مع صديقة لها، فذهبت إلى الحمام وتحممت بعد إزالة المكياج، ثم لبست بيجامتها وخرجت وجلست لتشاهد التلفزيون، وكان عريسها يراقبها وهو يشرب كأس ويسكي.

- هل سنمضي ليلة عرسنا في مشاهدة التلفزيون؟ سألها ناجي.
- هذه صفقة وستنتهي إن آجلاً أو عاجلاً، وقد وقعّنا وثيقتها حفاظاً على ماء وجوه كثيرين. أنت تعلم ذلك تماماً. قالت زاد.
- لكن هناك حقوق زوجية.
- إنس مسألة الحقوق وأمر الملائكة الذين يلعنون الزوجة التي ترفض مضاجعة زوجها.
- ماذا أتذكر إذن؟
- قرفي منك. لا أستطيع ممارسة الجنس معك.

- لأنك لا تعلمين أموراً موجودة بنسبة كبيرة في الحياة، ولا يتحدث الناس عنها علانية.
- مثل ماذا؟ سألته زاد وهي مندهشة من ثبات أعصابه.
- هناك كاتبة أميركية نسيت اسمها الان، لكنني سأتذكره، لها ابن يشبه حالتي تماماً، ولأنها تعيش في بلد منفتح قالت لمجلة "تايمز" في حديث معها أنها تعتبر ابنها كاملاً أو perfect كما قالت لأنه يستطيع ممارسة الجنس مع النساء مثلما يمارس الرجال الجنس معه.
- طظ في فلسفة هذه الكاتبة وفي مجلة "تايمز" التي نشرت الحديث. هذا ترويج صريح للمثلية في المجتمع، أو تفسير يبرر شذوذ تفكيرها أمام نفسها. كذبها على نفسها.. مثل عرسنا تماماً.
- وكيف تنشر مجلة محترمة حديثاً مثل هذا؟
- Too much freedom
- هل تعلمين أن زواج رجليّن أو امرأتين أصبح واقعاً في بعض الدول الغربية؟
- نعم. قالت زاد ثم اردفت: سيستبيح رعاع هذه الحضارة إذا لم تتراجع عن ترويج الشذوذ على أنه سلوك يجب تبريره وشرعنته.
- لم أسألكِ أبدا عن تجاربكِ الجنسية..
- أنا ما زلت عذراء. ولا تجارب لي مع نساء!
- عذراء؟ هل هذا معقول؟
- نعم.
- عندما تجربين الجنس الليلة ستشعرين بلذة جمال الحياة. هذه اللذة عندي مزدوجة. هذا كل ما في الامر. هناك كثيرون مثلي.. أنا متأكد من هذا. كوني منفتحة مثلما كنتُ منفتحاً وتزوجتكِ.

- تمارس اللواط وتقول أنه واقع، وترفض في قلبك عملي كراقصة، وتعتبر نفسك منفتحاً لأنك تزوجتني. ما هذه التناقضات؟
- أنا آسف. لقد أسأت التعبير فقط.
- أنا راقصة صاحبة خطوط في الحياة لا أستطيع تجاوزها ومنها أنني امرأة تقرف من ممارسة الجنس مع رجل.. لا داعي لتكرار كلام سمعته مني. هل أذهب من هذه الغرفة أو نبقى مع بعض حتى نجد مخرجاً نتفق عليه قريباً جداً.
- لا أريد أية فضائح.
- حسناً فعلت عندما نفذت رغبتي وحجزت غرفة بسريرين.
- رغم ما تقوليه عني، أنا لن أرغمك على معاشرة لا ترغبينها. لا أريد فضائح حتى نفترق بسلام، مازال هذا قرارك الاخير.
- اتفقنا ودعنا نفكر في المخرج المناسب. قالت زاد.
- هل سنستمتع برحلة باريس؟ سألها ناجي.
- أكيد. أنا لست من هواة النكد. ردت زاد.
- في صحتكِ.. قال ناجي ورفع كأسه لزاد المستلقية على السرير الآخر.
- في صحتك. قالت زاد وهي تبتسم سخرية من رجل يعتبر أن اللواط أمراً طبيعياً جداً، ولا داعي حتى لاستشارة طبيب نفساني لحالته.

كان ناجي العمري يحب زاد فعلا، ويعتقد أنها بعد معرفة سره ستقتنع بحياة البذخ والسفر والجاه كسيدة مجتمع، وقد راهن طوال الشهور القليلة التي مكثاها معاً على تغيير في موقفها، لكن لا أرقام حساباته في البنك، أو الجاه السياسي، أو مقابلتها لعلية القوم، ولا حتى فكرة السفر إلى قبرص وبدء حياة جديدة معها هناك، أو دعمها لتكون مذيعة تلفزيونية، استطاعوا إزاحتها عن رأيها.

الفصل الخامس

- مبروك يا زاد عرفت من المجلات بخبر زواجكِ. كنت في فرنسا ولم يسعدني الحظ بالمشاركة. قال ميشال لها على الهاتف.
- ميشال.. أنا في طريقي للطلاق. لقد طلبتُه فعلاً.
- ماذا؟!
- كما قلت لك. سنلتقي قريباً ونتحدث في الامر. أنا متأكدة أنك ستحتفظ بالسر للأبد.

أخبرت زاد ناجي أن روايتها للإعلام بعد طلاقهما ستكون أنه لم يقدِّر حدة ردة فعل مجتمع لا ينسى ماضي زوجته كراقصة، ورفض كونه رهين منظور زوج الراقصة أينما ذهب، فقرر الهجرة معها أو الطلاق، وفضّل العيش بدونها. كما طلبت منه إخبارها ماذا سيقول للإعلام حتى لا تحدث مشاكل قد تضر سمعة أبيه، لأنه شخصية عامة وفي كتلة سياسية كبيرة داخل البرلمان، وقد تكون النتيجة أذيتها هي شخصياً بشكل أو بآخر. ووعدها ناجي بالتشاور مع أبيه ونقل أفكاره إليها.

- وافق أبي تماماً على روايتكِ واقتنع بها، وطلب مني تجنّب أي مقابلة صحافية. وهو لن يقول حتى مجرد تعليق صغير على ما حدث.
- من المؤكد أن أباك يعلم حقيقة ميولك.
- نعم.
- وعلى ماذا كان يراهن؟
- على ابتعادي عنها خصوصاً بعد إنجاب أطفال.
- لا معنى من ثمة لوجودنا مع بعض مازلنا متفقيّن على كل شيء، وتمنياتي لك بالزواج بمَنْ تقبلك كما أنت.

- هل حقيقة لا يمكنك تغيير رأيك حتى لو كان ذلك سيساعدني على فتح صفحة جديدة؟
- أنت لن تتغير ياناجي. وحتى لو حدث هذا أنا لا أستطيع النسيان. تجاهل هذه اللحظة العاطفية وفكّر في مستقبلك.
- سيصلك مؤخر الصداق بشيك مع ورقة الطلاق.
- ارسلهما بالبريد المضمون على مكتب بريد صور الرئيسي لأنني سأكون هناك لبضعة أسابيع.
- سأفعل. لا تنسي أنني أحببتكِ.

رغم العاصفة الأسرية التي ثارت في وجه زاد، خصوصاً أمها التي كانت تتحدث معها وهي ترتجف غضباً لعدم وجود مبرر واحد لطلاقها سوى ماضيها، الذي أربك وأزعج حاضر زوجها وعائلته، وربما هدد مستقبل أبيه السياسي، فقد أصبحت أمرا واقعاً بوجودها في منزل أسرتها مرة أخرى، ريثما تتدبر شؤونها وتعود لحياتها في بيروت. أمر واقع تقبله الجميع على مضض، حتى أخيها في أميركا إتفق هذه المرة مع أمه على تعنيفها، ولم تجد كالعادة سوى أبيها الذي كان ولم يزل مستعداً دائماً ليسمع ويتفهم ويتقبل، بعدما تحولت أيامها إلى مشادات وشجارات أو تجاهل لوجودها، أو طلب الإنزواء منها في غرفتها القديمة حين تستقبل أمها ضيوفاً لأنها لا تريد المزيد من الازعاج والتساؤلات.

كان مما قاله حسين الأمين لإبنته أنه كان يشعر أنها غير سعيدة قبل زواجها كأي فتاة. كان أبوها محقاً لأنه كان الوحيد الذي لم تُذهب فرحة زواج ابنته بإبن سياسي روعه، فقد لاحظ وزنها يقل والشحوب يعلو وجهها، وفطن لتحاملها على نفسها لتقف وتسير، وقد استحلفته عندما أصبحت هدفاً يومياً لتعنيف أمها إذا كان يمكنه التكتم على سر طلاقها مهما كان، فوعدها بأن ما ستقوله سيذهب معه إلى قبره، وعندما رأى

الفيلم الذي تحتفظ به أُصيب بوجوم ورفض متابعته بعد دقيقة فقط من بدء المشاهدة بعدما تأكد من شخصية زوج ابنته.

- هل علمتِ بأمره مثليته قبل الزواج؟ سألها أبوها.
- بأقل من إسبوعين.
- ولماذا استمريت مازال الطلاق كان قراركِ؟
- لتلافي الحرج والفضيحة. لم يكن لدّي وقت لأفكر أو لأنسحب أو لأتصل بالناس وأقول لهم حفل زواجي لن يتم. تم كل شيء بسرعة وتحت ضغط نفساني هائل.

جمع حسين الأمين كل أفراد أسرته في مساء اليوم نفسه، وقال لهم أنه أصدر فرماناً يشبه فرمانات الحكام الاتراك، وفرمانه إذا تحدث أي منهم مع زاد بالسوء أو بعدم احترام سيطرده من البيت، ومن يرفع حتى صوته وهو يكلمها سيصفعه على وجهه، وفرمانه على الجميع ولن يتورع حتى عن طلاق زوجته إذا خالفت هذا الفرمان. ثم ذهب مباشرة إلى غرفته وأفراد أسرته ينظرون إليه بذهول، ولم يجرؤ أي منهم على قول أي كلمة، لأنهم رأوا رب اسرتهم كأنه قنبلة غضب.

لم تر دارين زوجها بتاتاً بهذه الحِدة، لأنه حتى إذا قال خبراً سيئاً يقوله بهدوء ولطف، فتوجست شرأ وذهبت وراءه وفتحت باب غرفتيهما بهدوء.

- هل ياحسين طليق ابنتكِ ليس رجلا؟
- أسوأ.
- ماذا؟
- لا كلمة واحدة بعد اليوم في هذا الموضوع.
- من حقي ....
- ما يجب عليكِ فهمه أن ابنتي ستظل هنا حتى اليوم الذي ستراه مناسباً لتعود إلى حياتها الطبيعية. ستبقى بدون أي مناوشات أو مماحكات النساء.

- لا مشكلة. قالت دارين بهدوء.
- وإذا قررت أن تكون راقصة أو عاهرة، هي جزء منّا وغير مسموح لأحد بالتدخل في شأنها. أنا لن أتراجع مطلقاً عما قلته.

كانت زاد تسير صباحاً في الاقطاعية التي ورثها جميع أعمامها وأمها عن جدها بعد وفاته، لتفكر وتروِّح عن نفسها، كما كانت أحياناً تقود سيارتها جنوبي صور وتتوقف قرب الشاطىء الخالي، وتسير على رماله حافية، وهي حاملة حقيبة يد كبيرة نسبياً على كتفها وحذائها بيدها، وتتأمل المشاهد من حولها لتسترخي. لم تكن زاد ممن يشفقن على أنفسهن إذا وقعن في ورطة ولم تكن تلوم أحداً، بل كانت تسأل نفسها وغيرها لتصل إلى قناعتها الشخصية. وقد استبعدت تماماً أنها كانت ضحية انسان أراد أبوه إبعاد شبهة الازدواجية الجنسية عنه، لأن اللقاء مع ناجي كان صدفة وتم الزواج بعد حب أكده ناجي حتى آخر لحظة، وكانت فرضية استغلال كونها راقصة ترجّح شكوكها، لأنها ستقبل بالامر الواقع والمال والممتلكات والوجاهة الاجتماعية، لكنها لم تقبل.

شعرت زاد أنها عبرت كابوساً مزعجاً بسلامٍ وأقل ما يمكن من احتكاكات أو مشاحنات لفظية، لكنها لم تزل تعاني وطأته وتفاصيله وانقباض قلبها حتى من المستقبل، والطريقة التي ستعود بها إلى حياتها، والظروف التي فُرضت عليها وصدقتها بسبب معقولية كل ما حدث ظاهرياً، ولا معقولية ما كان يكمن خلف الظواهر، والزواج الذي تم بينما هي مصممة على الطلاق، والحكاية المُلفقة التي سترويها للإعلام.

لم تدر زاد لماذا شردت من لحظات تأمها وهي تسير على رمال الشاطىء، وتذكرت رحلتها بطائرة أثناء عودتها من زيارة لتركيا ذات ليلة من كانون الاول، عندما سمع الركاب صوتاً مدوياً وأحسوا بضربة عنيفة تهز الطائرة بقوة هائلة، وساد صمت مطبق بعد انقطاع الكهرباء، ثم سرت نظرات وجوم من الركاب بين بعضهم بعضاً بعد عودة جزء من الاضاءة في المؤخرة، وسأل أحدهم بصوت يعبّر عن الفزع المضيفات

الموجودات في نهاية الطائرة عما يحدث، وبعد وقت قصير مر بدون أي جواب منهن، سمع كل الركاب صوتاً يتحدث عبر سماعات مؤخرة الطائرة:

- معكم كابتن داريوس زيدان.. الطقس سيء جداً كما تلاحظون.. ضربتنا صاعقة ويستحيل تغيير مساري، فأنا أباشر الهبوط فعلا وجهاز اتصال الطائرة مع المطار تعطّل.. أرجو منكم الهدوء وسأراكم بعد دقائق في مطار بيروت.. شكراً.

كان صوت الكابتن واثقاً هادئاً للغاية، ولم يدر المسافرون والطاقم عدد الدقائق التي مرت بعد كلماته، كأنها وقت عنيد لا يريد التحرك في رؤية ليلية معدومة خارج الطائرة، لكن هذا السكون المُتَرقب في القلوب المرتعشة، والرعب من توقّع صاعقة ثانية قد تسبب مصيبة، مزقهما تصفيق عال للغاية تحية للطيّار من جميع الركاب، والطائرة تُسرع على المدرج الذي كانت أنواره تلوح متكسرة على الشبابيك بسبب الامطار.

توقفت زاد عن السير والتفكير ونظرت إلى موج البحر الذي يتقوص ثم يتهاوى ويتهادى، ثم ينساب على الشاطىء الرملي وبعد ذلك ينسحب بهدوء إلى البحر، ووضعت حذاءها وشنطتها الكبيرة على الرمال، وأغمضت عينيها وتنصتت لإيقاع الموج ووضعت كفيها على كتفيها ويديها متشابكتين، ثم رفعت يديها إلى السماء وكفيها يلامسان بعضهما كأنها تستمد طاقتها من الكون، وتنفست بعمق وابتسمت ورفعت يدها اليمنى أعلى من اليسرى وبدأت ترقص، وأحسّت وهي ترقص بومضة كونية ربتت على رأسها.

حضرت زاد أول مرة رقصة صوفية في مهرجان بلدة بيت الدين السنوي، بسبب حبها لمعرفة شيء قد تضيفه إلى فنها، وأثار انتباهها طلب عريف الحفل من المشاهدين عدم التصفيق أثناء الرقص، والتصفيق بعد نهايته، فما يقدمه الراقصون طقوس عبادة، وطلبت زاد بعد نهاية عرض الفرقة الصوفية التحدث مع من يجيد الفرنسية أو الانكليزية فيهم، وقدمت للمتحدث نفسها.

- ما فلسفة هذه الرقصة؟
- نوع من أنواع الذِكر يُسمى المولوية.
- ولماذ تتحركون بطريقة دائرية؟
- نحن ندور كما تدور الأرض حول نفسها وحول الشمس. حركتان مختلفتان للانسجام مع حركتيها لكبح جماح النفس وشرورها. ندور مع وعكس عقارب الساعة.
- هل الارض تدور عكس عقارب الساعة؟!
- تدور في مدارها حول الشمس مع عقارب الساعة.. وحول محورها عكس عقارب الساعة.
- ما مغزى دورانكم غير كبح جماح النفس؟
- التقرب الروحي من الخالق.. مركز الكون وسبب وجوده.
- ولماذا تغيرون أماكنكم؟
- تجسيداً للفصول الاربعة.
- هل يمكنني كراقصة شرقية الاستفادة من رقصكم؟
- إذا اعتقدتِ أنكِ برقصك تتقربين إلى الله.
- أنا لست مؤمنة. أبحث عن الانسجام الداخلي لأسباب شخصية وأريد شيئاً جديداً لفني.
- لا مشكلة. تقربي إلى الوجود.. قوة الكون. ستشعرين بالانسجام والراحة العقلية.
- كيف؟
- قلدينا ودرّبي نفسك على الرقص بذهن صافٍ تماماً. لا تفكري في ماضيكِ أو حاضركِ أو مستقبلكِ. دعي الموسيقى تسيطر عليكِ ثم استسلمي للإنسجام الداخلي. المسألة تحتاج إلى تدريب عقلي متواصل حتى تصبح عادة.
- ولماذا ترفعون يدكم اليمنى أعلى من اليسرى؟

- مناجاة للخالق، وفي حالتكِ مناجاة لروح الوجود أو قوة الكون. سمّيها ما شئتِ.

اقتبست زاد ما يناسبها من رقصة المتصوفين، وتعلمت كيف تتحكم في تنفسها، وقرأت كثيراً عن الموضوع وزارت اسطنبول لتفهم وترى أكثر، ولم تستطع تطبيق كل ما تعلمته بسبب خوفها من تجربة قد تفشل، لكنها قررت بعدما ربتت قوة الكون على رأسها أن تكون راقصة فقط، واجتياز تجربة زواجها وطلاقها غير المعقولة، وتطوير نفسها ومحاولة وضع كل لمسات ممكنة على فنها وشخصيتها المستقلة.

بادرت زاد بمجرد تسلمها ورقة الطلاق بالاتصال بالإعلام تمهيداً لعودتها إلى فنها، وتلقفت المجلات الفنية اللبنانية اتصالاتها الهاتفية بعد احتجابها والاسئلة الكثيرة والاشاعات التي أُثيرت، وبادر كثيرون من الاعلاميين المتخصصين في الفن بإجراء أحاديث معها، وكان محور هذه الاحاديث طلاقها المفاجىء بعد زواج قصير، وكانت روايتها كما تم الاتفاق مع ناجي العمري تماماً، لكن الجديد الذي أعلنته هو تفرغها للرقص فقط والاعداد لطلة جديدة لها.

- هل تشعرين بالندم؟
- من يشعر بالندم ينظر دائماً إلى الخلف. الطلاق حدث وهناك بعض الناس يتعرضون لأكثر من تجربة زواج في الحياة.
- ما هي مشاريع عودتكِ إلى الفن؟
- سأرقص في بعض المنتجعات والملاهي الراقية، وهذا ما كنت أفعله، كما سأركز على الاشتراك في المهرجانات العربية والرقص في دول أخرى.
- في دول عربية؟
- وأجنبية.
- هل عودتكِ قريبة؟
- قريبة جداً. أحتاج إلى بعض الترتيبات فقط.
- لكنكِ تعيشين في صور حالياً.

- فترة تأهيل نفسي قبل العودة إلى بيروت.

تم طلاق زاد مع بداية انتشار "فيس بوك" شعبياً سنة 2005، وقد نصحها إعلاميون كثيرون بفتح صفحة خاصة بها للتفاعل المباشر مع جمهورها، وعدم الاتكال على الميديا فقط، وقد ساعدها مؤخر الصداق الذي تسلمته على الاستعانة بمديرة علاقات عامة لتنظِّم مواعيدها وحفلاتها، وكانت البداية متواضعة من هاتف خلوي لأن زاد لم تكن تملك المال الكافي لاستئجار مكتب صغير. كانت هذه الوظيفة دواماً جزئيا لمديرة أعمالها التي كانت تعمل في مجال تنظيم عروض الازياء في الوقت نفسه.

لم تستوعب زاد في البداية وجود نائب عنها ينظم أعمالها، فقد كانت تؤدي كل شيء بنفسها قبل زواجها، ثم اضطرت إلى أن تكون جزءاً من منظومة تعمل بالطريقة نفسها، لكنها ظلت محافظة على قيادة سيارتها في مشاويرها الخاصة، لأنها لم تستوعب أبداً فكرة الجلوس على الكرسي الخلفي للسيارة بينما يقودها سائق. والامر نفسه كان بالنسبة لانتشار موضة الحارس الخاص، أو الحرس أحياناً الذين يصاحبون الفنان أينما ذهب. لم تكن زاد ممن يخشون المضايقات أو يأبهون بالتحرش اللفظي.

ثم تغيرت ظروفها تماماً بسبب جدول المواعيد الذي بدأ يزدحم بالعقود، خصوصاً عندما بدأت ترقص أيضا في دمشق اسبوعياً، ما جعلها توّظف سائقاً كان بمثابة حارسها الخاص أيضاً، والشخص الذي ينجز إجراءات مرورها على حدود البلدين، وبدأت زاد يوما بعد يوم لا تسمع أو ترى المجتمع بنفسها كما تعودت من قبل، وأصبحت تتعامل من خلال عزلة شهرتها التي بدأت دائرتها تضيق أكثر فأكثر.

كان التسوّق والذهاب للكوافير هما ما تفعله زاد بنفسها للترفيه والتعامل المباضر مع الناس في المحلات، وكانت تجد متعة فيهما، كما طلبت من أفراد عائلتها عدم الادلاء بأي معلومة عنها، أو تصديق كل ما يسمعونه أيضاً، حتى لو سمعوا أنها قد ماتت أو أصيبت بمرض خطير، فهي لم تعد ملك نفسها ولا تستطيع التحكم في ما يقوله الناس،

فالمهم في مجال الشهرة هو استمرارية الانسان تحت الاضواء وطلبه للعمل دائماً وعدم التأثر كثيرا بما يُقال عنه.

- قد يدفعكِ ما سيُقال عنك في المستقبل من فبركات لا أساس لها من الصحة إلى الانصياع لها أو تصديقها. قال لها الاستاذ جوزيف نجار ذات يوم.
- كيف أصدق فبركات؟ سألته زاد وهي مندهشة.
- هذا هو التاريخ. قال لها وهو يبتسم.
- كيف؟
- صنّاع التاريخ لا يكتبونه، ومَن يكتبه هو الذي يؤلفه للأجيال القادمة، والترديد والتلقين كفيلان بترسيخ الفبركة التي قد لا تنتمي بصلةٍ إلى ما حدث فعلا.
- إذن يستحيل معرفة الحقيقة. قالت زاد.
- تماماً.

حاولت زاد كسر وطأة عزلة شهرتها على نفسيتها بتنويع أدائها، فرقصت على موسيقى إسبانية وبين فرقة استعراضية، كما حاولت كسر الطوق بصداقات طبيعية مع مشاهير بعيدين عن مجال فنها، وبحثت في هذه الصداقات عن مَنْ يضيف إلى شخصيتها، وحاولت مرات كثيرة بناء صداقة عادية مع أناس عاديين، كما قامت بمحاولات إحياء صداقات قديمة من أيام الجامعة وفشلت، بسبب إصرار رفع حواجب الاصدقاء لها عند رؤيتها، واستحالة تعاملهم معها كشخص عادي، لذلك كانت زاد صديقة طفولتها في صور هي الصداقة الوحيدة الطبيعية التي استمرت في حياتها، والرئة التي تتنفس زاد منها هواء علاقة عادية، ورغم سعادتها الفائقة بزواج صديقتها والرقص في عرسها، كانت زاد تخشى فعلا تلاشي حواراتهما شبه اليومية بالهاتف، وزيارات صديقتها بسبب ظروفها الجديدة والالتهاء بتكوين أسرة.

- أنت الوحيدة بين الراقصات اللاتي لا صور risqué لهن. قال لها مصور مجلة مشهورة ذات يوم.

- هل يجب أن يكون للراقصة صور جرئية؟
- أعتقد.
- هل لديك أي تصور عن صوّر جرئية بدون بيكيني أو فستان يُظهر أكثر مما يخفي؟
- لماذا؟
- أحاول كسر الصورة النمطية للراقصة.
- اشرحي لي أكثر.
- أريد الايحاء لا العري.

كانت زاد على وعي تام بخطوط المجتمع الحمراء في السياسة والدين والجسد، كما كانت في عمقها لا تريد قطع الصلة مرة أخرى بأسرتها، وكانت تحب أباها كثيراً ولا تريد ازعاجه، ولذلك تعمدت عدم الخروج من تجربة زواجها الفاشلة بصور تهز علاقتها بأسرتها، ولم تستعمل جسدها سوى كأداة لفنها، لأنها رفضت من أعماقها تسليعه في عالم صار كل شيء فيه سلعة، حتى قصص حب الفنانين التي قد تُختلق لتُسوّق حسب أهميتهم، التي قد تصل أحياناً إلى أغلفة المجلات، علاوة على صوّر رُضع الفنانات التي تُسلّع عندما تختار النجمة أي مجلة لتنشر أول صور طفلها أو طفلتها المولودة.

كانت زاد مُدركة لحياتها تحت الاضواء التي لا تمت في بعض تفاصيلها إلى حياتها الحقيقية بأي صلة، وحاولت دائماً جعل الحياتيّن غير متعارضتين ولا تؤذي إحداهما الاخرى، ورغم ذلك كانت على قناعة باستحالة زواجها مرة أخرى بعيداً عن دائرة حياتها الظاهرية التي تُفرض عليها فرضاً.

- أنا يا ميشال أعاني من عدم ملكيتي لشيء رغم أنني أملك أشياءً كثيرة في الظاهر؟ قالت زاد.
- لا أريد التطفل على تفاصيل حياتكِ لكن ما تقوليه يستر شيئاً أكبر.
- هذا صحيح إلى حد كبير.

- هل معاناتكِ بسبب زواجكِ الأول أو الثاني؟
- يبدو أنني في الواقع حلاً لمشاكل الرجال وليس للعيش معهم. يوماً ما سأشرح لك كيف أنني حقيقة لم أتزوج! قالت زاد.
- تفرغي تماماً لبناء نفسكِ وعيشي بسعادة إنجازاتك كعزباء. قال ميشال وهو مندهش.
- هل في حياتك امرأة تغار عليك؟ قصدتُ صداقتنا.
- لا.
- منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها شعرتُ أنت تتحدث اللهجة اللبنانية بطلاقة. قالت زاد فجأة شاردة عن الحوار.
- ماذا تعنين؟ سألها ميشال وهو يبتسم من ملاحظتها.
- هناك بُعد فيك غير موجود في أي شاب لبناني.
- ربما لأنني أقضي الصيف دائماً في فرنسا.
- المسألة أعمق من صيفياتك. أنت تتحدث اللبنانية بالسرعة نفسها التي يتحدث اللبنانيون بها، لكن بناء العبارات أحياناً ليس لبنانياً.
- ملاحظة ثاقبة للغاية..
- هل أحد والديك من مصر؟
- أسرتي وعائلتي ينتمون إلى بلاد كثيرة في البحر المتوسط منها مصر.
- صدقت توقعاتي.
- أنا سعيد بالتعرف على انسانة مثقفة مرهفة الشعور مثلكِ.
- وأنا أيضا أشعر بسعادة عندما أتحدث معك.

الفصل السادس

لا يتذكر ميشال سعد متى سمع جدته لأبيه تقول أنها هربت من لبنان بفستان نومها. كان صغيراً جداً عندما نُقشت في ذاكرته تلك العبارة الغريبة المقتضبة، لكنه أدرك تماماً في ما بعد أنها شهادة شفهية على ما حدث وكان سبباً في هجرة ووفاة وقتل كثيرين، كما لم ترو جدته ليّا تفاصيل ما أدركه لاحقاً سوى بجملة مقتضبة أيضا "صار مصايب وتعتير كتير"، وظل ما قالته جدته والمحاربية اسم بلدتها في ذاكرته، وكان يظن أحياناً طوال سنوات عمره حتى المراهقة أن تلك العبارات من مخيلات وأوهام طفولته، ثم بدأ يسأل في عشريناته إذا كان هناك ضيعة في قضاء جزين أو صيدا اسمها المحاربية، وعندما تلقى الرد بالايجاب تيقن أن كل ما في ذاكرته حقائق.

بدأت المأساة التي واجهها اللبنانيون، عندما هربت جدته بفستان نومها، بغزو الجراد سنة 1915، الذي تلفت على إثره معظم المحاصيل الزراعية، ثم تلا ذلك حصار بحري ضربته قوات الحلفاء بريطانيا وإيرلندا وفرنسا وروسيا على لبنان، ما منع دخول السلع القادمة من الدول المجاورة، فقد خشى الحلفاء من وقوعها في أيدي القوات العثمانية أو الألمانية التي كانت متواجدة في لبنان.

كان هناك حوالي 200 ألف ضحية في أربع سنوات، وهو رقم كبير نسبة إلى سكان لبنان آنذاك، وخرج الناس يهذون في الشوارع ببطونهم المنتفخة بسبب جوعهم والامراض التي بدأت تتفشى، والحصار البري الذي فرضه هذه المرة الحاكم العثماني جمال باشا، الذي منع دخول القمح بشكل خاص إلى جبل لبنان، وفسّر قراره بقوله : "أنا لا أريد إدخال السلع الغذائية لجبل لبنان لأن اللبنانيين موالون للفرنسيين، وهو ما سيؤدي إلى سقوطها في أيدي الفرنسيين".

هرب الناس من الجوع عابرين الحدود للمدن القريبة ليلاقوا حتفهم على الطريق، أو ليمارسوا التسول في هذه المدن التي كانت تعيش على الكفاف سواء كانت دمشق أم طرابلس أو بيروت وغيرها، كما هرب بعضهم عن طريق البحر في مراكب صغيرة إلى مصر طوال فترة الحصاريّن، فهذيان الجوع والخوف من الموت يجعل الناس يرون في المستحيل أملاً.

وصلت ليّا جدة ميشال إلى الاسكندرية، بعدما شردت في الطريق من المحاربية إلى صيدا بعيداً أسرتها، ولم يكن بامكان صاحب المركب الانتظار، لذلك أبحر بمجرد حلول الظلام بركابه الهاربين من الويلات إلى الاسكندرية، التي سمعت ليّا من الركاب أنها مدينة تستقبل الغرباء وتأويهم، رغم أنها لم تكن تعلم أين تقع هذه المدينة، وبمجرد وصولها جائعة مفلسة بائسة مفجوعة، عملت بنصيحة رجل كان ضمن الركاب وأشفق عليها.

- أنت من طائفة الروم الكاثوليك، إذهبي إلى أبرشيتها فلعلهم يتحننون عليكِ ويجدون لك مأوى. أنت كاثوليكية حسب ما فهمت.
- نعم. لكن بأي لغة يحكي القساوسة هناك؟
- المصرية.. لكن كثير منهم من دير المخلِص ويتحدثون اللبنانية مثلنا.
- وكيف أصل إلى هناك؟
- المهم وصولنا إلى الاسكندرية أولا.

هربت أسرة ليّا المكونة من خمسة أفراد من المحاربية وكان هدفهم مصر. كان أبوها الذين فكروا بالهجرة، بعد العلاقات الجيدة التي قامت بين محمد علي باشا والأمير بشير الثاني التي فتحت مرحلة من الهجرة إلى بر مصر، وصلت إلى ذروتها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في زمن المتصرفية، لكن الفرق بين الذين هاجروا سنة 1861 وأسرة ليّا التي هاجرت في سنة 1917، هو الهجرة الطوعية لبلد منفتح على استقبال الاجانب في القرن التاسع عشر، والهجرة القصرية التي حدثت في منتصف

الحرب العالمية الاولى، وقد أطلق المصريون على المهاجرين السوريين ومواطني جبل لبنان اسم الشوام، وكان معظمهم مسيحيين هاربين خصوصاً من جبل لبنان، وكان البعد الديني واضحاً في الهجرة، إذ لم يهاجر العدد نفسه من المسلمين إلى بلد الأكثرية فيه من دينهم نفسه، ولكن هذا البعد لم يكن الوحيد.

كان التطور الذي عرفته دول شمال البحر الأبيض المتوسط الأوروبية نموذجاً سعى حكام أسرة محمد علي للاقتداء به، وكانت مصر في عهد سعيد باشا من أكثر بلاد الشرق رخاءً، إذ كانت نفقات المعيشة فيها منخفضة إلى درجة لا تكاد تصدق، حيث كان قرش صاغ واحد كافياً لسد حاجات أسرة في اليوم، وكانت أسباب الرخاء البدء ببناء المشروعات العامة كالسكك الحديدية والقناطر الخيرية وترع الري الجديدة، فضلاً عن إدخال التلغراف والطلمبات البخارية، التي تصادف مع انشائها ارتفاع ثمن صادرات مصر من القطن إلى ثلاثة أضعاف، بسبب ظروف الحرب الأهلية الأميركية التي أوقفت صادرات القطن من مزارع جنوبي أميركا.

وكما أرسل المصريون بعثات تعليمية إلى أوروبا ليتعلموا، إستقبلوا الاوروبيين لإنشاء المشاريع في مصر لأنهم يملكون التقنية، وقد اغتنم الشوام هذه الفرصة ووجدوا في مصر بلداً عظيماً فيه فرصاً أكبر وأكثر تنوعاً للعمل، كما وجدوا على أرض مصر المدارس الدينية نفسها التي كانت في لبنان، مثل إخوة المدارس المسيحية واليسوعية وغيرها، وإستقر أغلبيتهم في الاسكندرية التي كانت وقتها أكثر المدن المصرية غنيٍ بالتعددية، التي انعكست على شخصيتها التي حملت ملامح سبع أو ثماني جنسيات متوسطية أوروبية وعربية، وكانت تتحدث في البيوت بأربع لغات وفي الشارع باللهجة الاسكندرانية.

لم تكن ليّا على علمٍ بهذه الامور، لكنها أكملت رحلة بدأتها أسرتها هرباً من أهوال الجوع والتشرد وقطاع الطريق، في بلد لم تكن فيه حكومة مركزية بل استعمار تركي يوشك على إلقاء دوله للورثه، وعندما وصلت وهي شبه غائبة عن الوعي إلى بطريركية

الروم الكاثوليك في المنشية الصغرى بالاسكندرية، لم يدر الارشمندريت لماذا كان يسمع صوته وهو يردد مجلجلا في الكنيسة كلمات المسيح "أني جعتُ فأطعمتموني.. عطشتُ فسقيتموني. كنتُ غريباً فآويتموني.. عُرياناً فكسوتموني"، وهو يستمع إلى ليّا، وكان صوته عالياً في عقله لدرجة أنه لم يسمع بعض تفاصيل حكايتها.

لم يقدّر الأرشمندريت حجم المأساة التي سمع بها من لبنانيين آخرين هربوا إلى مصر، سوى عندما رأها متجسدة في ليّا ذات التسع سنوات. كانت في أسمالها وحذائها المتاكل ووجهها الذي تعلوه القذارة وجوعها وهلعها بسبب غموض مصير أسرتها على الطريق وما عانته شخصياً، أبلغ نموذج رآه يسير على قدمين ويجسّد كلام المسيح، فطلب رئيسة جمعية مار منصور الخيرية فوراً على الهاتف، لتساعده على ايجاد حل للفتاة المسكينة، وجاءت المرأة بعد حوالي ساعة إلى مقره.

- هل ذهبتي إلى المدرسة يا إبنتي؟ سألتها رئيسة الجمعية.
- لا.
- هل تعرفين الخياطة؟
- لا.
- ماذا تعرفين؟
- التنظيف وأعمال البيت والطبخ.
- هل لديكِ هوية أو شهادة ميلاد؟
- لا.
- كيف وصلتِ إلى هنا؟
- عن طريق البحر. دفعتُ كل ما لديّ من عثملي لربان السفينة، فقد وزّع أبي ما لديه من نقود علينا جميعاً حتى لا تضيع كلها إذا كانت في شنطة واحدة، أو قطع سارقون الطريق علينا.
- لم يبق معكِ أي نقود؟!

- حاولت استبقاء شيئاً لكن الربان طلب نقوداً أكثر وهي بقية ما اعتبره ثمن السفر، ففضلت دفع كل ما تبقى معي شَرْط أن يجعل أحدهم يأتي بي إلى الابرشية.
- وكيف جئتِ؟
- مع حوذي ينقل السمك من مرفأ الصيادين. أوصلني إلى ساحة مار جريس السلام لإسمه، ثم أشار بيده إلى شارع ضيق وقال لي: ستجدين الكنيسة في منتصف هذا الشارع على يمينيكِ.
- ساحة مار جرجس؟ سألت روزا الارشمندريت.
- ربما تقصد تمثال محمد علي باشا على حصانه في المنشية الكبرى!
- وكيف ستُحّل مشكلة بطاقتها الشخصية يا أبونا؟
- لن تحلها هي. سأراسل بطريركيتنا في صيدا لأسأل عما صار لأسرتها، وسأطلب منهم استخراج إخراج قيد لها.
- ليّا ستأتي معي فوراً إلى منزلي. هذه المسكينة لم تستحم أو تغتسل منذ أكثر من إسبوع، ولا شنطة لديها أو ثياب أخرى، والمؤكد أنها كأنثى في حالة يرثى لها.
- اللّه يباركِ.. لكن كيف سنساعدها؟
- لورا يا أبونا بحاجة إلى خادمة، وأظن أنها لن تمانع في توظيف ليّا. أنت وأنا سنكفلها. هذا الحل المُتاح الان.

كانت لورا إحدى عضوات جمعية مار منصور وزوجها يملك مطبعة كبيرة ومن أثرياء اللبنانيين الذين يعيشون في الاسكندرية، وكانا يسكنان في فيللا في منطقة الإبراهيمية، وقبلت لورا بتوصية الارشمندريت وروزا ووظفت ليّا كخادمة عندها، رغم عدم تقبّل زوجها الفكرة في البداية لأن الفتاة مجهولة لا يعرفها أحد حتى الارشمندريت، فلماذا يتحمل هو مسؤوليتها، علاوة على عدم معرفتها بأي شيء سوى تنظيف المنزل كما قالت، وهو شخصياً يشك في قدرتها على تنظيف فيللا، لكن زوجته أقنعته بقبولها

في منزلهم، وأنها ستعلّمها أصول كل شيء، ومن يدري فقد تعيش معهم فترة طويلة، أو قد تموت لأن صحتها ليست على ما يرام.

- إذا ماتت ستحدث مصيبة. قال زوجها.

عاشت ليّا في منزل مخدومتها لورا بأوراقها القانونية التي استخرجها لها كاهن من صيدا، بعدما علمت أن أباها وأمها وأختها وأخوها قتلهم قُطّاع طرق، وقد نجت ليّا بسبب ظروفها حين فقدت أهلها في الطرق الوعرة لسبب لم تعد تذكره بوضوح، ولم يعد أمام ليّا سوى السيدة الرحيمة التي آوتها ووظفتها وكانت تعاملها برفق كأنها ابنتها، لأن لورا تخطت الأربعين ولم تنجب، وساعد الاستقرار النفسي ليّا على الانسجام مع بيئتها الجديدة، بعدما فقدت أي أمل بالعودة إلى المحاربية، ولماذا تعود ولمن تذهب وأين تعيش؟

كانت ليّا فتاة طويلة حنطية نحيفة ذات ضفيرتين طويلتين وملامح محايدة لا جمال فيها أو قبح لكنها تدل على العزم والذكاء الفطري، وقد تعلمت كل أشغال الفيللا بسرعة، وكانت لورا تعتمد عليها في كل شيء، كما ارتاح زوجها لها بسبب أدبها الشديد ولباقتها في التعامل. ومثل أي مراهقة يتيمة لا عائل لها أو أهل، بدأت تدّخر كل راتبها الشهري علاوة على الاكراميات التي تأخذها من ضيوف أصحاب المنزل في ولائمهم التي كانت كثيرة، وكانت تضع نقودها وحُليها التي تشتريها في خزانة حديدية صغيرة مستعملة وهبها زوج لورا لها، بعدما اشترى واحدة أكبر لعمله.

- ليّا .. سمعتُ أنكِ تدينين بعض سائقي العربات والحوذية الذين يأتون هنا، وينتظرون ضيوفنا بعد الغذاء أو العشاء. أخبرت لورا ليّا ذات مساء.
- نعم. أجابت ليّا.
- وهل يردون دينونهم لكِ؟
- نعم. لقد بدأ الامر صدفة عندما طلب مني أحدهم عشرة قروش ذات يوم. ويبدو أنه قال لبعض السائقين والحوذيين.

- وما الفائدة التي تربحيها من أموالكِ؟
- لم أفهم.
- هل تدينيهم ويردّون نقودك فقط؟
- نعم. كتّر خيرهم.
- كتّر خيركِ أنتِ! يا بنت يجب أن تطلبين فائدة.
- شو يعني؟
- مثلاً، إذا دينتِ أحداً خمسة وعشرين قرشاً يجب أن يردها سبعة وعشرين قرشاً.
- والجنيه؟
- جنيهاً وثمانية قروش. هل دينتيِ جنيهاً من قبل؟
- لا. هذا مبلغ كبير. لكني أسأل.
- أخبريني إذا لم يرد أياً منهم نقودك.
- سأفعل.

أدرك أحد سائقي الباشاوات الذين يأتون إلى الفيللا أهمية ليّا بالنسبة لرجل يكافح في الحياة مثله، وكان من أصول لبنانية مثلها لكن أسرته جاءت من لبنان قبلها في عهد الخديوي توفيق، وفاتحها برغبته في الزواج منها، وردت بأنه يجب عليه التحدث مع السيدة لورا لأنها مقطوعة من شجرة، وأخبرته ما حدث لها.

- يجب أن أرى عائلتك يا أنطون وأستعلم عنك. ليّا بمثابة ابنتي. قالت لورا.
- وأنا موافق.
- وهل توافق على استمرارية عمل ليّا هنا؟
- بالتأكيد. هذا بيت أناس شرفاء ويسعدني أن تعمل عندكم.

تزوجت ليّا أيوب وأنطون سعد سنة 1926 في عرس في الكنيسة المارونية بالاسكندرية لأن زوجها كان مارونياً، وقد ملأ المدعوون ثلاثة صفوف فقط من مقاعد

الكنيسة، وكان معظمهم من الأغنياء الذين كانوا يترددون على فيللا هنري وزوجته لورا التي طلبت من بعضهم مشاركتها زفاف مخدومتها لرفع معنوياتها، علاوة على أهل أنطون وأصدقائهم، ولم يصدق أنطون مبلغ المال الذي جمعته ليّا من معارف لورا وزوجها كهدية بهذه المناسبة، لدرجة أنه قرر شراء تاكسي بالتقسيط بدلا من العمل أجيراً عند الناس، وتسديد باقي المبلغ على أقساط.

كان المدعوون الاغنياء في العرس جزءاً من الجاليات الأجنبية في مصر آنذاك، وكانت تمثّل نسبة صغيرة من المجتمع الذي تقبّلها لأنها كانت تشكل عصب إقتصاد مصر الجديد، الذي بدأ يعرف بواسطتهم المصارف والمطاعم وبورصة القطن والمصانع الكبيرة والصيدليات ومحلات البقالة والنوادي الليلية ونوادي كرة القدم، وتعايش المصريون مع الجاليات اليونانية والأرمينية والإيطالية والفرنسية والتركية والألبانية والإنجليزية والجالية اللبنانية التي كانت أكثر الجاليات العربية عدداً، ورغم أن مصر كانت محتلة بريطانياً، إلا أن لغة النخبة والصفوة كانت الفرنسية، وكانت اللغة التي تُكتب بها لافتات كبرى المحالات، التي كانت تعبّر أسماءها عن ديانات أو جنسيات أصحابها بدون خوف أو مواربة أو حساسيات، وكان من البصمات التي تركتها الجاليات على القاهرة والاسكندرية، الثروة المعمارية الاوروبية الرائعة المتمثلة فى عشرات البنايات والميادين والاسواق المغطاة والاسواق التي تشكل جزءاً من البنايات الكبيرة ذات الطابع الإيطالى والفرنسى، وبلغ أوج امتزاج الجاليات الأجنبية في المجتمع المصري عمل أفرادها بالفن والسينما والمسرح والصحافة والطب والتعليم، التي شكلت قوة مصر الناعمة في ما بعد، نتيجة عبقرية محمد علي باشا وأسرته الذين جعلوا التاريخ الفرعوني يجاور القبطي والإسلامي واليهودي والاجنبي.

كان يوسف أنطون سعد الطفل الثاني الذي أنجبته ليّا بعد نجيبة طفلتها الاولى، وحين توفى أبوه بسبب مرض السل سنة 1949، كان فعلا قد بدأ يعمل منذ سنتين لأن أباه أضطر إلى بيع التاكسي لينفق على علاجه وعاد للعمل مرة ثانية سائقاً أجيراً،

وقبل وفاة والده إضطرت أمه للعمل مرة ثانية في البيوت كخادمة حتى تستطيع الانفاق على أسرتها الصغيرة، لأن مدخول ابنها لم يكن يكفي للمعيشة وتسديد الديون ومصاريف علاج وأدوية زوجها، بسبب تقاعده عن العمل نهائياً في سنته الاخيرة.

لعبت المنشية الصُغرى في حياة ليّا دوراً محورياً، ثم شاءت الظروف أن تلعب دوراً أهم في حياة ابنها يوسف الذي كان يتجول بين محلات الزهور التي تشبه مثيلاتها الاوروبية على الرصيف، وهو يسأل عن عمل آخر بجانب عمله ليجعل أمه تعود ست بيت، ويتحمل هو مسؤولية المنزل كاملة، وقد طلب منه أحد بائعي الورد الذهاب إلى محل دفن الموتى في الشارع الموازي لشارع جرجس طويل، وهناك يطلب مقابلة الخواجه أبرامينو لأنه يبحث عن عامل.

- تفضل يا ابني إجلس. ما اسمك؟
- يوسف.
- ما العمل الذي تستطيع أن تؤديه يا يوسف؟ سأله أبرامينو.
- لا أعرف ماذا لديك، لكنني أقدر على ممارسة أي عمل مهما كان شاقاً. ردّ يوسف وهو ينظر إلى التوابيت المفتوحة والمغلقة في الجزء الآخر من المحل الكبير ذي البابين.
- لماذا أنت متأكد بهذه الطريقة؟
- لأنني محتاج للعمل ويمكنني التعلم.
- هل تخاف يا يوسف؟
- هل تقصد يا خواجه من الموتى؟
- الموتى والاجواء المحيطة بهم.
- ....
- ولا تنسى أن الناس يتشاءمون عند رؤيتنا. العمل هنا ليس سهلا.
- أنا بحاجة إلى عمل.

- هل تعرف قيادة السيارة يا يوسف؟
- تعلمت مع أبي لكن لا خبرة كبيرة عندي. قال يوسف والدموع في عينيه.
- الله يرحمه. قال أبرامينو بسرعة بديهة.
- إذا أنت بحاجة لعامل أنا بحاجة إلى عمل. قال يوسف.
- يا يوسف .. هل تعمل في مكان آخر؟
- يا خواجة.. كيف عرفت؟
- أقرأ الناس مثل جريدة. قال أبرامينو وهو يتأمل يوسف بهدوء، ثم أضاف : أنا يهودي ونحن شعب تعرض للإضطهاد والانتقام والهجرة الدائمة، وقراءة الناس بشكل صحيح مسألة حياة أو موت لنا.
- يمكنني تركه إذا كان العمل عندك كل أيام الاسبوع.
- ستبدأ في محل الزهور الذي أرسلك البائع فيه عندي. ومن مدى نجاحك هناك سأقرر الخطوة التالية.

كان أبرامينو بيلوف من اليهود الربانيين (القراؤون) وأصله بريطاني، اعتنق جده اليهودية قبل زواجه بامرأة يهودية، وجاء أبوه وأمه الفرنسية الجنسية إلى مصر في عهد السلطان حسين كامل سنة 1916، وأسس محل دفن الموتى الذي كان فريداً من نوعه في الاسكندرية آنذاك، فلم يكن معروفاً في مصر كلها سوى محل الحانوطي التقليدي الذي يدفن المسيحي في تابوت والمسلم في كفن، لكن هذا المحل بدأ خدمة نقل الموتى في عربة مهيبة مُذهبّة فخمة جداً تشبه عربة ملوك بريطانيا، تجرها خيول يكثر عددها حسب غنى المتوفي، وكان يصل أحياناً إلى إثنتا عشر حصاناً، علاوة على سيارة "باكار" مصممة لنقل الموتى في مصانع الشركة في ميشيغان.

ورغم مهنة أبرامينو بيلوف فقد كان متعلماً ومثقفاً وقارئاً يومياً يطالع الصحف المصرية التي تصدر بالفرنسية ويتحدث بها، وكان القسم الخاص بالادارة وفيه مكتبه يشبه مكاتب الوزراء، إذ كانت تزينه لوحات زيتية كبيرة وقورة غالية، وخلف مكتبه

الضخم توجد رفوف فوقها كتب كثيرة باللغات الفرنسية والانجليزية، لأن أبرامينو يتحدث العربية ولا يتقن قراءتها، وكان يوجد على يساره ساعة في صندوق طويل خشبي مُذّهب فاخر مستطيل، تدق بإيقاع رتيب للغاية كل ساعة، وكأنها تعلن أن الوقت يسير في قسمه، وينعدم في قسم التوابيت التي كان بعضها فاخراً جداً ومكسياً بالساتان الأبيض وتحته طبقة قطنية منجدّة، ويصل ثمن التابوت منها إلى ما يوازي ثروة بالنسبة للفقراء.

علّم أبرامينو يوسف كيف يقابل الزبون في محل بيع الزهور بابتسامة مُرحِبَة خفيفة محايدة، حتى يتبيّن له هدف شراء الزهور، فإذا جاء الزبون لشراء ورود لجنازة تختفي الابتسامة وتبدأ ملامح التعاطف والاسف، وإذا جاء لشراء زهور لمناسبة سعيدة تكبر الابتسامة وتبدأ معها التباريك وكلمات التفاؤل. وكان يتحدث دائما مع يوسف بالفرنسية ويصحح له أخطاءه، وقد أثار إصرار تدريب أبرامينو ليوسف تساؤلات باقي الموظفين سواء في محل بيع الزهور أو في مؤسسة دفن الموتى، وطالت هذه التساؤلات حتى أبرامينو نفسه الذي كان مندهشاً من قراره تدريب يوسف بنفسه، لكنه تجاوز أفكاره إلى يقينه بصحة الاحساس الذي يمليه عليه التعامل مع الموتى، وهو تصديق الانطباع الاول عند رؤية أي شخص وعدم نسيانه، وبسبب ذلك درّب يوسف بنفسه لسبب يجهله، لكن الايام ستبينه له في المستقبل، كما قال لنفسه.

- يا خواجه.. لماذا اختار أبوك اسم أبرامينو؟
- اسم دلع لإبراهام أو إبراهيم. تماماً كما يقول المسلمون في مصر حمادة عن محمد وفي لبنان حمّودي.
- لكنه إسمك الرسمي في الاوراق!
- هكذا شاء أبي. كان يحبني ويدللني كثيراً. أبرامينو اسم نادر فعلا وأنا أحبه.

بدأ يوسف، أو أبو حجاج كما أطلقوا عليه، يتعامل بنجاح مع كل تفاصيل العمل في المحليّن بعد سنة منذ بداية عمله في محل بيع الزهور، وعندما ركب لأول مرة عربة

نقل الموتى مع حوذيها حوّا إنتابه احساس غريب وهو على هذا الارتفاع، واثتنا عشر حصاناً موشحين بالسواد يجرون العربة بسرعة تناسب جنازة، وموكب سيارات أهل وأصدقاء المتوفي تسير وراءهم، وأحس بالرهبة حين أمسك بلجام هذا العدد من الخيول.

- لا تخاف يايوسف. الحصان حيوان مطيع وهذه الخيول مدرّبة. أنت هنا لتتعلم قيادة هذه العربة لتحل محلي إذا كنتُ مريضاً أو أعمل على حنطور.
- أنت متعود على هذا يا حوّا لكن أول مرة دائماً صعبة.
- لو شعرت الخيل بخوفك ستحدث مصيبة.
- هل الخيول تشعر بخوف الحوذي؟
- طبعاً.

عادت ليّا ست بيت مرة ثانية عندما بدأ راتب إبنها يزيد، بسبب المهام التي يؤديها وجعلت وقت حضوره إلى المنزل غير معروف، بسبب سفره أحياناً إلى مدن أخرى بسيارة دفن الموتى خدمةً لأثرياء أو سياسيين، ولا ينسى يوسف أول تجربة له حين رأى متوفياً لأول مرة، إذ وقف أمامه بعد وضعه في التابوت وخاطبه بدون أي كلمة مسموعة: "قم وإذا لم تفعل ذلك سيدفنوك"، لكن الميت لم يقم، وأدرك يوسف أن ما يفعله لا يجب تدّخل الشفقة فيه.

كما لا ينسى يوسف المرة الاولى التي ذهب فيها إلى سجن الحضرة لأخذ جثة محكوم عليه بالاعدام بالباكار، حين تجمع أهل المتوفي حوله وبدؤوا يصرخون في وجهه ويلطمون ويولولون بينما بعض النساء يأخذن تراباً من على الارض ويلقونه على رؤوسهن، وكأنه قاتل قريبهم، أو مُرتكب الجريمة التي شُنق قريبهم بسببها عن طريق الخطأ!

كان يوسف بشكل عام لا يفهم لماذا يؤدي أهل المتوفي هذا السلوك حتى بمجرد وصوله مع فريقه إلى أي منزل لبدء الجنازة، وكان يسأل نفسه عن السبب، بينما المتوفى مسجى بينهم منذ يوم أو يومين ووفاته ليست أمراً جديداً.

- هم يودعوه يا يوسف لآخر مرة. أجابه أبرامينو حين سأله.
- يودعوه؟
- نعم هكذا تقول كتب المؤرخين. عادة مصرية قديمة.

كانت روح الدعابة من سمات يوسف وكانت تخفف من وطأة ظروف عمله، فمن يزاول مهنته يستحيل استقباله بابتسامة أو شكره أو دعوته على فنجان قهوة، وألّف بوحي من دعابته كلمة "إعتَمَد"، عندما كان يخبر أبرامينو عن حالة وفاة علم بها وهو في المحل أثناء غياب رب العمل، وكان يقول له: " في واحد إعتَمَد ولازم يودعوه بكره".

كان مما علّمه أبرامينو ليوسف ليفعله إذا كان مسافراً، وأشرف هو على أمور الدفن كلها، أن يطلب بتهذيب من أهل المتوفي المبلغ كاملاً قبل الدفن، لأن الناس يتهربون عادة من دفع باقي تكاليف القضية للمحامي بعد النطق بالحكم، ويفعلون الشيء نفسه مع محلات دفن الموتى.

- وإذا تجاهلوا ما قلته؟ سأله يوسف.
- إذا كانوا أغنياء قل لهم أننا مشغولون بجنازة أخرى ولا نستطيع خدمتهم.
- وإذا كانوا فقراء؟
- حاول أخذ أكبر قدر ممكن من المبلغ، لأنهم سيزعجونا بالدفع على فترة طويلة. وقد نعتبر الباقي خسائر على المحل إذا لم يدفعوا لسبب ما.

رافق يوسف موتى كثيرين من كل الأديان والطوائف بالباكار داخل وخارج المدن، كما قاد بنفسه عربة الخيول عندما كان يمرض حوّا أو يكون مشغولا بقيادة حنطور، لأن أبرامينو بيلوف كان يملك أيضا خمسة حناطير تقف في المنشية الصغرى لخدمة زبائن المحلات، خصوصاً السيدات الراقيات اللاتي يتشترين من "هانو" أو "دافيد

عدس" أو "بنزيانون" أو غيرها من محلات المنطقة الأنيقة، أو الأسر الغنية التي كانت تحضر إلى كاتدرائية الروم الكاثوليك أو كنيسة القديسة كاترين في المنشية الصغرى صباح الاحد، ويطلبون من الحوذي العودة بعد نهاية القداس ليرجِعهم إلى بيتهم، ومن الجنازات التي لا ينساها يوسف جنازة لواء في وزارة الداخلية، مشت فيها فرقة موسيقى الشرطة وهي تعزف اللحن الجنائزي أمام عربة الخيول التي قادها بكامل أحصنتها، بينما الخيول تتبختر بالاردية وأقنعتها السوداء على الايقاع الذي يبدو أنه أعجبها.

- قال الملك فاروق: الملوك في العالم سيكونون خمسة، منهم الملوك الأربعة في ورق اللعب.

قال أبرامينو ليوسف ذات يوم في آيار سنة 1952 بعد حديث طويل وهم يحتسيان الخمرة ويأكلان الكباب والمكسرات في المحل مساء يوم أحد بعد ذهاب جميع الموظفين، وكانا يفعلان ذلك أحياناً لأن أبرامينو يأتنس بالتحدث مع يوسف، ويفضّل حديثهما في المحل بدلاً من أي مكان آخر، وكان يوسف يغلق المحل من الداخل بعد شراء كل ما يلزم للسهرة المسائية، ثم يجلسان في مكتب إبرامينو على الكراسي الكبيرة الجلدية بعد خلع أحذيتهما، فقد كانت هذه العادة من طقوس جلستهما.

- هل الملك فاروق يعتقد بزوال الملكيات في العالم؟ سأل يوسف.
- سأقول لك سراً يا يوسف سمعته وأرجو ألاّ تقوله لأحد.
- هل تثق فيَّ لهذه الدرجة؟
- قلت لك من قبل إسرائيل تدعو جميع اليهود في العالم للعيش فيها وقد رفضتُ ذلك، ولم أسمع أنك قلت لأي إنسان هذا الكلام. أنت تحفظ السر يا يوسف مثل الموتى!
- على فكرة وقبل الحديث عن الملك، لماذا رفضت الذهاب إلى إسرائيل رغم تبرعك لها؟

- أولا أنا لست متديناً إلى هذا الحد. ثانياً هذه دولة قزمة والحياة فيها ستكون صعبة. مصر بلد كبير وقديم يا يوسف. صدقني الاسكندرية أجمل من مونبلييه في فرنسا.
- أنت تسافر كثيراً .. ما هي المدينة التي أعجبتك فعلا؟
- برشلونة.
- برشلونة؟
- أبنيتها متاحف يا يوسف.
- ما السر الذي ستقوله لي؟
- قال لي صديق في نادي الضباط في محطة الرمل، هناك شيء ما سيفعله الجيش قريباً، قد يجعل الملك فاروق يتنازل عن العرش لإبنه.
- وهل سيقف الانجليز على الحياد؟
- هم لا يحبون الملك فاروق، والموضوع أكبر من الطرفين كما يبدو.
- والملك أيضا لا يحبهم.
- هل ستقلق أمك إذا لم تذهب الليلة إلى البيت؟
- لا. هي تعرف ظروف عملي المفاجئة التي تضطرني للسفر في لحظة.
- أنا سأذهب الان، أكمل زجاجة الخمر الثانية ونم هنا يا يوسف على الكنبة الكبيرة. أنت لا تستطيع قيادة سيارة الليلة، ولا حتى الذهاب إلى محطة الترامواي. قال ابرامينو وهو يضحك.
- لكنني أستطيع شرب ما بقي في الزجاجة الثانية.
- يجب وضع تلفون عندك في المنزل. ذكرّني بهذا الامر غداً.

رفع أبرامينو باب المحل الحديدي الذي يرتفع إلى أعلى ويلف حول نفسه، ثم أنزله يوسف ووضع القفلين على جانبي الباب من الداخل، وذهب أبرامينو إلى شقته في

عمارة كمريلي الضخمة أمام المحل مباشرة، وتمدد يوسف على الكنبة وبدأ يكمل شرب ما تبقى في الزجاجة، وشعور الامتنان يغمره بسبب عمله وعلاقته مع أبرامينو.

قام الجيش بحركة عسكرية سلمية حسب ما قالت مانشيتات صحف مصر صباح 24 يوليو لتصحيح أوضاع الوزارة، ووصل أبرامينو إلى المحل متأخراً على غير عادته، وكان واجماً وابتسم ليوسف الذي فتح المحل قبله، وسأله إذا كان قد سمع بيان الجيش في الراديو، ولم يبدأ قراءة جريدته كالمعتاد، بل أجرى بعض الاتصالات مع صحافيين يعرفهم، وسألهم عن تفاصيل ما يحدث، وبعدما غادر الملك فاروق مصر من الاسكندرية يوم 26 يوليو، كان أبرامينو مندهشاً من شيء واحد هو تهليل الناس وتصفيقهم لدبابات الجيش وهي تسير على الكورنيش.

- وما الغريب في ذلك؟ سأله يوسف.
- يوم الجمعة الماضي كانت الجوامع تدعو للملك بطول العمر، فماذا حدث؟
- ما حدث انقلاب عسكري كما هو واضح.
- والناس يصفقون لمن لا يعرفوهم؟! من هم قادة الانقلاب؟
- ألّلي يتجوز أمي أقول له يا عمي. قال يوسف.
- أنت فيلسوف يا يوسف، لكن الفلسفة لا تُطعم خبزاً!

الفصل السابع

لم يعد أبرامينو بيلوف مثل سابق عهده بعد انقلاب 1952 كما كان يسميه، وكان متوجساً وبدأ يقرأ بعض المجلات الأجنبية التي تأتي إلى مصر على غير عادته، كما لاحظ يوسف أنه أبدل الطريقة المالية التي يتعامل بها، إذ بدأ يحتفظ بسيولة نقدية أكثر، ويطلب من يوسف إيداع ما يحتاجه لتسديد إيجار المحل وثمن التوابيت ورواتب الموظفين والحوذية فقط في البنك، واندهش يوسف من هذا التغيير وقال أبرامينو له أنه في أوقات الخطر ما هو في جيب الانسان أقرب إليه مما في بيته وما هو في بيته أقرب مما في البنك.

- وأين الخطر يا خواجه؟
- بعد رحيل الملك فاروق بيومين أو ثلاثة من الاسكندرية، ذهبت أم كلثوم إلى الاذاعة المصرية وأتلفت كل أغانيها التي مجدّته أو مدحته فيها.
- كيف عرفت ذلك؟ سأله يوسف.
- مجلة الكواكب ونشرت صورها وهي تفعل ذلك.
- وماذا يعني ذلك لك؟
- إذا كانت أم كلثوم فعلت ذلك بأغانيها، فماذا يجب عليَّ عمله بأموالي؟! الاجواء غير مطمئِنة يا يوسف.

طُبعت على بشرة يوسف خبرات السنوات التي مرت على عمله في المحل، فرغم شبابه كان لونها يحاكي لون الموتى، كما نحت لنفسه حكمة تقول: "لا تفرح على ما يأتي ولا تحزن على ما يذهب"، ولم تشك ليّا لحظة في بقاء ابنها بدون زواج بسبب وظيفته التي يتشاءم الناس منها، ويستحيل عليهم تزويج بناتهم لمن يمتهنها. كان يوسف يدرك هذا الامر أيضاً، ويعاشر مومسات من هنا وهناك، ولا يفكر في الزواج

إطلاقاً كما تزوجت أخته، وكان يفسر زواج أبرامينو لأنه صاحب مؤسسة، وزواج الاخرين في المحل لأنهم من طبقة دُنيا، أما الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها فأمر زواجه فيها مستحيل.

كان يوسف يرتدي بدلة أنيقة سوداء وبابيون أسوّد أثناء الجنازات وليس في المحل، وإذا رآه أحدهم بعيداً عن مراسم وظيفته لا يشك في أنه ميسور، لأنه كان أنيقاً جذاباً وكان زملاؤه يصفونه بأنه ليس خفيف الظل فقط بل أكثر من اللزوم، ونصحوه منذ بداية عمله بتمثيل الوقار لأن روح الدعابة ظاهرة تماماً في ملامحه وعباراته.

بينما كان يوسف بالبدلة السوداء نفسها في شارع متفرع من شارع صلاح الدين على ناصية الزاوية الخلفية للمدرسة الألمانية في الاسكندرية، حيث ذهب مع فريق عمله لوداع أحد المعتمَدين في الطابق الأول، ووسط بكاء النساء ودموع الرجال والحزن الذي يغمر الشقة على المتوفي ذي التسعة وأربعين سنة الذي ترك خمسة أولاد تلامذة وزوجة لا تعمل، لاحظ وجود فتاة طويلة نحيفة ذات بشرة بيضاء وشعر أشقر وعينتين كبيرتين عسليتين وملامح وجه مسالمة.

جذبت الفتاة أحاسيس يوسف تماماً بعيداً عما يؤديه. وبدا واضحاً لخبرته رغم حزنها الواضح أنها ليست من أسرة المتوفي ولا حتى من أقاربه، ولم يستطع مقاومة جاذبيتها الهائلة التي شفطت تفكيره وجعلته يسير نحوها بحذر بالغ، وهي واقفة بجوار أحد الطاولات تشرب قهوة، وأدركت الفتاة في أقل من لحظة رغم الاجواء المحيطة بها مغزى نظرة عيني يوسف، فنظرت إليه مباشرة بطريقة توحي أنها تنظر إليه كجزء من الصورة الكبرى امامها، ولا تركّز عليه شخصياً، ولم يدر لماذا أوحت له بأنها تنتظر شيئا ما.

- اسمي يوسف. قال لها هامساً.
- نورا. قالت الفتاة بهدوء ولفظت إسمها بحروف لا تينية وليست عربية.

ذهب يوسف إلى فريق عمله في غرفة المتوفي، ليشرف عليهم ويقدّر بنظره كيف سيخرجون التابوت بدون أي أذي يصيب الجدران أو باب الغرفة، وعقله مشغول تماماً بنورا، ولم يدر لماذا أحس بأنه سيفقدها للأبد إذا لم يفعل شيئاً "الآن"، رغم اعتباره عمره كله كأنه "الآن"، ومن ثمة لا داعي للفرح على ما يأتي أو للحزن على ما يذهب، فكتب بسرعة على ورقة صغيرة من الاوراق التي يحملها في جيبه رقم هاتف المحل، وعبارة "أرجوكِ إتصلي بهذا الرقم بكره"، واقترب منها في الثواني القليلة المتاحة له، ووضع ورقته الصغيرة مطوية في صحن فنجان قهوتها، ثم ذهب ليقود الحمّالين الذين يحملون التابوت إلى خارج الشقة، وكما توقع رآها مع سيدات أخريات وهن يغادرن إحدى السيارات في الموكب الذي سار خلف الباكار إلى مدافن "باب شرقي".

كان نهاراً غير عادياً في كل شيء في حياة يوسف، فالمعزون الرجال طلبوا منه عدم حمل التابوت، وحملوه هم بدلا من الحمّالين من الباكار أمام مدخل المدافن، وكان المشهد غريباً فعلاً، لأن عدد من حملوا التابوت بلغ حد وضع مجرد أصابع كف واحدة من كل الحاملين تحته. كانوا كتلة بشرية واحدة تسير في صمت وحزن في الممر الطويل إلى الكنيسة، وعندما وُضع التابوت في مكانه أمام تمثال المسيح المهيب الذي يقف في يوم الدينونة، بكي الكاهن وهو يفتتح مراسم الصلاة، وأكمل صلواته وإطلاق البخور بصوت متقطع وهو يمسح دموعه بين الفينة والفينة، وبكى يوسف رغم مهنيته في عمله، بينما فريقه يضعون التابوت في القبر، بعدما لمسه وقبّله بعض المعزين وألقوا عليه الورود وهم يودعون المتوفي بكلمات مؤثرة. لم ير يوسف مثل هذا المشهد الصادق بكل تفاصيله طوال عمله، وأحس رغم الموقف الكئيب بقلبه يأخذه بعيداً وهو يلمح نورا بين المعزيات.

- هناك فتاة إسمها نورا اتصلت بك يا يوسف وستتصل بك قبل الظهر مرة ثانية.

قال له أبرامينو الذي يذهب إلى عمله مثل الطيور، ويتفقد محل الزهور ويتحدث مع العاملين عن احتياجاتهم أولاً، ثم يتجه ليفتح محل دفن الموتى قبل يوسف أحياناً، ويبدأ قراءاته المتلهفة بعد الانقلاب العسكري، وليس مطالعته المتأنية في جريدته المفضلة "جورنال ديجيبت" أيام الملك فاروق.

- متى اتصلت؟ سأله يوسف بتلهف.
- بعد الثامنة بقليل. إجلس هنا يا يوسف مكاني لأني سأذهب إلى الورشة التي تصنّع التوابيت. نحن بحاجة إلى بعض منها بمواصفات خاصة وبدون صلبان. يبدو أنك تريد قول شيء يا يوسف.
- لا. قال يوسف وهو ينظر مباشرة إلى عيني أبرامينو.
- هل أنت متأكد؟ سأله أبرامينو هو يبادله النظرة نفسها.
- دفعت أسرة المتوفي قبل جنازة أمس نصف المبلغ، هل يمكنهم تقسيط الباقي؟
- قلت متوفٍ وجنازة ولم تقل اعتَمد أو ودّعوه. هناك أمر آخر .. أخبرني يا يوسف.
- ترك الرجل خمسة أولاد في المدارس وزوجته لا تعمل. ويبدو لي أن نصف المبلغ جمعه بعض أصدقائه.
- ردّ ما دفعوه لزوجته، وقل لها أبرامينو وصله حقه. قال أبرامينو بعد لحظات.
- لماذا قررت ذلك؟
- المركب أللي ما فيهاش للّه تغرق يا يوسف! لازم يكون في شيء مجاني لواحد محتاج.
- ربنا يخليك يا خواجه.
- إجلس هنا وانتظر تلفون نورا. قال أبرامينو وعيناه تبتسمان ليوسف، ثم أضاف: عندما تقابلها قل لها أنك مدير هذه المؤسسة.

قالت نورا ليوسف في اتصالها ظهراً أنها تتصل من مَشغَل أبيها للملابس الذي تعمل فيه، لكن لا وقت لديها لتتحدث معه أكثر، وأنها ستتصل به غداً في الوقت نفسه تقريباً، ورد يوسف بأنه يتمنى مقابلتها.

- ماذا تريد يا يوسف؟
- الحديث معكِ.
- هكذا؟
- هناك مثل فرنسي يقول التلفون وسيلة سيئة للتواصل. متى وأين سأقابلكِ؟
- هل تعرف أول محطة ترام على اليسار بعد ميدان محطة مصر؟
- نعم.
- انتظرني داخل مدخل البناية التي أمامها عند السابعة والربع صباحاً. سأراك قبل ذهابي للعمل الذي يبدأ في السابعة والنصف.

ذهب يوسف بعد عودة أبرامينو إلى محل بنزيانون ليشتري ملابس جديدة وعطر يضفون البهجة على مظهره، وركب الترام من أمام بيته في شارع الخديوي وذهب ليقابل نورا في صباح اليوم التالي، ووجدها تنتظره في آخر ردهة المدخل، في المكان الذي يطلق عليه أهل الاسكندرية "بير السلم"، وهو المكان الذي يمكن للواقف فيه رؤية الطوابق والدرج من داخل العمارة، واتجه يوسف نحوها وهو يشعر كأن قلبه سينخلع من بين ضلوعه.

- أنا آسف على التأخير. قال يوسف.
- لم تتأخر أنا المُبكرة.
- ما معنى اسم نورا؟
- بالارمينية الشيء الجديد. هل تعمل في هذا المحل يا يوسف؟
- أنا مدير هذه المؤسسة. لدينا محل زهور وخمسة حناطير أيضا.
- وظيفة غريبة.

- لابد من وجود أحد ينقل مَن يموت إلى مكانه الأخير. أنا خادم الإنسانية في نهاية حياة الانسان وليس في أي وقت فيها، مثل كل المهن الأخرى.
- ....
- ما سبب ذهابكِ إلى الجنازة أول أمس؟
- عمو لوسيان الله يرحمه والد صديقتي.
- لم أر جنازة في حياتي تشبه هذه.
- كان رجلاً من ذهب، وكل أولاده في المدارس والجامعات، وكان يعتبرهم استثماراته، لكن أنظر ماذا حدث للمسكين؟
- هل تتعلمين في الجامعة؟
- لا. ما سأربحه من مهنتي في المستقبل أكثر من أي مُتخرج في الجامعة.
- هل هذا ما يؤمن به أبوك؟
- لنذهب تحت السلم مباشرة لأن أحدهم فتح الباب ليذهب إلى عمله.
- هل يمكن مقابلتكِ بعيداً عن بير السلم؟ قال يوسف بعدما أمسك كفها بحنان ثم وضعه على خده.
- ممكن. سأتحدث معك هاتفياً. قالت نورا وقد تأثرت تماماً بما فعله ولم تتوقعه.
- اتفقنا. إذهبي أولاً ثم سأذهب بعدكِ. قال يوسف وقبّلها على خدها ولم تمانع.

سارت نورا إلى مدخل البناية وخرجت ويوسف يتابعها بعينه، ثم غادر المكان بعد وصول أول ترام إلى المحطة ليستقله، وهو يسأل نفسه هل تحدّث مع نورا لمدة دقيقة أو أكثر، لكنه فضّل عدم التفكير في أي شيء، والاستسلام لشعور البهجة، وقرر الذهاب إلى عمله ماشياً لأن الوقت مبكراً وهو بحاجة لهواء ميدان محطة سكك حديد مصر البارد صباحاً، ليجعله يفيق مما يشعر به ويذهب إلى عمله بكامل وعيه، وأخذ يغني

لأول مرة في حياته، ولم يعرف لماذا اختار أغنية "يا مزوّق يا ورد في عود"، لكنه توقف فجأة عن الغناء والسير وخاطب نفسه قائلا:

- يا نهار إسود. أبوها صاحب مَشغل خياطة. كيف سأتعامل معه؟

كانت نورا إبنة لرجل وإمرأة من الجالية الأرمينية في الاسكندرية، وهي الأصغر بعد أختيّن، وكان أبوها من القلة النادرة التي تعمل في هذه الجالية بعيداً عن المطاعم والفنادق، فقد بدأ عاملاً في مَشغل للألبسة، وبعد سنوات قرر تأسيس مَشغله الخاص بدين من مصرف أجنبي في مصر، بعد اقناع الموظفين بجدوى مشروعه وقبوله الفائدة العالية التي ألزمه المصرف بها.

- ماذا يعمل؟! سأل فريج أبو نورا ابنته وكأنه غير مصدق ما سمعه منها.
- مدير محل بيلوف لدفن الموتى.
- وأين تعرفتي عليه؟ في مشرحة؟
- في جنازة عمو لوسيان الله يرحمه.
- يعني تعرفيه منذ أقل من شهرين، ورغم ذلك يطلب الحضور ليراني.
- الشاب جديٌ للغاية ويريد التعرف عليَّ أكثر تحت رقابتكم بدلاً من كلام الناس.
- وماذا تتوقعين بعد هذه المعرفة؟
- سيطلبني للزواج.
- كل مهنة لها رائحتها يا نورا. نحن مثلا رائحتنا قماش بسبب عملنا. عملكِ رائحته طبيخ لأنه يعمل في مطعم. هل تعلمين أن رائحة الموت ستكون دائما في فراشكِ؟
- أعتقد يوسف يستحم يومياً مثلنا!
- هل تحبيه؟
- إنه شاب جديٌ للغاية. أثق فيه وأشعر معه بالأمان.
- يمكننا استقباله يوم الاحد القادم على الغذاء هنا.

تزوج يوسف ونورا في تشرين الأول سنة 1954، بعد خطوبة استمرت أقل من سنة في حفل عرس ضخم تبرع بتكاليفه كافة أبرامينو بيلوف، الذي أصّر على قضاء يوسف شهر عسله بعيداً عن المحل، وتولى هو تسيير أمور البزنس بنفسه وليس الاشراف عليه كما كان يحدث في السنوات الاخيرة، وعاد يوسف بعد ذلك الشهر وهو أكثر إشراقاً ومرحاً، واستمرت مسامرات أبرامينو ويوسف كل بضع أسابيع في مساء يوم الاحد كما تعودا، لكن يوسف لم يعد ينام على الكنبة كما تعود في أيام عزوبيته، بل كان يذهب إلى شقته.

- مصير هذا البلد يزاد غموضاً يا يوسف.
- معظم الناس يرون كل شيء على ما يرام. هل تعتقد أن التوجس فقط بين الجاليات كما تقول الاحاديث في البيوت؟
- الرئيس محمد نجيب كان يسعى لحياة ديموقراطية سليمة كما قال بيان الانقلاب في البداية.
- لكنهم أعتقلوه منذ شهور.
- لأنه كان ينوي إعادة الجيش إلى الثكنات وترك السياسة للمدنيين.
- هل هذا سبب اعتقاله؟
- لا. هناك مخطط آخر غير ما أعلنه الانقلابيون.
- ما هو؟
- لا أستطيع التكهن. لكن ما يحدث على الارض بعيداً عن السياسة يثير الشكوك في المجموعة التي ستدير البلد.
- كيف؟
- هل تعلم ماذا حدث لأحذية أصحاب القصور الملكية التي صادروها وليس أصحاب القصور أنفسهم؟
- ماذا؟

- أبدلوها بأحذية بالية من الروبابيكيا. يعني عدد ما صادروه صحيحاً لكن الواقع غير مطابق للورق. إذا كان هذا حدث للأحذية ماذا سيحدث للبشر والمؤسسات؟ ماذا سيحدث للملكيات الخاصة؟

رغم بدء رحيل رموز بزنس الجاليات الاجنبية من مصر، لم يفكر أبرامينو بيلوف بالرحيل سوى بعد العدوان الثلاثي سنة 1956، ليس بسبب تورط إسرائيل في العدوان كما كان يقول، لكن بسبب سياسات عبد الناصر تجاه رأس المال بشكل عام، وعدم وجود حماية لمن ليس في معية الطبقة العسكرية الحاكمة التي أصبحت تدير مؤسسات مصر. وشرح ليوسف كيف سيّس عبد الناصر الجيش وجيّش المؤسسات، وسيجنّد المواطنين لهدم صيغة التعايش في دولة محمد علي وسلالته، وسيكون من جراء ذلك اختفاء المجتمع المصري بتركيبته الحالية مستقبلا.

قرر أبرامينو العودة إلى بريطانيا، لأنه لا يتحدث العبرية ولا يريد أن يكون مواطناً من الدرجة الثانية في إسرائيل، وقال ليوسف أنه سيترك البزنس كما هو له وسيحوّل عقد إيجار شقته في عمارة كمريلي بإسمه، وطلب منه الاقامة في شقته ودفع إيجارها وكل مصاريف ورواتب البزنس وأخذ حاجته من الارباح، ثم تحويل ما بقي إلى رقم حساب في بنك لندني، وإذا حدثت مشاكل عند أول تحويل أو بعد عدة تحويلات، لأن عيون النظام مفتوحة في كل مكان، عليه الذهاب إلى كاهن جيزويتي قال له اسمه ليعيطه المال شهرياً، والكاهن يعرف كيف سيوصله إليه في لندن، وأوصى يوسف مراراً بعدم وضع نقوده الخاصة في البنك بل في المنزل في خزانة حديدية، لأنه شخصياً لا يثق بالنظام ويتوجس من خطوات إنتقامية تالية من أصحاب رأس المال في مصر، فعبد الناصر والمسيح يتشابهان في موقفيهما المتشدد من الأغنياء، رغم أنهم شيدوا كنائس الثاني، وأسسوا الصناعة والزراعة والتجارة والنظام المصرفي في مصر، ويختلفان لأن المسيح لم يسمح أو يتعامى عن سرقة مواطنيه الأغنياء بواسطة جماعته ليحكم بل توعدهم بجهنم.

كان يوسف بالنسبة لأبرامينو بمثابة ابنه، لأنه لم ينجب سوى فتاة واحدة، وكان يثق فيه بطريقة لا مجال للحظة شك فيها، وقد فعل ما فعله لإستحالة الخروج بأمواله من مصر لو باع البزنس أو تحويلها، ولم يشأ اللجوء إلى مكاتب المحامين الذين استغلوا أعصار الانقلاب ضد رأس المال الاجنبي وحتى الوطني، فكثير من الاجانب وكلّوا محامين لبيع عقاراتهم وأشغالهم ولم ينالوا سوى الفتات بل لم ينل بعضهم شيئاً بعد سفره.

- لم يبق شيء يا يوسف سوى القول بأنني سأفتقدك كثيراً.. كثيراً يا يوسف. قال أبرامينو له في ميناء الاسكندرية وهو يودعه.
- وأنا أيضا يا خواجه. أنت بنيت حياتي فعلا.
- قل لزوجتك كل ما تركناه في بيتي هديتي لها. قالت زوجة أبرامينو ليوسف.
- هذا كرم كبير يا ست. قال يوسف.
- سأفتقد جلستنا في المحل مساء السبت أو الأحد يا يوسف.
- وأنا أيضا يا خواجه. قال يوسف والدموع في عينيه.
- أريد منك شيئاً واحداً.
- ما هو؟
- أن تذهب إلى سموحة بالحنطور مع حوّا يوم السبت القادم أو الأحد، وتأكلان وتشربان وتتذكرني. كما كنا نفعل سوياً أحياناً.
- ....
- إدع لي يا يوسف عبور هذه البوابة للسفينة بسلام.
- إنكم لا تحملون غير ثيابكم.
- هذه هي المشكلة. لن يصدقوا!
- ستعبر.
- لن أقول وداعاً بل حتى نلتقي يا ابني.

ذهب يوسف كما طلب منه أبرامينو إلى سموحة، التي كانت مساحات من الاشجار بجوار ملاحات الاسكندرية في ذلك الوقت، وقاد حوّا الحنطور، وجلسا هناك وأفترشا الارض ووضعها عليها غطاء طاولة وبدأا يأكلان ويشربان خمرة معمل "باندلوكا" في منطقة اللبان، كما كانت العادة مع أبرامينو، وكان طبيعياً أن يتذكراه ويتحدثان عنه، ولم تستطع الخمرة إزالة الوحشة من قلب يوسف بسبب غياب أبرامينو، بل جعلت الدموع في عينيه، فقد كان يعتبره محور حياته ومُعلمّه والصديق الذي يؤازره وقت الضيق، وكان يفكر في ما قاله أبرامينو عن الخطوات المستقبلية المحتملة ضد رأس المال، عندما سأله حوّا:

- على فكرة يا معلّم يوسف.. ما نوع اللحم الذي نأكله؟
- مرتاديللا. لم يكن الخواجه أبرامينو يأكلها بل أنا وأنت. هل نسيت؟ لماذا تسأل؟
- مرتاديللا؟! يعني لحم خنزير؟!
- يا حوّا منذ حوالي عشر سنوات وأنت تشتري وتأكل لحم الخنزير معي هنا ولم تسأل.
- لأنه لذيذ.
- ولماذا تسأل اليوم؟
- لأنني أريد التأكد قبل أكله لأنه حرام.
- حرام؟! وماذا عن الخمرة وسيجارة الحشيش التي تدخنها؟
- لحم الخنزير محرّمٌ تماماً لكن الخمر .. يعني مش زي المرتديللا.
- ولماذا أكلتها كل هذه السنين؟!
- غلطة ربنا حيسامحني عليها لأني ماكنتش عارف.
- يا حوّا.. هل لعب الخمرة والحشيش برأسك ولاّ شيء تاني؟ على فكرة من اختار لك هذا الاسم؟

- أمي. كانت خايفة عليَّ من الحسد.

لم تنجب نورا بعد سنوات من الزواج، فذهب زوجها معها إلى طبيب أمراض نساء، بعدما كانا يبرران الامر بالقدر، وبعد فحص مخبري لهما أخبرهما الطبيب أن عدم انتظام دورتها الشهرية قد يكون سبباً في عدم انجابهما في المستقبل، واقتنع يوسف بظروفه وتحسر على عدم انجابه في الوقت التي بدأت حياته تتغير للأفضل، وطلبت نورا منه العودة للعمل في مَشغل أبيها طالما لا أبناء لديها يحتاجون لوقت وجهد للتربية، ووافق يوسف رغم عدم حاجتهما للمال حتى لا تدخل زوجته في نوبات ضيق نفسي، خصوصاً أنه كان يلاحظ توترها عندما تعلم بحبل صديقة لها من اللاتي تزوجن بعدها، لكن نورا حملت في بداية سنة 1960 وسط ذهول الجميع وانجبت مادلين.

كان أبرامينو يتحدث هاتفياً مع يوسف من وقت لآخر وفي نهاية سنة 1960 وقبل الكريسماس، أخبره أنه سيرسل له توكيلا شخصياً مُصدقاً من سفارة مصر يتنازل فيه عن كل أملاكه له، وعلى يوسف البدء بإجراءات البيع والشراء فوراً، وإخباره بأية عراقيل قد تحدث.

- ما السبب يا خواجه؟
- أنت استفدت من قانون التجنيس أيام الملك فاروق ولديك الجنسية المصرية، علاوة على كونك لبناني عن طريق والديك.
- هذا صحيح. لكن ماذا غيّر موقفك؟
- عبد الناصر سيتجه لإصدار تأميمات أكثر قريباً جداً.
- هل سيؤمم عبد الناصر محل دفن موتى؟! سأله يوسف وهو مندهش.
- يا يوسف.. هذه مؤسسة أمام القانون. والضربة موجهة للبقية المتبقية من رأس المال الاجنبي في مصر وحتى الوطني. المؤسسة يملكها أجنبي، لكن ما سأرسله لك سيحوّل ملكيتها إلى مصري.
- ....

- يا ابني. اسمع وافعل ما أقوله بمجرد وصل الاوراق الرسمية. هذا الرجل عدو شخصي لأي رأسمالي. إنه أسوأ من الشيوعيين. جوزيف ستالين سمح لهنري فورد الاميركي بالمساهمة في صناعة السيارات في روسيا!
- هل تثق في المعلومات التي لديك؟
- أنا أتعامل مع بنوك دولية يا يوسف. كل نوايا عبد الناصر مكشوفة لهم. جاء هذا الرجل بموافقة روسية أميركية لتحجيم نفوذ بريطانيا في الشرق الاوسط، لكن أنا مش عارف أيه أللي بيعمله ده.
- هل تثق فيَّ لهذه الدرجة؟
- يوسف. إفعل ما تعمله منذ سفري وتوقف عن ارسال أي مبلغ لي بعد سنتين من تاريخ انتقال ملكية المحل لك.
- لماذا؟
- لأن حقوقي ستكون قد صلت لي بل أكثر، وأنا هنا لن أكون بحاجة لما ترسله. كل شيء سيكون على ما يرام. أنت أمين جداً يا يوسف. أنا ساعدتك وأنت ساعدتني هنا في بداياتي.

تمت اجراءات انتقال ملكية المحليّن والحناطير وعربات دفن الموتي إلى يوسف، لكنه اضطر إلى استعمال الوسيلة الاخرى التي أخبره أبرامينو عنها، للقيود الصارمة التي فُرضت على التحويلات المالية للدول الاجنبية، وطالت التأميمات كما قال أبرامينو بيلوف أكبر مؤسسات مصر، وتحولت ملكيتها إلى ما أُطلق عليه القطاع العام، وكانت الكلمة المُشفرة لإرسال المبلغ واستلامه بين يوسف وأبرامينو في خطاباتهما الشهرية المتبادلة "الكاهن فلان يرسل السلام لك"، ويرد أبرامينو في خطابه "اشكره وبلّغه سلامي".

في نهايات سنة 1963 حملت نورا مرة ثانية وكادت الفرحة أن تذهب بعقلها هذه المرة، وبدأ يوسف يفكّر جدياً في مشروع مستقبلي بعد نهاية التزامه المالي مع أبرامينو

حتى لا يتربى أولاده وهم يخجلون أو يتشائمون من مهنة أبيهم، رغم سخرية نورا من فكرته.

- النقود لا يُطبع عليها مصدرها، بل المهم الحصول عليها، وأنا اقتنعت بك كما أنت وسيقتنع أولادك بك كما أنت أيضا.
- هل أنتِ مقتنعة بذلك؟
- أكيد وأنصحك بشراء محل دفن موتى أكبر!

توقفت أمام محل دفن الموتى سيارتان كبيرتان من نوع شيفروليه، ونزل منهما سبعة أشخاص واتجهوا إلى المدخل بعد تأملهم لليافطة الكبيرة فوقه بطريقة مستفِزة.

- أهلا وسهلا. تفضلوا بالجلوس. قال يوسف بابتسامته المحايدة نفسها للرجال الذين دخلوا مباشرة إلى مكتبه بدون أي ابتسامة أو ملامح تدل على حزن.
- لم نأت إلى المحل من أجل جنازة يا يوسف؟ قال أحد الرجال السبعة وكان يضع نظارة داكنة على عينيه.
- خير.. ما السبب؟ سأله يوسف وقد توجس شراً.
- جئنا نبلغك بوضع المحل تحت الحراسة.
- حراسة؟! أنا مواطن مصري.
- متمصر ويمكننا سحب الجنسية منك في أي لحظة بعد طلب عشرين مستند لن تستطيع إحضارهم.
- هذا عن جنسيتي، لكن هذا مجرد محل دفن موتى لا مصنع أو مؤسسة كبيرة.
- هذا صحيح تماماً. لكن من أين لك هذا؟ سأل رجل آخر وهو يجول بنظره في القسم الإداري، ويطل ببصره نحو الجزء الثاني الذي توجد فيه التوابيت.
- صاحبه باعه لي.
- وَهَبَه لك. لم يبعه يا يوسف.

- لم يهبه؟
- باعه شكلياً.
- شكلياً أو فعلياً. ما مشكلة محل دفن موتى مع الصناعة الوطنية؟ نحن حتى لا نستورد توابيت! كل شيء محلي هنا.
- لا مشكلة اطلاقاً، لكن جئنا لنبلغك بوضع الحراسة على هذه المؤسسة. قال الرجل الذي بدأ الحديث.
- وهل يعني ذلك أنني لن آتي غداً أو سأعمل فيه حوذياً؟ سأله يوسف بعدما بدأ يتذكر ما سمعه عن مصير أصحاب مؤسسات صودرت أو أوممت أو وُضعت الحراسة عليها.
- هذا هو العمل الوحيد الذي لا نفهمه يايوسف. ستكون مديره بالراتب الذي حددته لك الحكومة. كما كنت تماماً أيام الخواجه.
- هل يمكن التقاضي أمام المحاكم على هذا القرار؟ سألهما يوسف وهو يقرأ قرار الحراسة الذي سلمه إياه الرجل نفسه.
- لا يستطيع أحد مقاضاة الحكومة يا يوسف!

بدأ يوسف يستوعب ما سمعه شيئاً فشيئا لأن الصدمة أفقدته حس الادراك السليم، وأبعاد ما سيحدث وتداعياته على وجوده في المحل وتحوله إلى موظف بين الموظفين، وانعكس التفكير على صحته سلبياً يوماً بعد يوم، فقد شعر كأن قوة غاشمة سلبته كل ما يملك غصباً عنه، والأدهى أنه يجب عليه تمجيدها أو ممالقتها حتى لا يفقد وظيفته التي حددت الحكومة له راتبا ليؤديها، وتحادث هاتفياً مع أبرامينو وأخبره ما حدث، فنصحه الاخير بالتفكير في مستقبله لأنهم سيطردوه من المحل إن آجلا أو عاجلا، وسيعينوا أحد الضباط الفاشلين أو السارقين بدلا منه.

- يوسف.. هذه المكالمة مراقبة. أنا وأنت لا نخاف لأننا رأينا الناس في التوابيت.
- وما هو الحل؟

- كما يشاؤون على المدى الطويل أو القصير.
- وما هو؟
- غادر البلد. بعض الكنائس بدأت تساعد الناس على الهجرة إلى استراليا وبالتقسيط. غادر يايوسف لأن هذا هو المطلوب من أي مقيم غير مصري أو مُتمصر، بل حتى من المصريين الذين يعترضون أيضاً!

لم يستوعب يوسف فكرة الهجرة إلى استراليا، فهو لا يتحدث الانجليزية، والحياة في استراليا كما رسخت في ذهنه معناها الاقتلاع من جذوره، وأنجبت نورا في هذه العتمة والبلبلة في سنة 1964 ابنها ميشال الذي كان بمثابة بلسم لجروح أبيه اليومية الذي كان إسمياً مدير المحل، لكن الحارس هو كان الذي يقرر كل شيء بدءاً من تسعير الجنازة حتى شراء علف الخيول، وكان يمارس صلاحياته المطلقة بجلافة كانت تذّكره دائما بعبارة أبرامينو "غادر يا يوسف".

كانت مشكلة يوسف أنه لا يفهم في شيء سوى هذه المهنة، لذلك كانت الهجرة بشكل عام صعبة عليه، وبدأت تفاصيل محنته النفسية تتفاقم وتنعكس على صحته بشكل أكبر من السابق، لدرجة أنه ذات يوم أحس بتشاؤم غريب يسيطر عليه، ورائحة الموت تزكم أنفه، بل كان الموت نفسه يتحرك أمامه أينما ذهب، فذهب إلى كاتدرائية الروم الكاثوليك بجوار المحل، ووقف يتأمل الكنيسة الخالية لعله يستريح، لكنه شعر بالموت يقف أمامه بطريقة لا تفسير لها، ولم تحدث حتى عندما شاهد أمه في التابوت، فذهب يتمشى في المنشية الصغرى بين محلات الزهور، ليتبادل الحديث مع البائعين، فلم يستطع الاستمرار لأن الموت الذي يشعر به أمامه قرر الذهاب به إلى شقته قبل موعد الغذاء، ولما فتح باب الشقة سمع صراخ رضيعه ميشال، فنادى زوجته بصوت عالٍ، وهو يسير في المنزل، ولاحظ أن باب دورة المياه مغلق لكن صوت مياه الدوش مسموعة، ففتح الباب ووجد نورا ممددة في البانيو ورائحة الغاز تملأ المكان، ولما اقترب منها وأمسك بكفها أدرك أنها قد فقدت حياتها، فاتصل فوراً بالشرطة ووصل

أفرادها وبدأووا التحقيق، وجاء في تقرير الطبيب الشرعي أنها توفت مختنقة بسبب استنشاقها الغاز المتسرِّب ودخول مياه إلى رئتيها عندما فقدت الوعي وسقطت في البانيو، أمّا النيابة فقد أبرأته تماماً من أي شبهة جنائية في تعمد قتل زوجته، لأن صدأ نهاية ماسورة الغاز الذي تسبب في تآكلها وتسرّب الغاز كان يمكن حدوثه معه أيضا.

- هل أنت مجنون يا يوسف؟ أتريد العودة إلى لبنان بطفلة صغيرة وولد رضيع؟ لماذا لا تتزوج؟ سأل أبرامينو يوسف على الهاتف.
- سأغادر يا خواجه. كل الابواب هنا مغلقة والأمل معدوم ولا أرى سوى الظلام من حولي.
- ولماذا لبنان؟
- جذوري وكل من أعرفهم هاجروا هناك، حتى أخت المرحومة ذهبت إلى لبنان مع عائلتها.
- حاول الهجرة إلى المستقبل يا يوسف.
- سأذهب إلى من سيساعدني. سعمتُ عن أناس هاجروا إلى أميركا وعملوا في محطات بنزين. أنا لا أرى كما قلت لك سوى الظلام من حولي.

-Ne vous réjouissez pas de ce qui vient et ne soyez pas triste de ce qui est parti

- لكن مَنْ ذهبت لن تُعوض يا خواجه.
- البشر معرضون للخسائر دائماً. هذه هي الحياة ويجب تقبّل ذلك.

اضطر يوسف إلى تهريب أمواله التي في منزله، بشراء الماس من محل كان أبرامينو يثق به ويتعامل معه، ووضع ما اشتراه داخل قضبان عربة ابنه الرضيع، وغادر مصر مع ولديه في الباخرة أوزونيا مكتئباً وفي غاية الاستياء، مثل كل المتمصرين الذين هاجروا آنذاك، فقد كانت أجواء التأميمات والحراسات ذات وطأة لا تُطاق عليهم.

هاجروا تاركين ما أُمم وثرواتهم لأيادي الحكومة والعسكريين المقربين وأهل الثقة العسكريين الذين ترأسوا المشاريع المدنية، وكانوا ساخطين على مخططات عبد الناصر من حرمان الناس من كل ما يشعرهم بالقوة، وهم يسخرون في قلوبهم من تسمية حصيلة سرقة أموالهم "الرأسمالية الوطنية"، وهي مجموع سرقة الرأسمالية التي اعتبرتها الثورة "غير الوطنية" أو المتعاونة مع الرجعية والإمبريالية العالمية أيضاً.

كان يوسف قد قرر الذهاب إلى بلدة جده لعله يجد أقارب يساعدوه في بدايته الجديدة في لبنان، الذي لم تساعده ظروفه في الاسكندرية على زيارته ولو لمرة واحدة، فقد سمع من بعض اللبنانيين المتمصرين عن الخطة نفسها كبداية في مسقط رأس جدودهم، وصُدم عندما خرج من مرفأ بيروت ولم يجد أخت زوجته أو زوجها في انتظاره، وقرر الذهاب فوراً إلى ضيعة أجداده، وظن سائق التاكسي أن ركابه مغتربين من مصر يزورون أهلهم لقضاء أعياد الميلاد معهم، وعندما أخبره يوسف حكايته باختصار، نصحه السائق بالنزول في فندق في بلدة عاليه القريبة من رمحالا التي لا يوجد بها أي أوتيل. وأثناء تحرك السيارة في الطريق من بيروت إلى عاليه بدأ يوسف يرى تفاصيل الطبيعة الجبلية، التي رآها لأول مرة من السفينة أوزونيا وهي تقترب من الساحل اللبناني، ورغم جمالها والهواء الجبلي النقي، وصعود السيارة في الجبل من تحت مستوى الغيوم إلى أعلى منها في مشهد آخاذ لفت نظر ابنته مادلين، كان يوسف مستغرقاً في تفكيره ويتأمل ابنيه المرهقيّن من الرحلة البحرية، وهو لا يستطيع إطلاقاً تخيّل أي بداية ستكون في لبنان ليؤسس حياته الجديدة.

شعر يوسف بعد بضعة أيام في رمحالا أنها ليست المكان المناسب له للعيش فيها، فهو ليس فلاحاً ولا قروياً بطبعه، وقد جاء من مدينة كبيرة شوارعها واسعة وميادينها فسيحة وحدائقها ممتدة، ولا يستطيع التأقلم مع شوارع أضيق ومنازل جبلية قديمة. كان رغم الجمال الآخاذ المحيط به والجبال الوادعة من حوله، يرى رمحالا من منظور ثقافة ومدينة كبيرة. هوة كبرى لم يعتقد أنه يستطيع قفزها يوماً.

كان جسده أحياناً يقشعر حين يذهب إلى مطعم في المنطقة، ويتوارد إلى ذهنه فجأة "التاڤرنا" أو مطعم مثل "سانتا لوتشيا" في شارع صفية زغلول، حيث يذهب الرجال والنساء من علية القوم ومشاهير العالم في غاية في الأناقة، ويدلفون إلى مكان كل ما يظهر منه من الخارج أبواب خشبية ونوافذ معتمة، وبعد عبور المدخل يستمع الزبون إلى صوت البيانو ومعزوفات من أروع السيمفونيات العالمية تنبعث من المكان الرومانسي الساحر وتسحره أجواء المكان.

الستائر مخملية باللون اللازوردي والبيانو العتيق وأضواء الشموع ورحيق الورود التي توجد على كل الطاولات، التي تعكس أجواء قصور العصر الفيكتوري، واللوحات الفنية المنتقاة بعناية لمجموعة من كبار الفنانين التشكيليين حول العالم، في مشهد لم يتغيّر منذ افتتاحه سنة 1932، وظل مملوكاً لعائلة من أبرز أعضاء الجالية اليونانية بالإسكندرية، بعدما كان مِلكاً لرئيس الجالية اليونانية بانايوتي جورج سيوكاس، الذي جُعل مطعمه المسؤول عن إعداد الولائم الملكية منذ عهد الملك فؤاد.

- لا تفرح بما يأتي ولا تحزن على ما يذهب ..تعلَّم ولا تغضب.

هكذا كان يوسف يخاطب نفسه أحياناً، بعدما تيقن أن ما يملكه من مال يَصعُب استثماره في هكذا بلدة جبلية، كما لاحظ أنه كلما حاول اكتشاف جذوره ووصل العلاقات المقطوعة مع بعض أفراد عائلته الذين تعرف عليهم وتعرفوا عليه من اسم العائلة واسم جده وبعض الاسماء التي سمعها من أبيه، كانوا يتعمدون الحديث عن عدم وجود ما يورثه بطريقة مواربة لكنها مفهومة، رغم أنه لم يفاتحهم أبدا في هذا الامر، علاوة على تعاملهم معه كغريب وليس واحداً من أفراد هذه العائلة، جاء من مكان بعيد وقصدهم ليساعدوه على التعرف على بلد لا يعرفه.

كان يزعجه إطلاق "يوسف المصري" عليه، وكان مصدر إزعاجه أن المصريين كانوا يطلقون عليه "يوسف الشامي" أحياناً، وعندما عاد إلى جذوره فوجىء بعائلته تطلق عليه "المصري"، الذي كان يبدو عادياً عند الجميع ما عداه هو شخصياً.

وصل يوسف إلى قناعة بعد مناقشات طويلة مع عديله الذي هاجر مع أسرته إلى لبنان لوجود جالية أرمينية كبيرة فيه، أنه يجب ترك رمحالا والتحرك للعيش في بيروت، ونسيان موضوع جذوره، لكي يبدأ مشروعاً يفهم إدارته هو محل بيع زهور في منطقة الحمرا الراقية.

- لماذا لا تتزوج يا يوسف؟ أنت تقوم بمهمة شاقة فعلاً هي إطعام رضيع ورعاية طفلة صغيرة. سألته إلينا أخت زوجته.
- هذا أمر صعب عليَّ، والولدان صغيران ولن تُحسن أي أرملة عندها أولاد معاملتهما.
- ولماذا فكرت في الارامل؟ سأله زوج إلينا.
- لأنه يستحيل زواجي من عزباء.
- كيف ستتفرغ لمشروعك مع طفلين في مثل هذا العمر؟
- لا أعرف.
- هل يمكن أن تتركهما معنا للعيش بين أولادنا؟ سألته إلينا.
- هذه تضحية منكما لم أتوقعها إطلاقاً. لكنني سأدفع لكما شهرياً ما تطلباه.
- لا مشكلة في المبلغ الشهري يا يوسف. المهم التفكير والبحث لبدء مشروعك قريباً، وستزور الطفلين متى تشاء حتى يكبران قليلا، وأنا سأساعدك لتجد الدكان المناسب. قال زوج إلينا.
- أشكرك للغاية.
- بالمناسبة.. هل سامحتني يا يوسف على عدم حضورنا إلى مرفأ بيروت لاستقبالك؟
- كان عدم وصول رسالتي إليكما جزءاً من ظروفي المتناقضة التي كانت معاكسة لكل منطق. أيام سوداء.

سكن يوسف في منطقة الحمرا أيضا، لكنه اختار التحدث بالفرنسية دائماً، وألّف حكاية عن اغترابه في جزر مارتينيك، وهي إحدى مستعمرات فرنسا في البحر الكاريبي، حتى لا يُلقّب "يوسف المصري" مرة ثانية ويعيش في وطن أجداده كمغترب، وكان يتحدث بها حتى مع صغيريه حتى يتكلما بين اللبنانيين بلهجتهم نفسها ولا تُطلق ألقاب عليهما، وكان الطفلان يتحدثان بالفرنسية أو الأرمينية في المنزل، وظل على هذا المنوال حتى بلغ ولديه مرحلة المراهقة، فبدأ يتحدث معهما باللهجة اللبنانية التي تعلمها لكن بلكنة مصرية.

- عندما ستُطلق أول رصاصة في بيروت يا يوسف، غادر هذه المنطقة واذهب إلى أي منطقة شرقها. قال روجيه قزي ليوسف ذات يوم سنة 1974.
- رصاص كثير أُطلق من قبل، لماذا تقول ذلك الآن؟
- هذا البلد سيدخل في مستنقع قذر لن يخرج منه.
- من قال لك هذه المعلومة؟
- فلسطينيون نافذون. والأفضل لنا الهجرة.
- رفضتُ الهجرة إلى استراليا كما قلت لك. كم مرة سيهاجر الانسان؟ الأمر يشبه اللعنة. أنا تعبت.

كان روجيه قزي من اللبنانيين المتمصرين الذين غادروا الاسكندرية بعد التأميمات ببضع سنوات، ومن الذين يتحدثون بالفرنسية خارج بيوتهم مثل يوسف، وقد صارحه يوسف بقصته الحقيقة عندما التقط خيطاً منه عن طريق الصدفة أثناء حديثهما، وبعدما وثق فيه تماماً، وبدأا التزاور والتحدث باللهجة المصرية في بيتيهما.

- حمار! قال روجيه ليوسف ذات يوم وهما يحتسيان الخمر.
- لأي سبب مما قلته لك؟ سأله يوسف وهو يبتسم.
- أنا تقاسمت سرقة أموال المؤسسة التي كنت أعمل فيها مع أهم رجال الحراسة وكانوا ضباطاً.

- وهل وافقوا؟
- طبعاً. أنا أعرف كل خبايا السوق وهم مسعورون جشعون لا يهمهم أي شيء. قال رأسمالية وطنية!
- وكيف انتهى الامر؟
- كأسك يا يوسف! عندما بدأت الامور تتكشف والفضيحة تظهر، ساعدتهم على إعلان إفلاس الشركة بشكل قانوني وساعدوني على الهرب بأموالي.
- وماذا بقى من هذه المؤسسة الضخمة؟
- مكاتب وكراسي وموظفون في مؤسسة مُفلِسة عوّموها من "الرأسمالية الوطنية" وهي الاموال المنهوبة من آخرين، وأبدلوا ضباط الحراسة بأهل ثقة آخرين ليديروها.
- بدأت اقتنع بما قاله أبرامينو لي عن إبدال أحذية الباشاوات في قصورهم بأحذية من الروبابيكيا. لم تكن كلماته كيداً بسبب احباطه. كان الامر حقيقياً. قال يوسف.
- أعتقد أن أبرامينو سافر قبل معرفة مصير موجودات القصور الثمينة التي تشابهت مع مصير الاحذية.
- وكل الشعارات لم تتحقق، والاحلام ومشاريع الوحدة وأغاني الانتصارات تحولت إلى كوابيس.
- يا يوسف..هذا الانقلاب سلب بعض الأغنياء المصريين أموالهم، وسلب من كل الاجانب معظم ما يملكون، وسلب المتمصرين مصريتهم، وسلب حرية الجميع.
- رغم أن عبد الناصر قال: أنا علمتكم الكرامة، فقد أسس معتقلات لمعارضيه. ملوك مصر لم يكن لديهم معتقلات سياسية.

لم يضيع يوسف وقته بعد حادثة باص عين الرمانة في الثالث عشر من أبريل/نيسان سنة 1975، حين هوجمت إحدى الحافلات المدنية التي كانت تقل فلسطينيين عائدين إلى مخيم تل الزعتر بعد مشاركتهم باحتفال في مخيم صبرا، وحدثت هذه الواقعة رداً على محاولة فاشلة لاغتيال رئيس حزب الكتائب اللبنانية ذي الأغلبية المارونية، التي قام بها مسلّحون مجهولون، أو فلسطينيون حسب ما قيل، أثناء قيام الشيخ بيار الجميّل بواجب اجتماعي في إحدى كنائس حي عين الرمانة.

انتقل يوسف وولديه إلى العيش في منطقة زوق مكايل لأنه لم يجد شقة للإيجار في زوق مصبح المجاورة حيث يسكن روجيه قزي وأسرته، كما استأجر محلاً في منطقة الكسليك ومارس تجارة بيع الزهور، وظل أرملاً ولم يتزوج كما كان ينصحه جميع الاقارب والمقربين منه. فضّل العيش متحملاً عبء تربية ابنيه وإدارة عمله بمفرده، بعد سنواته الاولى في لبنان التي كانت مملوءة بالعذاب والتعرف والفشل والتكيف مع بيئة جديدة ومحاولة اتقان لهجة مختلفة، وقد سألته ابنته مادلين مساء يوم سبت والاسرة تتهيأ لقضاء أمسية عند خالتها إلينا:

- لماذا تتكون كل الاسر من رجل وامرأة بينما أسرتنا لا إمرأة فيها؟
- أنا الشجرة وأنتما الاغصان. لا يوجد رجل وامرأة في أسرتنا. يوجد شجرة. قال يوسف بالفرنسية وهو يضحك.
- أنا أسألك بشكل جدّي. قالت مادلين.
- كما قلت لكِ من قبل.. لأن أمكِ توفت.
- ولماذا لم تتزوج كما يسألك الناس دائماً؟
- حتى لا تعيش امرأة غريبة بيننا؟
- كيف؟
- طالما هي ليست أمكما ستكون غريبة عنكما.
- لم أفهم.

- قد تسترجعين في المستقبل حياتنا معاً، وهذا الحديث بالذات، وأعتقد أنكِ ستفهمين.

كان يوسف أسير حياته المفقودة في الاسكندرية، التي لم تستطع الحراسات ولا التأميمات ولا المناكفات التي حولته من صاحب مؤسسة إلى أجير مُراقَب أن تمحوها. ماضيه بتفاصيله كافة لم يكن وهماً، والعذاب الذي عانته أسرته كلها، يتجدد من جيل إلى جيل لكن بظروف مختلفة ودول متعددة ومسميات أخرى، لكن الجوهر لا يتغير. ولأن ذاكرته يستحيل عليها ارجاعه لما كان عليه، تعايش مع حياته الجديدة في لبنان بزمنين هما الوقت الحقيقي الذي يعيشه وزمنه الماضي الحال فيه كأنه الان، ويتذكره من حين إلى آخر تماماً مثل السائق الذي ينظر في مرآة سيارته وهو يقود، وأثناء القيادة كان على اتصال بأخته أوديت التي تزوجت في مصر من مواطن مصري، لكن زوجها فضّل الذهاب إلى استراليا، فالاجواء في مصر آنذاك لم ترغم الجاليات فقط على الرحيل، بل الذين كانوا يعيشون في فلكها سواء في النوادي الاجتماعية أو الاشغال. شعر الجميع أن المكان ليس لهم، والانتماء لمكان يرفضهم عبث.

- سيبك من عبد الناصر والهباب ألّلي عمله وخيبته أمام إسرائيل. احنا بنحب مصر يا يوسف. قال روجيه قزي ليوسف ذات يوم.
- هذا صحيح بعدما بدأت الصورة تتوضح لنا. كل الذين هاجروا بعد الانقلابات إياها من الشرق الاوسط إلى دول متعددة المجتمعات لكي لا يعرفهم أحد فيها، أو إلى أوطانهم مثلنا، ظناً منهم انهم سيعيشون كمواطنين، كان حلمهم سراباً.
- لأنهم إنزووا نفسانياً؟
- أكيد.
- هذا صحيح بالنسبة للجيل الاول لكن أبناء الجيل الثاني يشعرون بالمواطنة. أولاد أختي في استراليا لا يعرفون شيئاً عن مصر. قال روجيه.

- ماضي أهلهم لا أهمية له عندهم. قال يوسف.
- صحيح لأن هذه الدول تحث مواطنيها على التفكير في المستقبل. نحن تربينا على التفكير في الماضي.
- أميركا لا تاريخ طويلاً لديها لكنك تصنع فيها مستقبلك. بدأ يتوضح لي سنة بعد سنة ما قاله أبرامينو: هاجر إلى المستقبل. لقد ذهب هو إلى بريطانيا وليس إلى إسرائيل من أجل المستقبل.
- من أجل البعد عن ناس يسكنهم الماضي ويعيشون فيه.
- كيف تسير أمور التاكسيات التي تملكها يا روجيه؟
- البنزنس لم يعد مثل أيام ساحة البرج يا يوسف. أفكر أحياناً بالهجرة إلى استراليا، لكن الامور تصبح أصعب عندما يكبر الانسان.
- يفقد الجرأة ومواجهة واقعاً جديداً.
- هل تحوّل ما تربحه إلى الدولار يا يوسف؟
- لماذا؟! سأله يوسف وهو مندهش.
- لأنه المستقبل. على الأقل، استثمر نقودك في المستقبل. حتى عملة أي دولة في هذه المنطقة لا قيمة لها.

الفصل الثامن

- هل عاش يوسف تفاصيل هذه الحياة الهائلة؟ سألت زاد لميشال.
- وما يُدهشني هو صبره وعزيمته على مواجهة حياته. قال ميشال.
- أعتقد أن الجزء الأصعب كان عندما أنتقلتما أنتَ وأختكَ بعد العيش مع خالتك إلى العيش معه وهو أعزب لأنه بدأ يكبر في العمر.
- كان يطبخ ويكوي وينظف البيت ويصطحبنا للمدارس. كان انساناً عجيباً يرفض الاستعانة بخادمة، وكان يقول لنا أعمال البيت بالنسبة له رياضة تبعد الشيخوخة عنه، وحتى عندما ساعدته أختي بعدما كبرت، كان يطلب منها أحياناً التفرغ للمذاكرة حتى تحصل على علامات عالية في الجامعة.

كان الناس بالنسبة لزاد مجموعات، منهم مَنْ يجعلوك ترسو في مرفأ البلادة العقلية والروتين المميت والعادات السخيفة التي تجلب الامراض، وناس يغرقوك في مستنقع التفاهات والاحاديث المملة والثرثرات، وناس يدفعوك للإبحار إلى آفاق جديدة.

كان ميشال من الذين يلهموها الأفضل، فقد كان المؤازر المعنوي المهم الذي حثها على التحليق بخفة ورشاقة فوق أزمتها النفسانية لتعبرها في نهاية المطاف، وتعود للرقص إنسانة جديدة بشكل مختلف، وكانت أفكاره وراء كل نجاح لها، وحتى دخولها إلى مسلسلات التلفزيون في أدوار تمثيلية ثانوية كانت فكرته، وطالما طلبت منه أن يكون مدير أعمالها ورفض مُفضلاً دور الصديق.

رأت زاد ميشال أكبر من أمين مكتبة ومعلّم بدوام جزئي للّغة الفرنسية، لكن سعادته وقناعته بما كان يفعل كانت تجبرها على احترام اختياره، وكانت تطلب منه أحياناً مرافقتها في أيام الصيفية إلى أماكن التصوير أو السفر لمدينة غير لبنانية سترقص فيها، ولم يكن يرفض لأنه كان يكتسب خبرة جديدة.

عرض ميشال عليها فكرة الصور الجريئة التي طالما رفضتها، وأقنعها بأساليب خداع الظلال والابيض والاسود والايحاء بملامح الوجه، وقد تعجبت هي عندما رأت صورها بملابس عادية، لكن الزوايا والظلال وملامح وجهها كانت تعطي انطباع صورة جريئة. كان بارعاً في قراءة تفاصيل الوجه ويعرف كيف يقترب بالكاميرا ويلتقط الثانية المناسبة، وكانت تستخدم صوره لترفقها مع أي حديث أو تعطيها للمجلات كصور أرشيفية لها ليستخدموها متى شاؤوا.

اقتراب ميشال من زاد جعله يراها كما هي سواء في حياتها العادية، أو وجودها كنجمة تحت الاضواء، وتعمّد في أحيان كثيرة وهو معها الانزواء في دائرة بعيدة عنها، ولاحظ أنها فعلا تؤدي عملها بكل تفانٍ ومحبة، ثم تنصرف غير مبالية بالعيون التي تشتهيها ويتمنى أصحابها الجلوس معها والاقتراب منها، والدخول إلى فراشها لو تمكنوا.

كان الرقص مهنتها وليس وسيلتها، كما بدا له، رغم أنها تحت الأضواء تبدو وكأنها أمام مرايا مدن الملاهي المحدبة والمقعرة، ولا يعلم المُشاهد أي مرآة تعكس حقيقتها. كما كانت زاد مندهشة أيضا من ميشال القريب جداً منها، ولا يتعدى كرجل حتى بنظرة خطوط الصداقة. صحيح أنه كان يكبرها بحوالي ست عشرة سنة، لكنه لم يزل على وسامة وقوام يسمحون له بطلب ود إمرأة، لكنه لم يفعل ولم يبدِ حتى أي نوع من غيرة الصديق على صديقه، وهو يراها سعيدة أو منسجمة في الحديث مع غيره. وكان سلوكه يجعلها تشعر معه بالحرية والراحة والعفوية والاطمئنان.

كانت أحياناً ترجّح موقف ميشال منها بالصداقة العميقة التي كانت تربطه بزوجها جلال، لكن ورطتها في زيجتها الأخيرة دفعت حشريتها إلى التركيز عليه كأنثى، لتعرف حقيقة موقفه المحايد الطبيعي، فوجدته يتصرف كرجلٍ عادي مع نساء غيرها أينما جمعتهما الظروف، فهو يتابع بنظره الجميلات منهن وهن يبتعدن عنه في سيرهن،

وسمعت عن مواعدات وعلاقات نسائية عابرة في حياته، ولاحظت حذر بعض النساء منها، ربما لوجود علاقة مُساكنة بينهما كما كان يُشاع.

لم يرو ميشال لها الحوار الذي تم بينه وبين جلال زوجها المتوفي حين علم أنه مصاب بسرطان مميت، ولا الاتفاق الذي تم بينهما بسبب أجواء الحزن التي خيمت عليهما، فقد طلب منه ميشال أن يأتي من يمت منهما أولاً للآخر، ليثبت له وجود حياة أخرى بعد الموت، ثم مرت الايام وكان ميشال نائماً في فراشه، حين أيقظه رنين الهاتف بجواره، وعندما أغلق الخط بدون رد على المكالمة وهو بين اليقظة والنعاس، انتبه إلى وجود بقع ضوء صغيرة جداً تلمع خارج غرفته تشبه وميض فلاشات، فاعتقد لوهلة إنها تعكس شيئا ما في الجوار، لكن الصوت الخافت، الذي يشبه رفرفة رقيقة لمجموعة أجنحة عصافير صغيرة الحجم، الصادر من الردهة، جعله ينهض من فراشه ليتأكد مما يسمعه ويراه، وبمجرد خروجه من غرفة نومه لاحظ مصدر وميض الفلاشات في المطبخ، وتحديداً بجوار موقد الغاز الذي اعتاد هو وجلال الوقوف بجواره والحديث حتى تغلي القهوة، ولم يدر لماذا شعر بقشعريرة تسري في جسمه، ورغم اضاءته للمبة الردهة إستمرت أضواء الفلاشات تومض بوضوح، ولاحظ انها أبطأ سرعة من فلاشات الكاميرات، وعندما يختفي بعضها يظهر بعض منها ويصدر الصوت نفسه، فتسّمر في مكانه توجساً، ثم ذهب ليغلق جميع النوافذ الخشبية، وعاد وأطفأ ضوء الردهة ثم أضاء كل غرف المنزل، ولم تمح الظلمة التامة أو الاضاءة الكاملة أضواء الفلاشات البطيئة ولا صوت رفرفة أجنحة العصافير الخافتة التي سببت له رعباً، زاده رنين الهاتف الذي مزق السكون مرة ثانية وجعل مشاعره تنقبض، وكان الهاتف مِن زاد التي أخبرته بوفاة صديقه منذ دقائق وأنها تحتاجه في المستشفى.

كانت صداقته مع جلال وما حدث بعد دقائق من وفاته كفيليّن بوضع هوة سحيقة بين ميشال وزاد، يستحيل عليه تجاوزها نفسانياً وجسدياً، فقد كان جلوسه معها أو

قربه من جسدها أحياناً لا يوحيان له بأية مشاعر جنسية تجاهها، لأن عقله برمّج كيانه على هذا السلوك الحيادي.

- يبدو يا عنونة أنكِ من هواة تربية الأسود في بيتك. قالت زاد صديقتها لها.
- لماذا؟ سألتها زاد وهي تبتسم.
- ربطتكِ بالشاعر جوزيف نجار علاقة مثل التي تربطكِ حالياً بميشال، فهل هذه مجرد مصادفة أو انتقاء لاشعوري؟
- هل تقصدين أنني من هواة العلاقات المثيرة للجدل؟
- بسبب السمعة غير الصحيحة التي قد تلتصق بكِ. يُقال أنهما عشيقاكِ، وفي العلاقتين هناك دهشة وعلامات استفهام من الناس.
- يا زاد.. وجودي نفسه يعتبره بعض الناس إيحاءً بالرزيلة. لا تبالي بما تسمعين.
- أنا لا أسمع لأنني في صور، لكنني أخمّن من أحاديثك.
- هذان الرجلان شجعاني وساعداني على اتخاذ أهم قرارات حياتي. كلاهما دخل حياتي في وقت حاسم، وكلاهما تعاملا معي بشكل نظيف يصعُب وجوده. صعب جداً وجود من يساعدكِ ويقدركِ بدون غرض.
- أنا أعرفكِ تماماً وأصدق ما تقولين، لكني أكرر لكِ أن مثل هذه العلاقات ستبعد الزواج عنكِ.
- غير صحيح فقد تزوجت مرتين وفشلت الزيجتان.
- هل تزوجتي مرتين؟!
- هناك أمور في حياتي يا زاد أنت لا تعرفيها، ولن يصدقها أحد إذا قلتها.
- لماذا؟
- بعض الناس يعيشون المستحيلات ولا يؤلفوها. إنني أحياناً لا أصدق ما رأيته في هذين الزواجين.
- لماذا أخفيتِ عني زواجك الأول؟!

- كان حبراً على ورق لهدف ما فقط. وأنا اليوم أبحث عن شيء آخر غير الزواج.

كانت زاد صادقة في ما قالته لأنها بعد الزيجتين لم تعد فعلا ترغب في علاقة حميمة مع رجل، بعدما أصبحت خائفة من المفاجآت التي تُلقى في طريقها، وتتهيب خوض أي تجربة حب، رغم كونها تشعر بأنها تعيش في حبس انفرادي حيطانه من أضواء، تُشعرها أنها بين الناس لكنها بعيدة عنهم، وتسمع بعروض علاقات جنسية ولا تتجاوب معها، وكانت أحياناً تشعر بالدهشة لأن جسدها المثير للجميع، لم تستمتع به.

كانوا أينما ذهبت يقولون لها بشكل أو بآخر أنها جميلة، ولم ينافقها أحد فعيون النساء كانت تعكس الحسد منها وتمنياتهن امتلاك بعض ما لديها، أما نظرات الرجال من حولها فكانت ترتسم عليها ردة فعل تفاصيل الجاذبية فيها، لأنها كانت أنثى وليس فقط مجرد امرأة. أنثى في طريقة كلامها وتنفسها وسيرها ونظرتها والطريقة التي تختار بها ملابسها.

شعرت زاد بالرضا والاطمئنان مع ميشال، لأنه كان ما تبحث عنه وكانت تستشيره في كل أمورها، كما كان دائما يصفها بأنها تراث فني، فقد كان مقتنعاً بشدة بهذه الصفة التي قالها لها الشاعر جوزريف نجار، وكان يغذيها فيها ويحثها على عدم نسيانها، ووضع كل طاقته وما يملكه من موهبة العزف والتوزيع لإضافة جمل موسيقية صوفية سريعة، تختم بها زاد وصلتها الراقصة وهي تدور عكس عقارب الساعة حول نفسها ومع عقارب الساعة في المكان، بحيث لا تكسر هذه الجمل الإيقاع الشرقي، وفي الوقت نفسه تعطيها تميّزاً عن بقية الراقصات، وتوحي للحاضرين بنهاية الرقصة.

- لماذا لا تعزف خلفي؟ سألته زاد يوماً.
- أعزف لتسجيل مقطوعات ترقصين عليها وليس في الحفلات بسبب وظيفتي.
- وهل هذا من تابوهات وظيفتك؟
- ليس تابوهاً لكنني أتعامل مع قساوسة ومراهقين.

- أحترم رأيك رغم يقيني أنهم سيتلصصون على تفاصيل جسدي لو شاهدوني وأنا أرقص، إذا واتتهم الفرصة لحضور حفلة لي أو الجلوس عن قرب مني.
- هذا صحيح جداً. قال ميشال وهو يضحك من قلبه.
- على فكرة.. أنت قليل الضحك.
- لكنني أبتسم كثيراً.
- ربما سخرية.
- ربما. لم أفكر في الامر.

طلب ميشال من زاد الحضور هي وابنة خالتها التي تدرس في بيروت والمقيمة معها في الحازمية إلى شقته في الاشرفية أثناء "حرب تموز" سنة 2006، لكي لا تبقيان وحدهما في شقتها، خصوصاً بعد نزوح عدد من اللبنانيين قُدِّر عددهم بنصف مليون نازح من مناطق القتال والعاصمة بيروت، وكان مستحيلاً حتى ذهابهما إلى صور، بعدما أصبح الطريق الساحلي إلى جنوبي لبنان مستهدفاً من الطائرات الإسرائيلية، وقُتل أثناء النزوح داخل لبنان حوالي ثمانية عشر مدنياً في قصف طيران إسرائيلي استهدف سياراتهم وهم يتحركون.

أقامت زاد وابنة خالتها حوالي شهر في شقة ميشال في الأشرفية، بعد معارضة شديدة من الاخيرة، حيث رفضت في البداية العيش والنوم في شقة رجل غريب، ثم وافقت بعدما شاهدت بعينيها من الحازمية المطلة على الضاحية الجنوبية الطيران الإسرائيلي وهو يقصف بدون أي رد من وسائل الدفاع الارضية من معقل "حزب الله"، ثم زالت مخاوف الفتاة تماماً بعد الايام الاولى في منزل ميشال، كما زال توتر زاد كضيفة تقيم وتنام في منزل رجل، حتى ولو كان معها رفيقة علاوة على معرفتها الوثيقة وثقتها فيه.

كانت هذه الاقامة سبباً في كسر وحدة الأعزب الذي يعيشها ميشال في بناية سكنية كلها أسر، لأن الجارات اللاتي رأين زاد في المصعد أو الدرج بدأن الحديث معها ووجهت

بعضعن دعوات لها بزيارتهن، وزارها بعضهن ودردشن معها ومع ميشال وندى ابنة خالتها، مازل الجلوس في المنزل هو سيد الموقف بالنسبة لمن لم يغادروا بيروت في انتظار هدنة أو وقف العمليات العسكرية.

لم يلاحظ ميشال أي انفعال عاطفي على وجه زاد وهي تشاهد أخبار المعارك على شاشة التلفزيون، كانت تتابع الاخبار بدون أي تعليقات وبوجه هادىء رغم مأساوية ما تشاهده، بعكس ندى ابنة خالتها التي كانت الانفعالات واضحة عليها.

- هل لكِ أقارب في الضاحية يا ندى؟ سأل ميشال.
- لا.. كلهم في صور والجنوب، لكن ما يحدث عبثاً دموياً فلا حزب الله قادر على الانتصار على إسرائيل، ولا إسرائيل يمكنها إزالة الحزب، لأنه موجود في النفوس.
- المعارك التي تحدث جزء من ديبلوماسية أو ضغوط يضعها كل طرف على الآخر لتحقيق مطالبه. زمن الحروب الحاسمة انتهى كما أعتقد. قال ميشال.
- وهل ما نراه هو ولادة الشرق الاوسط الجديد، حسب ما تقول كوندوليزا رايس؟ سألته ندى.
- اللاعبون الكبار يعلمون أن أهالي هذه الدول يفسدون حاضرهم بماضيهم، ومن ثمة هم استثمارات ممتازة في السلاح وغيره، حتى يصلوا إلى تسويات مع ماضيهم تؤهلهم للنظر إلى مستقبلهم.
- هل هذه رؤية فلسفية تنبع من كؤوس النبيذ التي نشربها؟ سألت زاد ميشال.
- لكن ندى لا تشرب معنا. قال ميشال وهو يقهقه.
- على أية حال هي رؤية صائبة. الله يرحم اللي ماتوا. هذه ثاني مرة أراك فيها مقهقهاً.
- أنصحكِ بكتابة سيناريو مسلسلات تلفزيونية كوميدية. لديكِ موهبة اقتناص التناقضات. قال ميشال لزاد.
- سأحاول. ردت هي عليه.

- أفضل شيء فعلتيه يا ندى اختياركِ برمجة الكمبيوتر لتتعلميها. قال ميشال ليبعد الحديث السياسي عن الجلسة الودية.
- تخصصي سيكون مطلوباً في فروع العمل كافة.
- بالمناسبة، لماذا تشرب النبيذ دائماً وأنت تضع نصف تفاحة في كأسك؟ سألته زاد.
- أبي كان يفعل ذلك لأن التفاح يعطي نكهة أطيب للنبيذ، حسب ما كان يقول، ولا تنسي طعم نصف التفاحة المغمورة بالنبيذ لمدة ساعة أو أكثر. طعمها لذيذ فعلا.. كان الحق معه.
- كان أبوك يحب الحياة فعلا ويتفنن في إضفاء أشياء لطيفة على كل ما يفعل.
- ربما بسبب طبيعة عمله في شبابه ورجولته. كان يرى قيمة في الحياة نفسها.

لم يتح عشاء عرس زاد في منزل ميشال في ليلة زواجها، ملاحظة ما رأته أثناء إقامتها في شقته هذه المرة، فقد لاحظت وجود كتب كثيرة على رفوف مكتبته المنزلية تتحدث عن مضمون واحد تقريباً هو جذور أساطير أديان منطقة الشرق الاوسط القديمة في الاديان الإبراهيمية، رغم اختلاف عناوين هذه الكتب، علاوة على عدد هائل من أشرطة موسيقية وغنائية أجنبية وعربية متنوعة، وأفلام فيديو لمواضيع مختلفة، وستوديو صغير في غرفة مصممة لعزف الموسيقى بدون إزعاج الجيران، وعدد كبير من كاميرات التصوير الفوتوغرافي والسينمائي.

كان ميشال وزاد وندى أحياناً يسخرون من ملل الجلوس في المنزل تجنباً لطرقات خالية مُقبضة، وخوفاً من قصف الطيران الإسرائيلي على السيارات المتحركة، بتأليف حكايات ساخرة، أو النبش في طفولتهم والبوح بحقائق صدقوها صغاراً واكتشفوا عدم وجودها وهم كبار.

- ما الذي كنت تعتقده صحيحاً وأنت صغير يا ميشال ثم عرفت أنه خطأ بعد ذلك؟ سألته ندى.

- أعتقدتُ أبي هو جدي حتى عمر الرابعة أو الخامسة على ما أظن!
- هل تمزح أم ما تقوله جدياً؟ سألته زاد وهي مندهشة.
- أنا لا أمزح. كنا نعيش عند خالتي وكنت أعتقد أن أمي وأبي متوفيان، ومَنْ يزورنا كل بضعة أيام هو جدي.
- وكيف أدركت أنه أبوك؟ سألته ندى.
- أختي الأكبر قالت لي ذات يوم: يا أهبل.. أمنا فقط هي المتوفاة ومن يزورنا هو أبي.

قالت ندى وهم غارقون في الضحك، أنها كانت تعتقد أن صاحب البناية التي كانت تسكن فيها مجنون، لأنه لم يكن يهتم بتصفيف شعره، وروت زاد أنها كانت تصدق وهي طفلة أن شخصيات ألف ليلة وليلة حقيقية، وتمنت من كل قلبها رؤيتهم.

كما أطلقوا على يوم الاربعاء يوم البيجاما، لأنهم كانوا لا يرتدون ملابسهم في ذلك اليوم ويظلون بالبيجامات، وكانوا ينتحلون شخصيات ليست لهم، ويختلقون قصصاً حولها.

انتحلت زاد شخصية محامية طلبت لموكلها الاعدام حتى تتخلص من سماجته، ولفقت جريمة له لم تكن في ملف القضية، وورطته في اعترافات لم يقلها للنيابة بل لها شخصياً، وبوحي من ضميرها المهني أخبرتها للقاضي، الذي عاقبه بقراءة وحفظ "الكتاب الأخضر" عن ظهر قلب.

وانتحلت ندى شخصية طبيبة أجرت عملية ولادة لأول رجل في التاريخ، وأنجب الرجل كمبيوتر محمولاً، بعدما تزوج من تطبيق ثلاثي الابعاد.

وانتحل ميشال شخصية فيل أصيب بالهلع من نملة متنمّرة، هددته بتجويعه أو طرده من الغابة، وبدأ يسترحمها حتى تسامحه، وكان شرطها الوحيد هو الاعتراف بها ملكة وحوش الغابة، فاعترف واشترى لها كيلو سكر يوم تتويجها.

- من الذي ينظف بيتك؟ سألته زاد في إحدى الامسيات.

- أنا. لا أعتقد أن أي انسان غيري يستطيع تنظيف وإعادة كل هذه الاشياء إلى أماكنها، بدون كسر أي منها.
- ولماذا لم تقل ذلك حتى نساعدك أثناء وجودنا؟ بصراحة كنت أنتظر حضور خادمة يوماً ما، وفسرتُ غيابها بخوفها من القصف.
- صباح غد يمكننا عمل ذلك سوياً. قالت ندى.
- هذه الشقة لزوج خالتك في استراليا كما قلت لي. قالت زاد.
- ولم يفكر في بيعها لأنه لا يحتاج إلى أموالها، ومن ثمة أعيش فيها كما ترين.
- هل هو غني لهذه الدرجة؟
- أسس بزنس لم يكن معروفاً في الشرق الاوسط حتى السبعينات، وهو الان يملك أكثر من بزنس مثله.
- ما هذا البزنس؟
- شركة لتنظيف البنوك والمدارس والعيادات الطبية والمحلات التجارية الكبيرة ليلا بواسطة عمال محترفين يعملون لديه.
- من الاموال؟! سألته زاد.
- لا.. من الغبار ومخلفات استعمال الموظفين والمرضى والزبائن. قال ميشال وهو يقهقه.
- هذه ثالث مرة تضحك بهذه الطريقة، وأرجو ألاّ تكون الاخيرة! قل لنا نكتةياميتش لأنك في مزاج رائق الليلة. قالت زاد.
- طلب رجل من جاره الاحتفاظ بكلبه أثناء سفره ووافق، واتصل الرجل بعد أيام ليطمئن على كلبه، فأخبره جاره بموت كلبه بعدما صدمته سيارة، ولما عاد صديقه لامه على إخباره بطريقة صادمة، إذ كان يجب أن يقول في أول اتصال: خرج الكلب ليتمشى، وفي الثاني صدمته سيارة لكنه يتلقى العلاج، وفي الثالثة يخبره بموت الكلب.

- هل تعتبر هذه نكتة؟! سألته زاد.
- لماذا أنتِ في عجلة؟ سافر الرجل مرة ثانية بعد سنة وترك كلباً آخر عند جاره، واتصل به بعد أيام، فقال الجار: سمعتُ الجيران يقولون خالتك خرجت لتتمشى.

انتهت "حرب تموز" كما أطلقوا عليها في احدى أسمائها، وعادت زاد وندى إلى منزل الاولى في الحازمية، ورغم الأجواء العامة المكفهرة وخسائر تدمير القصف الجوي الإسرائيلي، كانت زاد تشعر بسعادة داخلية غامرة بسبب الايام التي قضتها مع ميشال، وابنة خالتها التي اكتشفتها أكثر بحضوره، فقد تجاوبت معه بعد حذر وأخرجت ما في داخلها من روح الدعابة، ما عجّل بمرور الايام، وجعل زاد تشعر بخفة في داخلها لم تكن تشعر بها سوى أمام الجمهور، حيث تتلاشى تماماً شخصية عنايات الامين الحقيقية وتظهر شخصية زاد.

كان ميشال بالنسبة لزاد هو الرجل الذي يفهم ما تريد ولا يتورط في وهم الحب بسبب قربه منها، أو عفويتها وهي تتصرف معه، كما كان يفعل أشياءً مهمة لها ولفنها، ويعرف كيف يتحدث معها ويغيب عنها، والاوقات التي يصمت فيها لتقرر هي، كما كان يتصرف كأنه يفهم بالسليقة ما تود هي منه أن يكونه ويفعله. لم يكن يسألها عن خصوصياتها رغم قربه الشديد منها، ومن الاسئلة التي أحجم فعلا عن سؤالها: لماذا تحمل شنطة يد كبيرة نسبياً؟ كان يعتبر ذلك من الألغاز النسائية. كان بالنسبة لها إنساناً قد تعيش إمرأة مثلها ولا تصادف مثله.

سرعان ما عادت الاتصالات الهاتفية مرة ثانية تدق في مكتب زاد، وأخذت مديرة أعمالها تنسق مواعيد اشتراكها في حفلات أو أعراس أو برامج نهاية الاسبوع في فنادق خمسة نجوم، سواء في بيروت أو دمشق، ورغم أجندة مواعيدها المزدحمة كانت تجد الوقت وتتحدث معه هاتفياً لتجدد طاقتها، وأحياناً كانت ندى نفسها تخبرها عن آخر اتصال لها مع ميشال، وتروي لها طرائف من سلة حكاياته التي لا تنتهي، ولا تعرف إذا

كانت حقيقية أم آتية من خياله، بسبب تنوع وكثرة ما يقرأ، وكانت ندى تندهش من قدرته الهائلة على الاستماع أيضا، فقد كان مستمعاً ممتازاً لمن يتحدث معه.

- هل تقابليه يا ندى؟ سألتها زاد.
- مرات قليلة جداً. بالمناسبة هو من محبي أكل الفلافل من المحل نفسه الذي أذهب إليه في جل الديب.
- كيف عرفتي؟
- قال لي أول مرة صادفته فيها هناك أنه يشعر بالحرج وهو يعزمني على ساندويتش فلافل بدلا من مطعم فاخر، لأن الوقت كان ظهراً.
- وماذا قلتِ له؟
- قلت له وأنا أشعر بحرج أكبر، لأن ساندويتش واحد لا يكفيني وسأطلب أكثر.
- وكم ساندويتش أكلتما؟
- أكلنا مثل المسعورين وشربنا زجاجتي بيبسي لكل منّا، لأنني أحسست بعدم القدرة على التنفس.
- أمي من محترفي عمل الفلافل. سأحضر عجينة مُفرزّة معي عندما أزور صور. قالت زاد.

تلقت زاد دعوة للرقص في أحد مهرجانات المغرب في شهور الصيف، وقررت البقاء في مُرّاكش لمدة اسبوع وزيارة بعض الاماكن في الدار البيضاء أيضا، لأنها سترقص ثلاثة أيام في أيام المهرجان الخمسة، وتمنت على ميشال وندى مرافقتها لأن سفرها سيكون أثناء اجازة المدارس والجامعات.

- لم أفكر بزيارة هذا البلد أبداً. قال ميشال لها بعدما دعته.
- هل تتملص من مرافقتنا؟ سألته زاد.
- مطلقاً، لكن سأدفع ثمن تذكرة الطائرة والاقامة هناك.
- أنا صاحبة الدعوة.

- لكن هذا كثير. هل ستدفعين لثلاثة أشخاص؟
- شخصان فقط. سفري وإقامتي مجانية.

جلوست زاد مع ميشال عدة ساعات من أجل الإعداد لتقديم أفضل رقصة وموسيقى مختلفة في الايام الثلاثة، تُظهرها كجزء من التراث الشرقي وليس مجرد جسد جميل يهلل الناس ويصفقون لتمايله، واقترح عليها ميشال الرقص بالعباية المغربية مجاملة منها للبلد المُضيف ووافقت زاد فوراً.

ورغم غبطة زاد بهذه الدعوة رأت وهي نائمة حُلما لا تفسير منطقياً له؛ بعد تقديمها بواسطة مُقدِّم المهرجان ودخولها إلى خشبة مسرح استاد كرة القدم، لم تبدأ الفرقة الموسيقية بالعزف رغم انتظارها لبضع دقائق، ثم بدأ الحضور يصفرون ويطلقون التعليقات استهجاناً لما يحدث، الامر الذي جعلها تغادر خشبة المسرح ركضاً وهي في قمة الإحباط والغضب.

- يجب الضحك على هذا الحلم لا التوجس؟ قال لها ميشال بعدما روت حلمها له.
- لماذا يا ميشال؟
- هل غفى الموسيقيون بسبب تدخين المخدرات؟ حلم لا أكثر ولا أقل. قال لها وهو يضحك.
- هل تعلم أنني وعيتُ من منامي وأنا أتصبب عرقاً؟
- عرق؟ ما اسم الماركة؟!
- ميشال أنا لا أمزح.
- المزاح ضروري هنا. لماذا لم يعزف الموسيقيون؟
- كانوا موجودين خلفي.
- أنتِ أمام تجربة في بلد جديد وجمهور لم يشاهدكِ من قبل. يعني أنت متوترة. هذا كل ما في الامر، لو تأملتِ الحلم بجدّية.

- ما رأيك لو شاركت الفرقة الموسيقية بالعزف على آلة الاوكورديون؟
- وماذا عن العازف المغربي؟
- لن يعزف في فترة رقصي فقط. سأقنعهم.
- لكن..
- لا تلاميذ مدرستك هناك ولا حتى أحد رهبانها. لن أقول لأحد. لا تتهرب.
- سأفعل ما تريدين إذا كان هذا الامر يجعلكِ أكثر اطمئناناً. قال ميشال بعد لحظات.
- كل الناس يقولون لك يا ميشو أو يا ميشال. ما رأيك في ميتش؟ سمعته مني قبل ذلك.
- لقد أمركتي اسماً فرنسياً.
- هل ظل شيء لم يؤمرك؟
- ساندويتش الفلافل.

وضعت زاد كفيها على كتفيها ويديها متشابكتين ثم رفعت يديها إلى السماء وكفيها يلامسان بعضهما كأنها تستمد طاقتها من الكون، وتنفست بعمق وابتسمت ورفعت ذراعها الأيمن أعلى من الايسر، وكانت هذه الاشارة لميشال ليعزف عزفاً منفرداً على الاوكورديون، كانت جمله الموسيقية قصيرة يصاحبها عزف خفيف على آلات الكمان كخلفية، وبدأت زاد تتحرك حركتي الارض حول نفسها وحول الشمس وسط سكون شبه تام من المشاهدين الذين لم يتوقعوا هذه البداية، وبعد صولو العزف بدأت الفرقة الموسيقية بكاملها تعزف، وسط تشجيع حماسي من جمهور استوعب الجديد الذي تقدمه الراقصة التي تملأ المسرح بحضورها رغم ضآلة حجم جسمها، وتمّلك ميشال احساس لا يوصف مما يشاهد، فقد كانت أول مرة يعزف فيها أمام جمهور وفي استاد، كما أحس بأنه يرى زاد لأول مرة في حياته.

كان حضورها مختلفاً تماماً عن المسرح والاعراس. كانت تشع نوراً ولا تعكس دائرة الأضواء التي تلاحقها أينما تحركت على المسرح، وكانت مندمجة بشكل لا يوصف في ادائها، لدرجة أنها عندما ألتفتت كعادتها لترقص لفرقتها الموسيقية، تحولت هي نفسها لجملة موسيقية مرئية تتمايل على المسرح، وسط استحسان الجمهور الذي يشاهدها.

أحس ميشال بعد الفقرة التي قدمتها زاد في أول ليلة لها وهو يغادر خشبة المسرح، كأن صدأً قديماً قد أُزيل من فوق مفاصله، وبطاقة متجددة تندس في جسمه، ورغم كونه عازفاً لم تؤثر الموسيقى فيه كما أثرت في هذه الليلة، خصوصاً إيقاعات الطبول والدفوف المغربية. كان تأثير حضور زاد وتشجيع الجمهور والاجواء الاحتفالية وعزف الفرقة الموسيقية في نفسه عظيماً، وسخر بصوت داخلي من اللاتي يسمعهن وهن يقلن أنهن سيعملن بالرقص، عندما لا يجدن وظيفة لفترة طويلة، فهن يعتقدن الرقص مهنة سهلة، لكن الطلة أمام الجمهور ليست بهذه البساطة، ولا حركات الجسد أمام عيون لا تغيب عنه.

أمام الجمهور والكاميرات يتضخم أي عيب ولو طفيف في الجسد الراقص، الذي يجب أن يكون جذاباً وحركته موحية رشيقة، فكثير من النساء جميلات، لكنهن لسن جذابات أو مثيرات ولا يعرفن كيف يحركن أجسادهن، ومواجهة الجمهور نفسه قد تجعل حركة الجسد تتلعثم مثل لعثمة الفم تماماً، حتى الوقفة للحظة التي تقفها زاد مع تحريك شعرها أحياناً بين جملة موسيقية وأخرى، أو الحركات الصوفية التي تؤديها، بحاجة لراقصة جرئية تؤديها للمشاهدين.

لم يدر ميشال لماذا لم يذهب إلى زاد ليلاقيها بعد تغيير ملابسها، كما لم يذهب إلى ندى في المكان الذي تجلس فيه. خرج إلى الشارع وهو شبه غائب في عالم أجمل بكثير مما حوله، وعاد سيراً وساعده من سألهم في طريقه على الوصول إلى الفندق، وجلس

في البهو ينظر إلى المكان والناس بهدوء ويتأمل صور ذكريات حياته، ويشكر بينه وبين نفسه زاد التي أوحت له بهذه التجربة النفسانية الرائعة.

الفصل التاسع

- يا أستاذ ميشال لا تغضب مني إذا قلت لك سمعتك عشرات المرات وأنت تقول ما يشبه هذه الجملة. قال سكرتير تحرير إحدى الصحف وتلميذ سابق له.
- وهذا ما حدث. ردّ ميشال.
- أعرف ذلك تماماً. سمعتك تقول على سبيل المثال المطران فلان قال في عظة متلفزة، الفكرة نفسها التي قلتها في دردشه معه. وسمعتك تقول كتب تلميذي الصحافي فلان الجملة نفسها التي قلتها له.
- وما المشكلة؟ سأله ميشال.
- أنا نفسي اقتبست منك مرات عديدة مما قلته لي.
- ما يعني صوابية أفكاري!
- لماذا لا تكتبها؟
- لأنني لست صحافياً.
- وهل كل الاعلاميين يعرفون الكتابة في العمق؟ أو لديهم القدرة على تحليل ما عرفوا من معلومات؟
- هل أملك هذه المقدرة حسب ما ترى؟
- نعم والمسألة بحاجة إلى تصميم وتدريب منك إذا كانت النية موجودة.
- هل تعتقد ذلك؟
- إذا كنت تريد فعلا فدعني أكون أستاذك!
- لا مانع. تجربة جديدة لم أفكر فيها مطلقاً.

- أكتب مقالا عوضاً عن أحاديثك مع المطارنة وجلسائك، ودعني أراه ومنه سنبدأ.

كتب ميشال مقالاً وأرسله بالإيميل إلى تلميذه السابق، الذي رد عليه بقوله المقال طويل، والمطلوب اختصاره بإزالة الجمل والكلمات المتكررة، وعمل ميشال بنصيحة تلميذه، الذي رد عليه بعمل اختصار الصفحة التي أرسلها إلى نصف صفحة.

- يا حبيبي هذا مستحيل. قال ميشال لسمير الهوا على الهاتف.
- إكتب يا أستاذ ما تريد قوله فقط. نصيحتي لا تكرر أي كلمة مرتين واختار كلمة أخرى لها المعنى نفسه لتكون مُشوقاً.. تجنب جماليات اللغة العربية فأنت لا تكتب قصيدة. جمال الاسلوب مهم لكن لا داعي لكمات مثل في الواقع، والمقام هنا لذكر كذا. كل أخوات هذه الفسيفساء اللغوية لا تتماشى مع إنسان محكوم بعصر سريع ومساحة محددة وقارىء يمّل بسرعة.

كاد الغضب يتملك ميشال لكنه أعاد التفكير في ما قاله سمير الهوا، ورأى أنه أقدر على الفهم منه في حرفة لم يمارسها، فنفّذ ما طلبه منه تلميذه السابق وأرسله له بالإيميل، ورد سمير بأنه يجب حذف تسع كلمات أخرى من المقال.

- تسع كلمات يا سمير؟ أنا من ثمة بحاجة إلى غربال ذي ثقوب ضيقة جداً.
- هذا هو المطلوب، وستستعمله لعدة مرات حتى يصبح الامر عادة. أستاذ ميشال لقد وقعت بين يدّي شخص من الصعب ارضاءه. الله يعينك.
- من كان أستاذك في هذا المجال؟
- أنت!
- أنا؟!
- نعم. أنت شخصياً قلت لنا ذلك في صفوف الدراسة. الناس يشرحون شيئاً ثم يفعلون أمرا مختلفاً عند الممارسة.

فعل ميشال ما طلبه سمير الذي رد عليه بالإيميل "سيُنشر غدا". وعندما قرأ ميشال ما كتبه هز رأسه واتصل بسمير.

- لقد أعطيتني مفتاحاً.
- وهو مفتاح من مفاتيح كثيرة أعطيتني إياها.
- أذكر مفتاحاً منها.
- أنت بدون إدراك صنعت مني صحافياً ناجحاً، عندما قلت في الفصل الدراسي هناك فرق بين الحكايات والصحافة.
- هل أنا قلت ذلك؟
- وأكثر بكثير. تعودنا منك شرودك من تعليم اللغة الفرنسية إلى ثقافتها، ومنها إلى ينبوع لا يتوقف أو ينضب .
- يبدو الامر كان مفيداً لك.
- يا أستاذ ميشال بعض الناس يولدون ويرون طريقهم بأنفسهم ويسيرون فيه.. هؤلاء مكافحون. وبعضهم لا يرون طريقهم لكن الطرق تراهم.. هؤلاء محظوظون. مع الأسف أنت لم تر طريقك ولم يرك طريق!
- أشكرك على هذه الحقيقة المؤلمة.
- اكتب.. اكتب.. وأرسل لي ايميلات، ومن يدري ماذا سيحدث بعد ذلك؟

بدا الامر لميشال كأنه لعبة كان يعرفها لكنه لم يمارسها، وأحسّ بقدرته على الكتابة بغزارة بعد عدة مقالات ، خصوصاً بعدما بدأت تقل مسألة الاختصار التي يطلبها سمير الهوا، الذي نقل له ردة فعل القراء الجيدة على ما يكتب، وسؤال رئيس التحرير عن هذا الميشال الذي يكتب في صفحة الرأي، وروى ميشال لزاد ما حدث معه في الاسابيع الاخيرة مع سمير الهوا أثناء زيارة له في منزلها، ليطلعها على عدة تصميمات لمُصمم مبتديء مغمور في عالم الازياء، ويتمنى تبنّي إحدى المشهورات لتصاميمه، وردت زاد وهي تطالع التصميمات وتهز رأسها بأنها منذ اللحظة التي رأته فيها، أحسّت بوجود

خطأ ما في حياته، لكنها أدركته عندما بدأ التقارب بينهما، ثم تركت التصميمات على الطاولة وهي تنظر إليها بإعجاب وركزّت عينيها عليه وقالت:

- ما أنا متأكدة منه هو جدارتك بحياة أفضل من التي تعيشها، ليس مالياً لكن اجتماعياً، رغم سعادتك بما أنت عليه.
- هل تعتقدين أنني إذا أصبحت صحافياً ستكون هذه نقلة نوعية في حياتي؟ سأل ميشال زاد.
- هناك عشرات من الصحافيين. المسألة بالنسبة لك أعمق بكثير.
- ساعديني. إنني أؤمن بإحساس المرأة في الرؤية.
- أنا مارست في بداياتي الصحافة لفترة وكان الداعم لي جوزيف نجار، وعنه أنقل لك: أهم شيء يجب معرفته هو ماذا ستختار.
- هل هذا هو العمق الذي تعنيه؟
- نعم. أنت مثلاً أقدر على الكتابة من إجراء الاحاديث. أنت تعلم تماماً ماذا ستكتب.
- وماذا أيضا؟
- ميتش! أنا لا أعرف لماذا اخترتَ الانزواء في مكتبة؟
- من قال لك أنني منزو؟ عندي علاقات كثيرة كما تعلمين.
- تستغلها لتسويق الآخرين. هذه التصميمات مثلا.. علاقتك بجلال غندور .. علاقتك فيَّ شخصياً.. لم تستغل أي شيء لتُصبح أهم.
- ربما.
- ما أنا أعرفه يقيناً هو نجاحك في فشلك. قد تغضب مني لكن هذا رأيي.
- نجحتُ في فشلي؟ سألها ميشال وهو مذهول.
- وكنت متميزاً في هذا النجاح الفاشل.
- ....

- فشلتَ في معرفة ذاتك، واستعمال مواهبك، وفي اختيار المكان، وفي التفاعل التنافسي مع الناس والمستقبل.
- ربما! قال ميشال وهو يتأمل ملامح وجه زاد.
- اخرج بجديد من كل قراءاتك.
- سيجلب لي وجع الرأس.
- كلما وجعك رأسك تذكرني. يا ميتش كل مَن لا يستطيع الوصول لفراشي أو لا أجامله يهاجمني، أو يخترع قصة لا أساس لها من الصحة عني. حياتي الحقيقية ربما أنت الوحيد الذي يعرفها.
- كانت مجموعة الصدف هي السبب.
- أنت أخطر إنسان في حياتي. هل تعلم ماذا سيحدث لي لو قلت ما تعرفه عني؟
- ما لا يعرفه الناس عنكِ لا خوف عليكِ منه لأنني لن أقوله.
- لماذا؟
- لأنكِ الشخص الوحيد الذي لم أحلم حتى بوجوده، ولكي أكون منصفاً لا أصدق أحياناً بوجود شخصيتك الحقيقية التي أعرفها.
- ....
- معظم شخصيات الفنانين أقل بكثير من فنهم. أنت كبيرة مثل فنك.
- شكرا يا ميتش. الكتابة شيء مميز لكن الأهم عمل موقع خاص بك، والتركيز على ما سيوجع رأسك!
- سأفعل.
- لم تقل لي كيف توفى أبوك؟ سألته زاد بعد لحظات صمت.
- كان يوسف مثل لوحة فنية قديمة سَلمت من تلف الايام رغم كل ما حدث لها، ولم يشكُ من مرض رئيسي أو أوجاع مزمنة، ولم أفكر أبداً في اختفاء هذه اللوحة من على حائط المنزل ذات يوم.

- ....
- لماذا سألتيني هذا السؤال؟
- لأن ما قلته يفسر أموراً كثيرة عندي. رغم كل ما قلته وربما يكون أزعجك، هناك أمر مهم هو أنني أقدّرك وأثق بدون تردد في أي رأي منك.
- ستتغير حياتي وأنا في العقد الرابع من عمري. قال ميشال وهو يبتسم.
- وما المشكلة؟ تغيرت حياة بعض الناس وهم في الستين. رونالد ريغان أصبح رئيس الولايات المتحدة وعمره سبعين سنة.

شعرت زاد بوخزة في ظهرها عقب مغادرتها مصعد بنايتها في حوالي الثامنة مساءً، وسمعت صوت رجل من خلفها يطلب منها الاتصال من هاتفها الخلوي بسائقها الذي ينتظرها والطلب منه الذهاب بدونها، لأنها متوعكة ولن تستطيع الرقص في الفندق الليلة.

- هل هذه سرقة أم إغتصاب؟ سألت زاد الرجل وزميله الذي كان معه، وهي تنظر إلى الخنجر الكبير الحاد الذي وضعه على رقبتها، بعدما أعطته هاتفها الخلوي بعد إغلاقه كما طلب منها.
- لو كانت سرقة لكنا في شقتكِ الآن. رد الرجل الذي لم يكن يخفي وجهه مع زميله.
- وأين ستغتصبوني؟ سألت زاد بتهكم.
- إخرسي.. ستعرفين كل شيء لاحقاً.

بعدما تأكد أحد الرجلين من رحيل سائق زاد بسيارته بعدما ترك سيارة زاد في المرآب تحت البناية، قاداها إلي ڤان كبير كان يقف أمام بنايتها مباشرة، وركب ثلاثتهم الڤان الذي إنطلق نحو الجبل من الحازمية وليس باتجاه بيروت، ولاحظت زاد أن الكراسي الخلفية للڤان غير موجودة، ما رجّح عندها إنهما سيغتصباها في الجزء الخالي.

- هل لدى أحدكما شقة؟ سألتهما زاد بتهكم.

- لماذا تسألين؟ سألها الشاب الذي يقود الڤان.
- واضح إنكما ستغتصباني في الڤان.
- شرموطة وذكية أيضاً. قال الذي يجلس بجوارها.
- لماذا لا نذهب إلى شقة أحدكما عوضاً عن عمل هذا الشيء كالكلاب في الشارع؟ سألتهما زاد وقد بدأت تتألم بسبب الخنجر المصوَّب إلى خاصرتها.
- فكرة لا بأس بها. قال السائق.
- هل أنت غبي؟ سأله زميله.
- لا تخف سنفعل الشيء الثاني لاحقا. لا تقلق.

توجست زاد من الشيء الثاني الذي ذكره سائق الڤان، وعندما وصلوا إلى بناية على طريق خلدة الساحلي في بلدة الناعمة كما رجّحت زاد بسبب الظلام، طلبت منهما بهدوء بعد صعودهم إلى شقة، الذهاب إلى دورة المياه لأمر نسائي، فتركاها تذهب وهما مندهشان من سيرها بدلال ولا مبالاة بما يحدث.

- لماذا تتعجب يا رجل؟ إنها مجرد شرموطة ولكنها مشهورة. شرموطة تعلم ماذا سيُفعل فيها. قال أحد الشابين للآخر وهو يغمز له بعينه.

ذهبت زاد إلى دورة المياه وهي متأكدة تماماً من نية الشابين بقتلها بعد اغتصابها، وهذا هو الشيء الثاني الذي قال أحدهما بسببه للآخر لا تقلق، لأنه لا يُعقل أن يأتيا بوجهيّن سافريّن ليغتصباها بدون هذه النية، وهم يعلمان بشهرتها.

فكرت زاد في دورة المياه بالسيناريو الذي سيحدث لدقائق قليلة، وأخذت نفساً عميقاً أكثر من مرة لتهدىء توترها، ثم فتحت شنطتها الكبيرة وأخرجت مسدسها الذي تحتفظ به فيها دائماً، وفتحت الباب وخرجت ووقفت أمامه تماماً، ورأت الشابيّن جالسين على الكنبة الكبيرة وأمامهما زجاجتي بيرة، وهما يتحسسان عضويهما الذكريين خارج بنطلونيهما، والمؤكد أنهما لم يتوقعا رؤية زاد وفي يدها مسدس سريع الطلقات، لأنهما نظرا إليها وهما في ذهول تام.

- هذا المسدس فيه ست طلقات وأعرف كيف استعمله جيداً، وإذا لم يفتح أحدكما باب الشقة ويضع الخنجر ومفتاح الڤان وهاتفي الخلوي بعد تشغليه مرة ثانية على الارض أمام باب الشقة، سأطلق رصاصة على قفل الباب ورصاصة على ركبة كل منكما، وسيأتي الجيران على صوت الرصاص ولا أعرف ماذا سيحدث بعد ذلك. أمامكما عشر ثوانٍ للتفكير.
- هل تخيفينا يا قحبة؟
- اسمع جيداً، سأطلق الرصاص بعد خمس ثوانٍ. قالت زاد وهي تصوب المسدس إلى ركبة أحد الشابين.
- قم وافتح الباب وضَعْ كل ما طلبته الشرموطة على الارض. قال أحد الشابين للآخر، وهو ينظر بهلع إلى المسدس المصوب إلى ركبته.
- إذا قلت لي شرموطة مرة أخرى سأطلق على فمك رصاصة واحدة. قالت زاد وحركت فوهة المسدس من ركبته إلى وجهه.
- إفعل ما تطلبه. قال الشاب وقد بدأ يرتعد من الخوف.
- سأغادر بكل هدوء لكنني إذا رأيتكما تلاحقاني على الدرج سأطلق عليكما الرصاص. قالت زاد وهي تلف الخنجر بيد واحدة داخل إيشارب وتضعه في شنطتها.
- سؤال أخير.. هل هناك شخص آخر وراء هذا العمل؟ سألتهما زاد وهي توّجه هاتفها الخلوي نحوهما.
- لا. قال الشابان معاً.
- هذه الصورة للذكرى. قالت زاد بعدما التقطت صورة لهما.

قادت زاد الڤان مباشرة إلى مخفر الحازمية لأنها لا تعرف أين يقع مركز شرطة بلدة الناعمة، وهناك أخبرت الضابط المناوب بكل شيء، وسلّمته مفتاح الڤان، فطلب منها بعد استكمال المحضر الذهاب فوراً إلى منزلها بمصاحبة عناصر الشرطة، وتسليم

أحدهم وثيقة رخصة مسدسها لرؤيته ثم ارجاعه إليها، وقال لها سيبقى عنصر واحد منهم أمام باب شقتها خوفاً من الإنتقام اليائس، حتى تتم إجراءات القبض على الجانيين، التي ربما تأخذ بعض الوقت فالمرجّح أنهما هربا فزعاً بعد مغادرتها الشقة، كما طلب منها رقم هاتف وعنوان سائقها الخاص للتحقيق معه، فقد يكون مشاركاً بالتواطؤ في الجريمة.

كانت الساعة قد اقترب من الثالثة فجراً عندما وصلت زاد إلى شقتها مع عناصر الشرطة، واستقبلتها ندى بقلق واضح، لأن إدارة الفندق اتصلت للسؤال عن صحتها بعدما أخبرهم السائق بأمر توعكها، لكن ندى أخبرت المدير أن زاد خرجت وليست في الشقة، وبسؤال السائق مرة ثانية على هاتفه كرر ما قالته زاد له عن أمر مرضها وأنه لا يعرف أكثر من هذا.

لم تنم زاد ولا ندى وروت لها كل ما حدث في هذه الليلة وهي في منتهى القرف والتوجس من القادم، فالاعلام، حسب ما ترى زاد، سيتناول ما حدث وستكون موظفة غير مباشرة عند هذين الحقيريّن، بسبب الأحاديث التي سيطلبها الاعلاميون منها، والوقت الذي ستتطلبه هذا المقابلات، علاوة على هدر الوقت بسبب حضور جلسات المحكمة، ووجع الرأس بسبب ما ستقوله أمها، والضيق والحرج الذي ستسببه لأبيها.

- ستخرجين من هذه المحنة وأنت أقوى وأكثر شهرة. قالت ندى لها.
- كيف؟ سألتها زاد وهي تبتسم سخرية.
- أقوى لأنك تصرفتِ مثل كلينت إيستوود في فيلم "غير المتسامح" في المشهد الأخير، وأكثر شهرة لأن الناس يبحثون عن فضيحة ليصبحون مشهورين.
- لكنني مشهورة فعلا. قالت زاد وهي تبتسم.
- ستكونين أعظم شهرة من اليوم. سيطلبونك في المهرجانات الدولية والعربية ليشاهد الجمهور الراقصة البطلة. صدقيني.
- قولي لدارين وحسين هذا الكلام.

- سأقوله لهما. على فكرة.. كيف كان احساسكِ وأنت تصوبين المسدس إلى وجه أحدهما.
- فقدت كل أحاسيسي. كان هدفي الخروج من هذه اللعنة بدون إطلاق رصاص.
- وإذا لم ينفذا ما طلبتيه منهما؟
- كنت سأطلق الرصاص بدون تردد، وليحدث ما يحدث.
- كانت ستحدث مشكلة لو أطلقتِ الرصاص.
- كنتُ الآن في النِظارة بين نساء رخيصات أو وضيعات للعرض على النيابة حتى ينتهي التحقيق. لذلك صبرت حتى آخر لحظة.

اعترف الشابان أمام المحقق العدلي بعد إسبوعين حين قُبض عليهما، أنهما كانا يعملان مع آخرين في ترميم ودهان شقة في الطابق الخامس في البناية نفسها التي تسكن زاد في طابقها الرابع، وقد خططا لاغتصابها بعد مراقبتها لمدة إسبوع، ونفيا وجود علاقة بين سائق سيارتها وما خططا له، وأنكرا وجود أي محرّض، واعترفا بنيتهما باغتصابها في القان لاستحالة الامر في شقتها، حيث تعيش معها فتاة أخرى قد تصرخ أو تفعل أي شيء لا يمكنهما التحكم فيه، لكن المكان تبدّل بسبب اقتراح زاد الذي قدمته، ونفيا تماماً نية الشروع في قتلها، وقالا إن أقوالها بنية قتلها بعد اغتصابها سببه الرعب الذي أصابها، أمّا الخنجر الذي كان معهما فكان لتهديدها فقط، وتشويه وجهها إذا قاومت مقاومة عنيفة، وفسرا عدم ارتدائهما أقنعة أو اخفاء وجهيهما بأي وسيلة، بأنهما كانا على يقين من خوفها من الفضيحة لأنها راقصة مشهورة ولن تبلّغ عما حدث لها.

رافق حسين الأمين وميشال زاد في جلسة القضية الأولى، التي دفع محامي المتهميّن فيها ببطلان شهادة موكليه لأنها أُخذت تحت تهديد، وفسّر ذهاب المُدعية مع الشابين بغرض الاتفاق معها على الرقص في عرس، لأنهما سيأخذان عمولة من العريس بعد توقيع القعد، لكن تواضع الشقة وشكل الشابيّن الذي لا يوحي بالغنى،

دفعوا المُدعية إلى التفكير في الخوف من اغتصابها، ثم توالت الاحداث التي تختلف تفاصيلها تماماً بين رواية المُدعية والمُدعى عليهما، وطلب التأجيل بسبب وجود ثغرات في التحقيق والاجراءات وعدم وجود الخنجر وهو أداة الجريمة الأولى، واستجاب القاضي لطلب التأجيل لعلمه بمفاوضات تتم مع زاد بعيداً عن الاضواء، للوصول إلى تسوية خارج الدوائر القضائية.

طلبت زاد من ميشال مرافقتها إلى قفص الاتهام لترى المتهميّن عن قرب، لأن قضيتها كانت آخر قضية ينُظر فيها في ذلك اليوم، وتأملت زاد الشابيّن اللذين ظنا اقترابها منهما يعني موافقتها على محاولات التسوية التي تتم، لكن زاد كانت تريد فعلا رؤيتهما عن قرب شديد بعيداً عن ملابسات ما حدث في تلك الليلة، وغادرت قاعة المحكمة لتلحق بأبيها الذي خرج ينتظرها بملامح جامدة وشعور بالأسف والاحراج.

- لاحظتُ أنك منزعجة من وضاعة الشابين في المحكمة. قال ميشال لزاد على الهاتف ليلاً وهما يتحدثان عن الجلسة الأولى.
- هذان الحقيران بهيئتهما المقرفة كانا على وشك اغتصابي. لقد جعلاني على كل لسان مع الأسف يا ميتش.
- معظم القتلة في التاريخ كانوا أقل شأناً من الضحايا، حتى قتلة يوليوس قيصر كانوا أقل شأناً منه.
- وأحياناً صعاليك. سمعت من مسؤول مصري قال أنه عمل في المخابرات الحربية أن الرصاصة التي اخترقت رقبة أنور السادات أطلقها صعلوك، كان أبوه يبيع القواقع في ..... في قرية نسيت اسمها.
- وقاتل الرئيس الأميركي أبراهام لِنكِن كان معتوهاً.
- نعتتني هذان الحقيران بأنني شرموطة. كانا يخاطباني طوال الوقت بهذه الكلمة، وحاولا اغتصابي وذبحي. تماماً مثلما تلقي كيساً بعدما تأكل ما فيه.
- هل أنت واثقة من نية القتل يازاد؟ سألها ميشال.

- لا تصدق أي كلمة قالاها وسيقولاها للقاضي. كانا ينويان ذبحي. أكرر ذبحي وليس قتلي فقط. أنا رأيت ملامح وجهيهما في تلك الليلة، وفهمت نيتهما من تلميحهما لبعضهما، بعدها خدعتهما بالذهاب إلى منزل أحدهما عوضاً عن ممارسة الجنس معي في الڤان.
- لا أعرف ماذا أقول لكِ؟
- هذه عقلية هذا النوع من الشباب. يسرق السارق لأن سرقته حلال، ويغتصب المومس لأن اغتصابها مباح. انفصام في الشخصية.
- لماذا لم تستعملين مسدسكِ في الڤان؟
- يا ميتش.. كان الخنجر في خاصرتي طوال الطريق وحتى صعدت معهما إلى الشقة.
- لقد تذكرت الآن.. أين الخنجر؟ هذه ثغرة مهمة قالها محاميهم وقد تتسبب في خسارتك للقضية.
- أنا ألعب دائماً وأوراقي قريبة للغاية من صدري. حتى المحامي الذي يدافع عني أخفيت عنه هذه الحقيقة. قضيتي حساسة ويمكن حدوث أي أمر من خلف ظهري.
- لم أتوقع مطلقاً وجود مسدس في شنطتك الكبيرة. توقعت أي شيء ما عدا مسدس!
- ستسمع الكثير في الجلسات القادمة، إذا أردت مرافقتي. قال زاد وهي تضحك على تعليقه على مسدسها.
- سأرافقكِ.
- هذه قضية قذرة جداً يا ميتش.
- سأرافقك.

تذكر ميشال أباه بعد نهاية المكالمة، فرغم عدم تعاطف يوسف بالمطلق مع انقلاب يوليو كما كان يسميه، وانزعاجه من ذكرها أو ذكر اسم أحد رؤسائها ما عدا محمد نجيب، شاهد يوسف بملامح غير مُصدّقة لا تشفٍ فيها المقطع التلفزيوني الذي بُث لاغتيال الرئيس السادات في العرض العسكري مساء يوم السادس من أكتوبر سنة 1981.

- في اليوم ده! دي بلطجة مقصود بها مصر مش أنور السادات. دول عَالم بلطجية. قال يوسف.

بعد نجاح دفاع محامي المتهميّن لدى هيئة المحكمة بشأن الثغرات التي قالها عن القضية في الجلسة الأولى، وفشل الجهود العائلية والاتصالات الحزبية المُكثفة التي حدثت خلف الكواليس للوصول إلى تسوية، فاجأ محامي زاد هيئة المحكمة بالخنجر الذي كان لم يزل ملفوفاً في إيشاربها منذ ليلة الحادث، وطلب رفع البصمات عنه للتأكد من مطابقتها لبصمات المتهميّن، ثم طلبت زاد من القاضي الاقتراب منه مع محاميها ومحامي المُدعى عليهما، وعرضت الصورة التي التقتطها لهما في تلك الليلة قبل خروجها عليهم.

- لماذا لم تعرضا هذه الاشياء في الجلسة الاولى؟ سأل محامي المُدعى عليهما زاد ومحاميها.
- أنت تحاول ايجاد ثغرة للدفاع عن المتهميّن، رغم يقينك بما حدث في تلك الليلة. وأنا لدي وقائع وأدلة أحاول الوصول بها للعدل. قالت زاد له.
- ....
- القضية واضحة تماماً أمام هيئة المحكمة، ولا مفاوضات خارجها. قالت زاد بحسم.

رافق ميشال زاد في الجلسات الأربعة أثناء النظر في القضية، وكانا يذهبان معاً في سيارتها بعد وصوله إلى بنايتها واتصاله بها ليخبرها أنه في مرآب السيارات تحت البناية،

ومن ثمة كانت تنزل مع أبيها ويستقلون سيارتها التي كان يقودها ميشال إلى المحكمة، لأن سائقها ومرافقها في الوقت نفسه قدم اسقالته لأسباب شخصية، وكانت زاد في أيام جلسات القضية في حالة توتر لا يسمح لها بالقيادة، علاوة على عبء مواجهة الاعلاميين الذين يقفون أمام المحكمة لسؤالها، ثم كانوا يدخلون معها إلى قاعة الجلسة لمؤازرتها معنوياً.

لم تضع زاد نظارة شمسية كما هي عادة الفنانات في مثل هكذا مواقف، خصوصاً انها كانت في كل الجلسات بدون مكياج. كانت تذهب ببنطلون وجاكيت جينز وحذاء نسائي بكعب عال، وترد على أسئلة الاعلاميين الخاصة بالمحاكمة، بناء على نصيحة محاميها، بقولها لا تعليق على ما قيل في المحكمة، ولا توّقع لأي حكم.

- زاد .. هل تخشين الفضيحة في المجتمع؟ سألتها احدى الصحافيات قبل بداية أول جلسة، حيث سيتم سؤالها علانية مع المتهمين في أمور يصعُب التحدث فيها أمام الناس.
- فضيحة؟! الفضيحة ليست لي بل للجانيين. لماذا الفضيحة من نصيب المرأة دائما؟ هما اللذان حاولا الاعتداء عليَّ. ردت زاد.
- لأنك شخصية معروفة.
- معروفة أو مجهولة. لا فرق. أنا لم أحاول الاعتداء على عرض أحد.
- من هما الشخصان اللذان يرافقاكِ؟
- أبي والاستاذ ميشال مستشاري الفني.

قالت زاد لميشال عدة مرات قبل النطق بالحكم، أنها لا تريد سوى تطبيق العدالة، فما حدث لم يزل يؤلمها للغاية، وتنهض بسببه أحياناً متوترة من نومها وتصبح غير قادرة على النوم مرة أخرى، وأحياناً لا تستطيع النوم من الأساس، وأخبرته عن تعرضها هي وأبيها لضغوط حزبية سياسية ودينية من أجل الوصول إلى تسوية خارج المحكمة قبل الحكم، والنصحية الهاتفية المُبطنة بتهديد لمحاميها بالتنحي عن الترافع في

قضيتها، ومحاولات ايهامها بخسارتها القضية لوجود ثغرات قانونية فيها، لكن أبيها أقنعها بعدم الرهبة من شيء والمضي قدماً في قضيتها، علاوة على اصرارها هي على سماع حكم على صعلوكيّن كانا ينويان ذبحها بعد اغتصابها، والنية كانت واضحة في ما قالاه رغم أقوالهما المُلفقة أمام القاضي، وكانت زاد تنظر إليهما وهما في قفص الاتهام بشكل يعبّر تماماً عما كانت على وشك التعرض له، ورغم ذلك كانت تؤكد لمن يقول لها الوقت حان ليرافقها حارس شخصي مسلّح، أنها لن تغيّر عادتها ولن يرافقها أحد.

حكم القاضي في الجلسة الختامية على المُتهميّن بالسجن سبع سنوات لكل منهما، لأن القضية تحولت إلى قضية رأي عام لبناني وعربي لم يستطع القاضي تجاهلهما، خصوصاً بعد وضوح نية الاغتصاب التي تمت بالتخطيط المُتعمد والخطف والتهديد بالسلاح الأبيض، ولم تحدث فجأة لنزوة جنسية بسبب جمال المُدعية، أما تهديد زاد لهما بالمسدس فقد اعتبره القاضي دفاعاً عن النفس بمسدس مرّخص، مع الأخذ بعين الاعتبار أنها لم تطلق رصاصة واحدة رغم الخوف الشديد الذي أصابها.

بوغت ميشال قبل لحظات من نطق الحكم بيد زاد اليسرى الباردة تماماً وهي تمسك بكفه الأيمن بكل قوة وبدون وعي، وكأنها تمنع نفسها من الوقوف وقول شيء ما بأعلى صوتها، لكن أصابعها تراخت بعد سماع الحكم ولم تستطع الوقوف لتصافح محاميها الذي تحرك من مكانه وذهب ليهنأها، ثم بدأ الاعلاميون يقتربون منها لتهنئتها، ورافقوها بعدما استطاعت الوقوف على قدميها إلى خارج قصر العدل، وهي تسير بإرهاق واضح بجوار أبيها وميشال.

- أنا آسفة.. لا أستطيع قول أي تعليق الآن سوى أنا مرهقة للغاية، وأعدكم بعد فترة راحة بمقابلات أجيب فيها على كل أسئلتكم. قالت زاد للإعلاميين على درج قصر العدل وفلاشات الكاميرات تومض أمامها.
- على الأقل.. نريد تعليقاً واحداً على الحكم. قال لها أحدهم.
- أنا مرتاحة للحكم. ردت زاد.

- ميتش.. هل تقبل دعوتي لنفسي مع ندى إلى شقتك الليلة؟ سألت زاد ميشال هامسة قبل الوصول إلى سيارتها.
- أكيد. لن أغادر منزلي.
- ميتش لا تشتري أي طعام سأجلب كل شيء معي.

دعت زاد نفسها إلى شقة ميشال مع ندى، التي وجدت عملاً بعد تخرجها في بيروت، وطلبت زاد منها استمرار الاقامة معها حتى تستطيع تحمل أعباء الحياة بمفردها، لأنها كانت تشعر في قرارة نفسها بأنها لن تستطيع النوم في هذه الليلة، وتريد الحديث مع مَنْ تأتنس بهما لتسترخي من توتر الاسابيع الماضية.

كانت زاد تريد فعلا البكاء منذ محاولة اغتصابها، لكنها لم تستطع. وكانت تشعر أحياناً بألم في صدرها و تشعر ببوادر أزمة قلبية ستصيبها، وحاولت تجربة الاشفاق على نفسها بعد كل جلسة لتجلب الدموع إلى عينيها ولم تستطع، وجربت طرقاً كثيرة منها تذكر أمواتها، وسخريتها من كونها راقصة بكر حاول حقيران اغتصابها، وكانت النتيجة نفسها، فقررت التسامر بعد النطق بالحكم مع ميشال لعل حديثهما يخفف عنها، وعلى غير عادتها عند شرب الكحوليات لم تضع ملعقة خمر أو عرق في كأس تملأه بالماء، وتشرب منه ولا تزيد عليه طوال السهرة، بل صبت كأس خمر كاملة، وراحت تدردش هي وندى مع ميشال وهم على سجادة غرفة الجلوس في جلسة شرقية.

لم يدر ميشال وهم يتسامرون لماذا جذب انتباهه لون بشرة زاد الوردية وجمال شعرها، رغم أنها كانت قد لفتّه كضفيرة صغيرة فوق رأسها لكي لا يعيق حركتها، ولم يستطع تفسير وهمه أو شعوره بأنه فجأة وقع بكامله في عينيها وهي تتحدث.

شعور غامض مُخدِّر نحوها تملّكه وكأنه يراها لأول مرة في حياته، وسيطرت عليه جاذبية نحوها لا تُقاوم، لكنه ازاح هذه الاحاسيس التي حدثت في ومضة يصعُب قياسها بالوقت، وعاد للحديث بعد صمت معها ومع ندى حتى لا يتورط أكثر في تيار هذه الومضة، التي ربما تقوده لشيء آخر يجعله يتوهم احساساً غير موجود سوى في قلبه،

وقبل انتهاء الكأس التي أمامها، قالت زاد لهما إنها ترقص لكل الناس، لكنها لم ترقص لهما كصديقيّن حميمين لها.

- هل سترقصين بالبيجاما ونحن ممددون على سجادة؟ سألتها ندى وهي تبتسم.
- وما المانع؟ أنتما أول وآخر من يراني أرقص ببيجاما.

رحب ميشال وندى باقتراح زاد، لكنه أستمهلها بضع دقائق ليختار مقطوعة موسيقية تناسب سهرتهم الخالدة كما وصفها، وذهب إلى رفوف مكتبته وعاد بشريط تسجيل وأخذ يبحث عن مقطوعة بعدما وضع سماعة على أذنيه، وطلب من زاد الاستعداد عندما وجدها، فنهضت زاد وهي لا تشك ولو لجزء من الثانية في اختياره لمقطوعة تبدأها بحركتها الصوفية، فرفعت يدها اليمنى أعلى من اليسرى، وفتحت زراعيها وأنصتت للموسيقى، لكنها لم تتحرك لمدة ثوان، ثم بدأت حركتها الصوفية ودموعها على خدها، وظلت على منوالها الصوفي نفسه، تتحرك فوق السجادة فقط وفي مساحة ضيقة جداً، وبعد نهاية المقطوعة تسمّرت فوق منتصف السجادة، وطلبت من ميشال بإشارة من يدها وعينيها مغمضتين إعادة المقطوعة مرة ثانية.

كان واضحاً لميشال وندى أن زاد في حالة نفسانية داخلية وكأنها شبه غائبة عما حولها.

- لا تفقدي لحظة انسامجكِ الداخلي يازاد.

قال ميشال لها ثم أعاد المقطوعة الموسيقية، ورقصت زاد في المرة الثانية بطريقتها الشرقية، ووقفت ندى في نهاية الرقصة وقبلّت زاد على خديها بحرارة، أمّا ميشال فقد قبّل يديها لأول مرة.

- ما اسم هذه المقطوعة الرقيقة يا ميتش؟ سألته زاد بعدما جلست وهي تمسح دموعها بمنديل ورقي، ومدّت رجليها على السجادة.
- "نانا" من مؤلفات عبد الوهاب. قال ميشال.

- سأرقص على أنغامها أمام الجمهور. هل يمكن يا ميتش إعادة توزيعها بحيث تجعلها أطول.
- ممكن. قال ميشال وهو يشعر بإيقاع موجات صوت زاد الأنثوي يتسلل ويسيطر على شبكة أعصابه.
- قل لي متى ستكون جاهزاً لأستأجر ستوديو لتسجيل المقطوعة.
- سأفعل لكن لا أعرف متى سأنتهي من ذلك.
- يبدو أنك تريد قول شيء يا ميتش.. قالت زاد بعد صمت.
- هناك سؤال عندي لم أجد وقتاً له سوى اليوم، لماذا ذكرتِ اغتيال الرئيس السادات في حديثنا الهاتفي؟
- لأنني وُلدت في هذا اليوم والسنة نفسها، وتقريباً في وقت اغتياله. قالت زاد.
- مصادفة غريبة. قال ميشال.
- ولن أنساها، لأن أمي بعد ظهر ذلك اليوم سمعت بعض الفلسطينيين الذين يسكنون بالقرب من المستشفى، يطلقون الرصاص من رشاشاتهم بطريقة تعبّر عن الابتهاج، وعندما سألت أبي عن السبب أخبرها بما حدث. متى عيد ميلادك يا ميتش؟
- عشرون حزيران سنة 1964.
- لم تقل لي حتى اليوم ما الموضوع الرئيسي الذي تكتب فيه على مدونتك؟ سألته زاد.
- جذور الاساطير المشرقية في الاديان الابراهيمية.
- حسب قراءاتك يا ميتش.. هل هناك حقيقةً جذور أساطير مشرقية في الاديان الابراهيمية؟ سألته ندى بفضول شديد.
- أكيد. لا شيء يأتي من فراغ. بل أن المسيحية والاسلام نفسهما كانا فرعيّن في بدايتهما لليهودية ثم انفصلا.

- لكن... قاطعته ندى.
- يا ندى أعلم ما ستقوليه. أنا لا شأن لي بما يؤمن الناس إنه موحى به. النصوص والوقائع ومدونات التاريخ يقولون شيئاً مختلفاً تماماً.
- هل الوحي يتطابق مع الاساطير لهذه الدرجة؟ سألت زاد.
- واقتبس منها كما هو واضح. لكن ما أعرفه هو أنكِ غير مؤمنة. هل هذا صحيح؟
- نعم، وأنا أسأل ما سيسألك الناس عنه.
- بل سألوا، وبعضهم اتهمني بالتلفيق والكذب أو الزندقة. لكنكِ لم تقولي لي سبب عدم إيمانكِ. قال ميشال لزاد.
- جدي أثّر فيَّ كثيراً. كان ملحداً وسمعته يقول مرة أنه سأل خوري الضيعة إذا كان أليعازر روى أو كتب ما رآه بعد قيامته، فرد الخوري بالنفي.
- هل كان جدكِ قارئا؟
- الأهم بكثير من أميته أو عدمها أنه فجّر قنبلة فكرية يزيد دويها في رأسي مع تقدمي في العمر. أنت تعلم أنني أقرأ كثيراً.
- كيف؟
- سؤال جدي فعلا يستحق التأمل. إذا كان بعض رسل المسيح كتبوا رسائل ذكروا فيها ما سمعوه من مُعلمهم، أو كتبوا بعض تفاصيل حياته، ألم يكن أولى بأليعازر، وكان أسقف قبرص، أن يكتب أخطر شهادة في التاريخ عن الخلود للناس؟ قالت زاد.
- رأي وجيه فعلا ولم يخطر ببالي مطلقاً. قال ميشال.
- هل هناك وجود جذور لهذه الاساطير في المسيحية؟ سألته زاد.
- أكيد.. لماذا تسألين هذا السؤال؟
- هل تعتقد الكتابة عنها يمكن ...

- فهمت ما تودين السؤال عنه... بعض أصدقائي القساوسة يقولون لي كل هذه الامور مجرد روابط وهمية أو مفبركة من مؤرخين، صمد الانجيل أمامها بعد عملية النقد الأعلى له في عصر النهضة.
- لكن.. قاطعته زاد.
- ثم إنني لا أكتب رأيي الخاص بل ما ورد في مراجع موثوق بها لا يطلع عليها الناس عادة، لكن وسائل المعرفة الحديثة جعلت المعرفة متاحة للجميع.
- لا أعرف ماذا أقول لك.
- بالمناسبة. كنت في حالة روحية واضحة وأنت ترقصين. كيف تفسريها وأنت غير مؤمنة؟ سألتها ندى.
- قد تكون الاجابة بعد الكأس الثانية على هكذا سؤال مجرد ترف فكري، ومع ذلك، هذه الحالة مجرد طاقة في الانسان. الصاروخ عندما ينطلق يكون في أقصى طاقته ولا نقول روحانيته.
- ماذا تعنين؟ لا فرق بيننا وبين الصواريخ؟! سألتها ندى.
- وجود الطاقة موجود فينا وفي أي شيء آخر. لا وجود منفصلا للطاقة.
- هل أعاد المسيح الطاقة لأليعازر؟ سألها ميشال.
- هذا هو السؤال الوجيه الثاني هذه الليلة. قالت زاد.

عادت زاد من رحلة فنية إلى الامارات ولم يتصل ميشال بها كعادته، فبادرت بالاتصال به وشعرت خلال حديثهما بأمر غير طبيعي، لأن ميشال لم يكن منطلقاً في حديثه معها كما هي عادته، كما أحسّت بأنه يستغرق وقتاً أطول ليرد على أي سؤال منها، وبعدما طلبت منه تفسيراً لما تشعر به أثناء حديثهما، أخبرها بعدم تجديد عقده السنوي في المدرسة التي يعمل فيها، وأنه يبحث عن وظيفة في مدارس أخرى.

لم يكن استغناء المدرسة عن خدمات ميشال فقط سبب ابتعاده عن زاد، لأنه قرر بعد "السهرة الخالدة" حصر علاقته بها على التعاون معها في العمل فقط إذا طلبت

منه ذلك، وإذا لم تطلب لن يقترب أكثر منها، مع الحفاظ على صداقتهما مهما حدث، فالتغيّر الصاعق في إحساسه بها جعله في حيرة تامة، ووطأة تأثير تفاصيل جسدها وعينيها وأنوثتها وصوتها عليه كانت أمورا واضحة لم يستطع تجاوزها، وعزا الامر إلى الاقتراب الشديد بينهما، تماماً مثلما يوّلد التعامل اليومي الحب بين أستاذ وتلميذته في المرحلة الثانوية، وبدأ يذّكر نفسه بعلاقته بزوجها المتوفي، والفلاشات الضوئية التي رآها بعد وفاته، وفارق العمر بينهما الذي يصل إلى ست عشرة سنة.

لم يتوقع ميشال مطلقاً وقوعه ضحية المادة 29 من قانون المعلمين في القطاع الخاص اللبناني الذي وُضع سنة 1956 بدعم من المراجع الدينية المختلفة المتحالفة والسياسيين كافة في لبنان، وتعطي هذه المادة الحق المُطلق لأي مدير مدرسة صرف أي "مُعلّم أجير" من الخدمة مهما بلغت عدد سنوات عمله، وقد يحصل المُعلّم على تعويض يؤخذ أغلب الاحيان بعد التقاضي أمام المحاكم، وليس من المدرسة مباشرة.

- عملتُ في هذه المدرسة بعد تخرجي مباشرة، ولا أعمل في غيرها، ومن حقي معرفة سبب صرفي يا محترم. قال ميشال للكاهن مدير المدرسة.
- نحن نتعامل مع النشء وتصرفاتنا خارج المدرسة تؤثر علينا وعليهم كما في داخلها.
- ماذا تقصد تماماً؟
- أنت تعلم ماذا أقصد.
- يا محترم. تربطني بمعظم الكهنة هنا وفي البطريركية صداقات عميقة.
- لذلك كان القرار صعباً.
- وما أسبابه؟
- أنت تعرف.

- هل أبحاثي وذهابي مع زاد للمحكمة لها علاقة بصرفي؟
- أتمنى لك التوفيق يا أستاذ ميشال، وكن على ثقة من أننا سنوصي بك خيراً لأي مؤسسة تعليمية تستفسر عنك لتوظيفك.

لم يكن البحث عن عمل آخر سهلاً على ميشال، فقد أمضى في المدرسة حوالي عشرين سنة وأصبحت جزءاً من شخصيته، وعادة سلوكية يومية قد يصعُب التخلص منها سريعاً، فقد بدأ فيها في عشرينات عمره وهو الآن في أربعيناته، لكن الامر المثير فعلاً كان تهنئة زاد له بتخرجه في المدرسة، فالمُعلم حسب ما ترى يظل مُعلماً، بينما تلاميذه يتخرجون ويترقون في الحياة ويتنقلون من عمل لآخر، وعصر العمل الواحد الذي لا يتغيّر حتى التقاعد انتهى، وأخبرته عن أخيها الذي يعمل في إدارة المستشفيات في أميركا، باتجاه بعض الاطباء إلى العمل في صناعة تطوير الاجهزة داخل غرف العمليات أو التأليف، بل بدأ واحد منهم العمل في شراء السيارات الاميركية المصنّعة في النصف الاول من القرن العشرين، وبيعها لأغنياء في أوروبا يحبون اقتناء هذا النوع، علاوة على أخيها نفسه الذي يملك محلاً لبيع التماثيل والاثار المُقلدة والتحف والهدايا الشرقية في أفخر فنادق لاس فيغاس، إلى جانب عمله في إدارة المستشفيات.

- يمكنك العمل في المهنة نفسها في أي محطة تلفزيون. قالت زاد لميشال.
- تقصدين مكتبات وأرشيف الأشرطة.
- نعم. ويمكنني الاتصال بعدة محطات تلفزيونية بهذا الشأن، لكن الأفضل احتراف ما تعرفه يا ميتش.
- أنا أعرف التصوير والعزف أيضا، فما الذي تقصدينه فعلا؟
- سألت بعد آخر سهرة في منزلك أناسا كثيرين، فقالوا لي أكثر الكتب والروايات مبيعاً هي التي تتناول الموضوع الذي تخصصت فيه عن غير قصد.. الجدل حول أصول الاديان والعقائد والالحاد. بالمناسبة كم عدد زوار مدونتك؟

- أكثر من ثلاثمائة وخمسين ألفا.
- هل تمزح يا ميتش؟
- لا.
- إذن Think big كما يقولون في أميركا، فأنت قادر تماماً على خوض هذه اللعبة بشكل أعظم.
- كيف؟
- عن طريق حصولك على شهادة دكتوراه للوجاهة ثم...
- يا زاد هذا الامر وحده سيستغرق ثلاث سنوات.
- أنت تعرف أكثر بكثير من حملة هذا اللقب الذين نقلوا من بضعة كتب وكتبوا رسائلهم، أنت قرأت رفوفاً من الكتب ولا ضير مطلقاً من شراء هذه الدرجة العلمية، لأنك لست جاهلا في تخصصها.
- مزورة؟
- حقيقية من جامعة. أعرف شخصاً على صلة بموظف في جامعة مرموقة، يمكنه عمل شهادة لك حقيقية وموّقعة من العميد نفسه.
- هل تتكلمين جدياً؟
- أنا في منتهى الجدية. هل تعتقد أن كل حملة الدكتوراه حصلوا على هذه الدرجة العلمية؟
- ولماذا هذه الشهادة؟
- فرنسيتك ممتازة، وهذه الشهادة ستؤهلك لزيارة كندا أو فرنسا لإلقاء محاضرات عن جذور الاساطير المشرقية في الأديان الإبراهيمية. سيعقبها

لقاءات.. ندوات.. موضوع مطلوب في ظل تنامي الإثنيات والأصوليات هناك، خصوصاً الجماعات الاسلامية الراديكالية. هذه هي أجواء القرن الواحد والعشرين.

- لكن أنا لا أعرف أحدا في كندا أو فرنسا. أعني في الجامعات.
- دعنا نتدبر أمر الدرجة العلمية أولاً ثم نبدأ الاتصالات بجامعات مونتريال أو مونبيليه وغيرها.
- هكذا!
- هكذا. Think big يا ميتش.
- يخرب بيتك يا زاد. أنت داهية فعلا.
- بوس إيدي على هالفكرة. قالت زاد وهي تضحك.

لم تتوقع زاد أن يفعل ميشال ما طلبته منه، لكنه أمسك يدها وطبع قبلة على راحتها وهو يشعر بشذا رائحة جسدها تتسلل من أنفه إلى كل ذاته، في مكان سحيق لا يستطيع الوصول إليه، وتمنى من كل قلبه توقف الزمن، لأنه لن يستطيع العودة به ليكون في مثل عمرها.

لم يدرِ ميشال لماذا تمنّى هذه الامنية من كل قلبه، بعدما قرر منذ أسابيع الحرص على صداقتها، والحفاظ على مسافة بينهما تمنعه من حماقة سلوكية تفقده أهم صديقة في حياته، لكن عفوية شعور الوقوع في عينيها، والغموض العذب الذي يأتي من عمق نفسه، وهو يتأمل ملامح وجهها وتفاصيل جسدها ولون بشرتها وعينيها، كانت أقوى بكثير من ارادته.

الفصل العاشر

كان ميشال وزاد يدركان تماماً أن ما تحدثا فيه عن مشروعه المستقبلي سيستغرق وقتاً، لذلك وافق على أول وظيفة بدوام جزئي في أرشيف محطة تلفزيونية، ووظيفة ثانية بدوام جزئي كمصوّر للأخبار في محطة تلفزيونية أخرى، وعرضت زاد مساهمتها بجزء من ثمن شراء درجته العلمية ولم يوافق، وبرر الامر بمدخراته الكثيرة لأنه أعزب بدون التزامات مالية كبيرة، علاوة على مجانية الشقة التي يعيش فيها، وهي ملك زوج خالته الذي لا يريد منه سوى البقاء فيها حتى لا يحتلها أحدهم، ويعيش فيها للأبد بمساعدة قوى الامر الواقع في لبنان.

استغرقت أولي خطوات بناء علاقة علمية مع أحد مراكز البحث في مونتريال شهوراً بدت كأنها لن تنتهي، وكاد اليأس يصيب ميشال قبل تسلمه مباشرة دعوة أستاذ زائر لمونتريال وإلقاء عدة محاضرات في تخصصه، وكان سببها عمق الابحاث المنشورة على مدونته باللغتين العربية والفرنسية، وعدد زواره والحوارات الرصينة مع بعضهم، وليس سنوات عمله الجامعية المُلفقة التي حصل عليها بالنقود أيضا مع الدرجة العلمية، وقد انتهت محاضراته بحوارات مع النخبة، خصوصاً عن صور المخطوطات التي جلبها معه، وأدهشه فعلا معرفة مواطني هذا البلد البعيد بأصول ثقافات الشرق الاوسط أكثر من أبنائه، لأن الاسئلة كانت عميقة ولم تكن مجرد استفسارات عما قاله.

رغم هذه الصورة الكندية العامة، كان أعمق محاوريه أستاذ الدراسات السياسية رمزي حشّاد، وهو كندي من أصول تونسية، وفي عدة لقاءات جمعتهما خارج قاعات العلم، عرف ميشال أن الدكتور حشّاد تخصص لسنوات طويلة في الاسلام السياسي، ويؤمن بالفرق بين الجماعة الدينية والدولة، وبوجود فرق بين الجماعة والمجتمع، وأن الجماعات الاسلامية الراديكالية أكبر المستفيدين من ديموقراطيات المجتمع الكندي

والغرب عموماً، كما أدركا أنهما يمكنهما التعاون رغم اختلاف مجاليهما، وقدّر كل منهما معرفة الآخر تماماً.

- على فكرة، الدولة هنا تتعامل مع التهديدات التي يتلقاها المفكرون والمدونون بكل جدية.
- ماذا تعني يا دكتور رمزي؟ سأله ميشال وهما يتمشيان في حديقة الجامعة.
- أعني التهديدات التي تتلقاها على منتداك أو الرسائل النصيّة التي تتلقاها على هاتفك الخلوي. يمكنك بواسطتها الحصول على الجنسية الكندية. لجوء سياسي.
- لم أفكر في هذا الامر مطلقاً، فقد يكون مصدرها هواة الشهرة على حساب غيرهم، أو مجرد شباب مهووسين دينياً.
- فكّر في الامر جدياً. أنا غير مقتنع بتفسيرك تماماً. صحيح أن لبنان منفتح، لكن التهديد أون لاين يجب النظر إليه بجدية، ولا تظن أن المتشددين في أي بلد لا علاقة لهم بمن في لبنان. كلهم ينتمون لشبكة واحدة رغم تكفيرهم لبعضهم بعضاً أحياناً.
- لم أفكر في التهديد بشكل جدّي.
- فكّر وقدِّم طلب لجوء سياسي.. لن تخسر شيئا. هل يسمح وقتك بالحضور مرات أخرى كأستاذ زائر هنا؟
- أتمنى ذلك فعلا.. وقد يكون تمهيداً للعمل بشكل دائم. من يعرف؟
- سأسعى لك في الامر.
- مع أنني من أصول عائلة عرفت معنى الهجرة أكثر من مرة، إلاّ أنني بدأت أفكر في ما قلته بشكل جدّي، بسبب خيبة أملي في أمور كثيرة. قال ميشال.

رغم أن رمزي حشّاد لم يشر من قريب أو بعيد بأمر الاضطرابات الداخلية والتذمر الاجتماعي في تونس، إلا أنه بعد شهرين من حديثهما اندلعت ثورة شعبية تونسية

عقب حرق طارق البوعزيزي، أحد الباعة المتجولين نفسه، بعدما صادرت شرطية عربة كان يرتزق عليها من بيع الفاكهة، وقالت له بعدما صفعته على الملأ: إرحل، وكانت الحادثة سبب انتفاضة شعبية تحركت بشعار "إرحل" للرئيس التونسي.

وبعد هذه الانتفاضة بأقل من شهر سافر ميشال مع بعثة تلفزيونية ليغطوا من ميدان التحرير في القاهرة الحِراك الشعبي الذي اندلع احتجاجاً على أوضاع معيشية واقتصادية وسياسية سيئة، وأدت هذه الحراكات إلى تخلّي الرئيس حسني مبارك عن الحكم.

كان ميشال في إحدى الشقق المطلة على ميدان التحرير بالقاهرة مع فريق العمل، بينما ذهنه يشرد أحياناً باتجاه المنشية الصغرى بالاسكندرية، وفكّر بالسفر عدة مرات ليقف حتى لدقائق أمام المحل الذي عمل أبوه فيه، ويرى البناية التي توفت أمه فيها، لكن خطورة التحرك في تلك الأيام، ونصائح فريق العمل له بعدم المغامرة، ورؤية مئات الألوف من الثائرين في الميدان، منعته من السفر حتى ليوم واحد إلى الاسكندرية.

بعد عودة ميشال إلى بيروت عقب تخلي الرئيس مبارك عن الحكم، تلقى اتصالا هاتفياً يسأله فيه الدكتور رمزي عن امكانية حضوره لعشرة أيام في أيار القادم كأستاذ زائر لكن في جامعة أوتاوا، وأكّد ميشال له على حضوره في هذا الوقت، وعندما أخبره ميشال عن عدم تقديمه لطلب لجوء سياسي لكندا لضيق وقته وانشغاله بأعماله، نصحه رمزي بحفظ كل التهديدات التي وصلته لتقديمها بواسطة محامي في مونتريال في أيار، فمثل هذه الاجراءات تأخذ وقتاً، لأن تهديداته لم تصل للإعلام ولم تصبح قضية رأي عام.

- أريد سؤالك عما حدث في تونس فأنت أدرى بها مني. قال ميشال لرمزي.
- ما حدث في تونس ومصر سيمتد إلى بقية دول الشرق الاوسط. أنا أعتقد بسبب آخر غير الفساد والبطالة والاوضاع المعيشية. هذه قشور المشكلة.
- ما هي جذورها؟

- تغيير العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكومين. لكن هذه الحقيقة لا يقولها أحد علانية، فالخروج على الحاكم قد يجوز لو أيده الفقهاء، لكن تغيير القعد الاجتماعي صعب جداً عند المسلمين. هذا مربط الفرس كما أرى.
- هل تعتقد بوجود تدخلات أجنبية؟ سأله ميشال.
- أمر مؤكد، لكن الدول العربية أساساً غير مستقرة. لا رغبة في التعايش مع أطياف المجتمع كافة، ومع جيرانها، ومع العالم. الشعوب بدون وعي تبحث عن عقد اجتماعي آخر يؤهلها للتعايش، وهذا العقد يستحيل وجوده بواسطة رجال الاديان أو العسكريين.

كانت الاتصالات الهاتفية بين ميشال وزاد تتم عند الضرورة، كما كان لقاؤهما يتم لتنفيذ أمر إتفقا عليه أثناء الاتصالات، لكن الامر بدأ يختلف في الفترة الاخيرة، فزاد بدأت تلاحق تصرفاته، وتستفسر دائما عن الخطوة التالية التي سيفعلها، وكانت تحثه على الاتصال بها لو لم تفعل لمدة يومين أوثلاثة على أقصى تقدير، كما كان الأيميل وسيلة التواصل بينهما أثناء سفره إلى مونتريال، لأنه أكثر خصوصية من وسائل التواصل الاجتماعي الأخرى. كان ميشال مقتنعاً بعدم تورطه في أي سلوك يجعلها تتحفظ تجاهه، لكنه بدأ يسأل نفسه إذا كانت زاد اختارت العزوبية للأبد، فكل تصرفاتها كانت تؤكد راحتها لحياتها كما هي، وكان في قرارة نفسه سعيداً بقرارها.

أخبر ميشال زاد وهما جالسان في مكتبها الصغير عن رحلته القادمة إلى أوتاوا، وكانت تجلس معقودة الساقين أمامه وليس وراء مكتبها كعادتها مع الآخرين، وطلبت من مديرة أعمالها عدم تحويل أي مكالمة غير مهمة لها، أو لا تستطيع اتخاذ قرار فيها، وبدت سعادتها بالغة لإمساكه أخيراً بخيط قد يكون فيه مستقبله الدائم، واستفسرت بابتسامة مستمرة عن عمله في محطتي التلفزيون ورواد مدونته، ومدى جديته في تقديم طلب لجوء سياسي إلى كندا كما أخبرها.

- أنا جدّي فعلا في طلب اللجوء السياسي. لقد فتح رمزي حشّاد مدى الرؤية أمامي. أفقٌ لم أستطع رؤيته طوال عقديّن.
- باشر اليوم قبل غداً وقبل تعقّد الامور أكثر، فأنا حصلت على الجنسية الاميركية بطريقة يستحيل الحصول عليها اليوم.
- سأفعل في رحلتي القادمة.
- أخشى خسارتك يوماً يا ميتش. صداقتنا نادرة فعلا، وكانت ذات نفع لي دائماً.
- ....
- لكن تواصلنا سيستمر، أليس كذلك؟ قالت زاد بصوت منخفض بعد دقيقة صمت.
- وأنا أخشى هذا الأمر أكثر منك! قال ميشال بمستوى صوتها نفسه.
- لماذا؟ سألته زاد وقد اتسع بؤبؤ عينيها داكنتي الخضرة.
- لأنني تعودت كونكِ جزءاً من وجودي. أنتِ لستِ مجرد انسانة عادية أو مهمة في حياتي.
- ميتش.. ماذا حدث لك في آخر مرة كنتُ مع ندى عندك في المنزل؟ سألته زاد لتقطع شكوكها بيقين.
- هل شعرتِ به؟
- أكيد يا ميتش.. أهتز جسدك بشكل عفوي، كأنك خرجت فجأة من مكان دافىء لممر هوائي.
- حدث أمر لم أشعر به مطلقاً طوال معرفتنا هذه السنوات.
- ماذا حدث؟ رأيتني خلف الكواليس ببدلة الرقص، ورأيتني أرقص، ورأيتني بالبيجاما في شقتك، واقتربت مني كثيراً لتشم عطر وتقول لي رأيك فيه قبل شرائه، ورأيتني بكامل أناقتي، وجلست معي عشرات المرات في أماكن عامة، وصوّرتني على انفراد. ماذا حدث لك في تلك الليلة؟

- كأنني وقعتُ في عينيك. هذا أفضل ما عندي من وصف لما حدث.
- لم يحدث هذا الامر لك من قبل؟!
- ولا مرة.
- ولا مرة؟!
- مطلقاً.
- ألم تقع في عيني امرأة مِن قبل؟
- وقعت في غرامها وليس في عينيها. لم يحدث.
- هل يعني ذلك عدم امكانية زيارتك مع ندى مرة أخرى؟
- يمكنكِ مع المسدس الموجود دائماً في شنطتكِ. قال ميشال وهو يبتسم.
- وإذا لم يكن معي؟ سألته زاد.
- يمكنكِ لأنني لا أستطيع تجاوز الوقوع في عينيكِ لأمر آخر.
- لماذا؟
- لأسباب كثيرة.

كان الانطباع الاول الذي لم تزل زاد تذكره حين رأت ميشال لأول مرة ، وقبل التوّجه مع زوجها المتوفي ومعه إلى المأذون، هو أن هذا الرجل سيلعب دوراً ما في حياتها، ورغم أحداث هذا اليوم كانت قادرة على رؤية كل شيء بوضوح، لأنها كانت مدركة أنها حبيبة تقف بجانب حبيبها في شهوره الاخيرة، وخيالها لا يذهب إلى تفكير أي عروس في هذه الليلة.

وأثناء العشاء الاحتفالي البسيط بزواجهما في شقة ميشال، لم تزل زاد تذكر انطباعها الثاني وهو شعورها بتجسيد ميشال لثقافة أخرى، وعللت الامر بعد ذلك بسفره السنوي إلى فرنسا كل صيف وتأثره بالثقافة الفرنسية، فالطريقة التي يأكل ويمسح فمه بها ليست لبنانية، وكذلك ملابسه وأثاث بيته، وظلت هذه الثقافة غير واضحة لها، حتى أخبرها ميشال قصة عائلته وجذورها.

كانت زاد تحبه بكل معنى الكلمة، لكن محبتها لم تكن فيها أي ميول جنسية، أو نوازع امتلاك، وكان كل ما يفعله معها يثبت حبه أيضا، فطالما عرف أسرارها ولم يبح بأي منها، كما عمل معها أحياناً ورفض الأجر، ونصحها باخلاص وغامر بالظهور معها علانية في المحكمة ليؤازرها معنوياً، وكان حضوره أحد أسباب عدم تجديد عقده مع المدرسة التي يعمل فيها، لكن كل تفاصيل هذه العلاقة اهتزت بشدة في اللحظة التي شعرت زاد فيها بارتباك ميشال كرجل أمام أنوثتها أثناء "السهرة الخالدة". لم تنتزع زاد من مشاعره، لكنها شعرت أن علاقتهما عبرت جسراً يستحيل الرجوع إلى ما كانت عليه قبل عبوره، خصوصاً بعدما لخص ما حدث له بعبارة مختصرة للغاية ولم تسمعها من قبل هي وقوعه في عينيها.

- وقع في عينيَّ!

قالتها زاد عدة مرات بصوت مسموع لنفسها بعدما غادر ميشال مكتبها، وكان احساسها بهذه الكلمة لا يوصف، وتوقيتها كان من أكثر الامور غرابة في حياتها، التي كانت تبدو لها أحياناً وكأنها ألبوم من اللامعقول استهدفتها الظروف به بعناية وصبر، ولم تدر زاد كيف تفكر أو تحلل، لكنها قررت عدم فقدان ميشال في زحام حياتها وعزلة شهرتها، لأن تحفّظه في علاقته بها بعد "السهرة الخالدة" كان بالنسبة لها ترجمة لخوفه من مصارحتها، ووصوله بينه وبين نفسه لنقطة لاعودة في علاقتهما، يخشى معها فقدانها لو باح لها.

لم تتوقع زاد ولم يبح ميشال لها بالأضواء الغامضة التي ظهرت في مطبخ بيته لحظة وفاة زوجها الأول، وكانت سبب حياديته كرجل معها ومنعته من التفكير بمفاتنها، وكأنها تابوه يستحيل لمسه، علاوة على فارق العمر بينهما واختلاف الدين. ولم يدر ميشال حقيقة لماذا انزاحت هذه الاضواء الموجودة في لاوعيه فجأة في تلك "السهرة الخالدة" وأتاحت لزاد التجلي في أعماقه لدرجة احساسه بالوقوع في عينيها، بل

وتلاشي كل ما حولها وهو ينظر إليها، واستمرت هذه العادة العقلية بظهورها هي فقط في مجال بصره كلما رآها.

المؤكد أن سنوات عمر ميشال التي تخطت الأربعين أرغمته على التصرف كنهر يسير في منتصف المسافة بين منبعه ومصبه، وهكذا انسابت عاطفته في أعماقه حيوية لكن في تؤدة، وقوية لكن في هدوء تيارات مياه النهر في هذا المكان، وقد حاول فعلا التحكم في مجرى نهره لكي لا يفيض خارج الحوض الذي يسير فيه، حتى بعد مصارحتها بما حدث لمشاعره.

- هل ستظل كطفل يخشى العقاب كلما تحدثت معي؟ سألته زاد بعد عودته من أوتاوا.
- أنا لا أخشى أي عقاب. قال لها.
- إنك تحاول تجنبي. لا تتصل هاتفياً، وتنتظر مبادرتي بالاتصال. هل هذا صحيح؟
- أنا أحاول فقط أن أكون الصديق وقت الحاجة.
- هل تخاف من الحب يا ميتش؟
- أخاف من حبكِ.
- لكنك تحبني فعلا.
- الأصح هو أنني أخاف أي تأثير على صفاء صداقتنا.
- تقصد هذا الحب.
- نعم.
- ما الذي يزعجك فعلا يا ميتش؟ أنا امرأة جميلة.
- بل أنتِ ملكة جمال الكون لكل العصور.

- ستجعلني مغرورة بهذه الطريقة.
- لا أظن أنك مغرورة أو لئيمة. هذا الامر هو الذي يتوجكِ ملكة جمال دائماً، وليس فقط في شبابكِ.
- ميتش.. تصرف معي بشكل طبيعي جداً.. أنا غير منزعجة اطلاقاً مما قلته . دعنا نرى حقيقة ما سيحدث بعد هذه النقلة غير المتوقعة. أنا بحاجة فعلا إليك كإنسان أثق فيه، وبهذه الطريقة الصبيانية التي بدأت تتعامل بها، لن نفهم حقيقة ما حدث معنا وسأفقدك حتى كصديق!
- حدث معنا؟ لماذا قالت معنا؟ ولماذا لم أسألها مباشرة؟ سأل ميشال نفسه وهو يكاد لا يشعر بما حوله بعد زيارته لزاد في مكتبها.

ذهبت زاد إلى بيت أهلها في صور في إسبوع اعتكاف وراحة بعيداً عن العمل كما قالت لمديرة أعمالها، لتستعد لإسبوع حافل بالعمل ما بين عيدي الميلاد ورأس السنة، فقد كانت تعتبر هذا المكان جذور أي شيء يحدث في حياتها، وتطمئن عند العودة إليه لتسمع في عقلها ما سمعته فيه طوال طفولتها ومراهقتها، وتتأمل خصوصاً العبارات التي كانت تخرج من فم جدها كطلقات رصاص أو كبلسم، وكانت طلقاته أكثر فائدة أحياناً لحياتها من بلاسمه. وكان ذهابها وسيرها على رمال شاطىء صور بشنطتها الكبيرة إياها طبيعياً لتفكيرها بوضوح أعمق.

كانت زاد مدركة تماماً لبدء قلة عدد الاتصالات التي تطلبها للرقص، وكان طالبوها من علية القوم الذين يقدرون فنها ولا يريدون راقصة تهز خصرها فقط، علاوة على الاماكن الراقية والمهرجانات التي كانت تطلبها، فقد زاد عدد الراقصات الأصغر عمراً منها بشكل كبير، ورغم لياقتها العالية بعدما تخطت الثلاثين، فقد اعتبرت العمر عاملاً آخر لقلة الاتصالات، وكانت تفكر فعلا في مرحلة ما بعد احتراف الرقص لكنها لم تهتد إلى قرار نهائي، وغادرت الشاطىء إلى سيارتها بشعور غريب

للغاية يوحي لها بضرورة قطع حبل سري ما في حياتها، ولم تكن زاد ممن يتوجسن من شعورهن، لكنها هذه المرة توجست فعلا وهي تفكر في كل هذه الامور، التي كان ميشال يحتل خلفيتها بهدوء، لكنها تركته في أفقها بدون اتخاذ أي قرار بشأنه، حتى تساعدها الايام على اتخاذ قرار، ربما يكون الأخطر لها كأنثى في النصف الثاني من حياتها.

لم يخطر على بال زاد ولا حتى في أحلامها، استقبال شيخ وكان أحد المتصلين بمكتبها لكنه لم يصرّح بشخصيته، ورجّحت بعد أول دقائق جلوسه وبدء حديثه معها طلبها للرقص في عرس ابنه أو ابنته، رغم غرابة الموقف الذي لم يحدث في حياتها، لأنها لم ترقص أبداً في عرس ابن أو ابنة شيخ، لكنها فوجئت بدعوته لها للتوبة عن حياتها الماضية وبدء صفحة جديدة، ستكون فيها في موقع أقوى بكثير مما هي عليه بفضلٍ من الله وعباده أصحاب السلطة، وستربح الجنة بما ستفعله من خير للنساء المؤمنات.

- يا شيخنا. من الذي طلب منك الحضور لتقديم هذه النصيحة؟
- أُختِرتُ لإنقاذ روح امرأة لطيفة مثلكِ.
- ومن قال لك أنني سأذهب إلى جهنم؟
- حياتكِ التي تعيشيها.
- ومن قال لك أنني ارتكب المعاصي؟!
- أنا لم أقل بل أنت تقولين ذلك.
- أنا لم أرتكب المعاصي. أما إذا كنت تتحدث عن رقصي فهذه مهنتي وأنا حرة في اختيار ما يعجبني.
- لكن التعري...

- هل رأيتني أم قيل لك؟
- ....
- أنا لم أتعر. يا شيخنا.. لقد رقصتُ ويستحيل الرقص بحجاب أو شادور، لكنني رأيتُ مُحجبات ومنقبات يرقصن معي ويزغردن لي، ويصفقن على الايقاع في أعراس أولادهن.
- يرقصن بسبب فرحتهن وليس لإغواء الناس.
- يا شيخنا أنت تتحدث عن أمور جاهزة في عقلك، لكنها ليست في حياتي. من قال لك أنني أرقص لأغوي الناس؟
- ماذا تسمين الرقص من ثمة؟
- فن. هل رأيتني أو قيل لك عن رقصتي الصوفية؟
- الصوفية بدعة وكل بدعة في النار.
- يا شيخنا.. أنا لست متفقهة ولا أصدر فتاوى لتحدثني عن البدع. أنا لست على استعداد لأسمع أكثر.
- فكري في الامر.
- هل هذه مهلة لتهديد يأتي بعدها؟
- معاذ الله.
- وأنا أشكرك على نصيحتك مع احتفاظي بحرية اتخاذ القرار.
- لكن..
- يا شيخنا هل نسيت "ولو شاء ربك لآمن مَنْ في الارض جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟"

لم يتوقع ميشال طلب استدعاء السفارة الكندية له بعد حوالي شهرين من عودته من أوتاوا، لأنه اعتقد أن ما قاله المحامي الكندي له من قبيل المبالغة، رغم توضيح المحامي بأن كندا تتعامل جدياً مع طلبات اللجوء السياسي لو كان فيها تهديد بالقتل لطالب اللجوء، خصوصاً إذا كان لأسباب سياسية أو دينية، وذهب ميشال إلى السفارة حاملا معه المستندات الاصلية التي تثبت التهديدات، وحساباته في البنك التي تثبت أنه لن يكون عالة على الحكومة الكندية، علاوة على درجته العملية ودعوات الجامعتين الكنديتين له للحضور كأستاذ زائر، وشرح ميشال هذه الامور بلكنة باريسية من المستوى الرابع في التقييم اللغوي، وطلب الموظف المختص منه الانتظار، ريثما تبت إدارة الهجرة والتجنيس بطلبه.

خرج ميشال بعد هذه المقابلة وهو يشعر لأول مرة في حياته أنه مُسيّر بقوة أعظم منه بكثير، فالشهور القليلة التي مرت أخيراً في حياته حملت من التغيرات ما لم يفكر فيه أو يحدث في أربعين سنة، وسوف تتغيّر ظروفه إلى ما لم يفكر فيه أو يتخيله. كان مندفعاً ومتردداً في الوقت نفسه، وكان يشك أحياناً في التهديدات التي تصله، وربما يكتبها صعاليك يتيح لهم النشر المجاني على الشبكة الاعتقاد بأنهم مفكرون أو نُقاد أو مدافعون عن الاديان، ثم يتذكر رمزي حشّاد والتهديدات التي وصلت إلى محاولة فاشله لاغتياله، قرر بعدما مباشرة الهجرة من تونس إلى كندا.

لم تكن فكرة الهجرة تزعج ميشال، فقد نشأ في بيتين استمتع فيهما من خالته وزوجها ومن أبيه، عن دولة عاشوا فيها ثم اضطروا لتركها تحت ظروف لم يكن لهم فيها أي شأن. لم يهاجروا من أجل حياة أفضل لكن من مكان لم يعد يتقبلهم وأصبحت الفرص فيه بالنسبة لهم قليلة، أو ضاع ما بين أياديهم فعلا. وميشال نفسه تعوّد قبل ظهور زاد في حياته قضاء حوالي ثلث سنة في فرنسا سنوياً. ولم تظهر حقيقة الهجرة بوضوح أمامه، سوى بعد دخول معاملات هجرته في طريق التنفيذ.

أصبح لازماً على ميشال ضرورة الاتصال بزوج خالته في استراليا ليخبره عن هجرته، ليعطيه وقتاً للتفكير في كيفية التصرف بالشقة، وظلت زاد علامة الاستفهام غير القابلة للجواب بالنسبة له، فقد وصل إلى مرحلة عدم القدرة عن الاستغناء عنها، ولو عن بعد بعدما يستقر في كندا، خصوصاً أن زاد نفسها تمر بمرحلة اضطراب كبيرة، قد تفضي بها إلى الذهاب إلى الولايات المتحدة لتستقر فيها نهائيا.

- جاءني مَنْ يدعوني للتوبة يا ميتش.
- هل جاء من تلقاء نفسه؟
- يستهدفون واحدة مثلي لأسباب دعائية. في بدياتهم السياسية هنا استهدفوا أخوة بعض المسكينات اللاتي رفضن التحجّب بضربهم بالبلطة على رؤسهم.
- ولماذا أختاروا هذا التوقيت معكِ؟
- تخطيت يا ميتش الثلاثين في مهنة لابد أن تكون الراقصة فيها في مرحلة الشباب، وأنا لست ممثلة محترفة لأقبل بأدوار الاخت والأم. وربما أقبل بدور معهم يمنحني القوة ويساعدهم بشكل ما في الوقت نفسه. قالت زاد له.
- وماذا تنوين للمستقبل؟
- فتح مدرسة للرقص هنا أمر لم يزل صعباً، أفكر فعلا بإنشاء ناد رياضي في الولايات المتحدة، فيه قسم لتعليم الرقص الشرقي. على فكرة الرقص هناك تمارسه المرأة من أجل الرياضة أيضا.
- هل هذه هي خطتكِ فعلا؟
- نعم يا ميتش. أنا مواطنة أميركية كما تعلم. لا أملك الجنسية فقط بل أنا على استعداد للحياة كمواطنة. الحياة هناك أكثر إشراقاً وانفتاحاً. بالمناسبة، أنا كل مدخراتي في أميركا!

- لا تحتفظين بشيء هنا؟
- مصاريفي وشقتي فقط وسأبيعها في الوقت المناسب.
- ....
- وماذا عنك؟ هل فعلا ستهاجر إذا منحوك الاقامة الدائمة وهي أول خطوة الحصول على الجنسية؟
- نعم. هذه المنطقة يا زاد قادمة على فوضى سياسية ودينية كبيرة، حتى ينتهوا مثل الغرب إلى قناعة الدولة المدنية، التي لا دين لها أو مذهب.
- هذه نظرية لن تتحقق هنا يا ميتش، لأن الدولة المدنية في الغرب ليست جسر العبور للآخرة، لكن الدولة الدينية هنا جسر عبور لكل شيء بما في ذلك الآخرة. لنغادر يا ميتش قبل أن يجرفنا تيار النهر إلى ما لا نتمناه. أنا لا أتحمّل مثلا أن يأتي يوم يستقبلوني فيه بتلاوة القرآن من مكبرات صوت وأنا خارجة من فندق، لإرغامي على التحجب.
- يستحيل وصول لبنان إلى هذه المرحلة.
- كانوا يقولون ذلك في مصر، وبعد موجة انتشار الفنانات التائبات صار حتى الشادور مقبولاً.
- هل عرفت ذلك.......
- من رحلاتي الفنية والأحاديث خلف الابواب. يا ميتش صارت الكحوليات ممنوعة البيع والشرب في مدن كبيرة في لبنان. توّقع دعاوى ازدراء الاديان أو العيب في الذات الإلهية بعد سنوات، تماماً كما يحدث في مصر اليوم. المسألة مسألة وقت.
- ....

- هل تريد قول شيء يا ميتش؟
- إذا نحينا هذه الامور العامة، يبقى أمر واحد في منتهى الخصوصية يشغلني فعلا.
- ما هو؟ سألته زاد.
- أنا عندما أفكر بالهجرة، لا يغيب عن بالي أنني سأكون بعيداً عنكِ.
- وإلى أي نقطة يمكنك الوصول لتجد مخرجاً؟
- لا أعرف.
- لا تعرف أو تخشى التفكير؟
- أخشى التفكير.
- ميتش.. تجاوز هوة كوني زوجة سابقة لصديقك فالرجل مات! ثم أن الامر كان على الورق فقط!
- كيف؟
- يا ميتش.. هل قرأت أن أحد المحكوم عليهم بالاعدام كان طلبه الاخير امرأة لينام معها؟
- وماذا عن الزواج الثاني؟
- كان الرجل كاملا كما كان يقول!
- وماذا عنى بكلمة كامل؟
- يمارس مع النساء ويمارس معه الرجال! رفضتُ وكان الزواج حبراً على ورق .
- كيف؟!

- يا ميتش أنا لا أستطيع الشرح أكثر من ذلك. قالت زاد وهي تنظر مباشرة في عينيه، بينما هو يربت بنظره على شعرها وكل جزء من وجهها.
- صعبٌ جداً عليَّ العيش بدونكِ.
- وقلت لي بعشرات الطرق أنك تهتم بي.
- كان اهتماماً يختلف تماماً عما شعرت به فجأة في سهرتنا إياها.
- لا شيء يأتي فجأة يا ميتش. كانت هناك أمور لم نفهمها على حقيقتها، ويجب مواجهة ما يحدث بكل شجاعة.
- لكن هذا يتوقف على كلمة منكِ.
- أنت انسان لا يُقدر بثمن عندي. هل فهمت؟

كان ميشال مدركاً للمواجهة التي ألمحت زاد إليها، والتنازلات التي يجب تقديمها منهما معاً لتجاوزها، وكانت وطأة التفكير على ميشال كبيرة لدرجة مهاجمة الكوابيس له ليلاً. كوابيس لا معنى لها أحياناً، وكوابيس يمكن تفسيرها. وقد رأى في إحداها وميض الفلاشات التي ظهرت مباشرة عقب وفاة زوجها جلال غندور في المطبخ، وهي تحاصره وتقوده إلى خارج الشقة.

ثم تطور الامر إلى اضطرابات جسدية كان أخطرها عدم قدرته على ابتلاع الطعام أحياناً، وذات مرة شعر وكأنه يختنق لأن الطعام توقف في مكان ما في المريء، وحاول ميشال طرد الطعام خارج جسمه ولم يستطع، فشرب بعض الماء لكن الامر ازداد سوءاً، وبدأ يتحرك في المنزل كالمجنون وهو يتنفس بعمق حتى لا يموت، ونصحه الطبيب بعد رؤية صورة الأشعة بمضغ الطعام كثيراً قبل ابتلاعه، حتى لا يختنق فعلياً ذات مرة، فالمشكلة انقباضات عضوية لها أسباب نفسية وليست جسدية.

لم يدر ميشال لماذا بدأ يتخلص من ثياب نومه أولاً، ثم ثيابه الداخلية بعدما يستيقظ من كوابيسه شبه اليومية. بدأ يشعر بانقباض غريب أحياناً وخُيِّل إليه كأن شقته تضيق عليه، بل شعر ذات ليلة وكأن الكون كله بالونة يقف داخلها سجيناً، ووقف عاريا في غرفته، وأرغمه ضيقه العظيم في هذه الليلة على الذهاب إلى الشرفة ليقف فيها عارياً، ليخرج من البالونة، وابتسم من شدة توتره عندما تذكر استحالة الخروج من الكون، وأحجم في آخر لحظة عن الوقوف عارياً في الشرفة خشية رؤية أحدهم له واتهامه بالتحرش بالنساء أو الجنون رغم اقتراب الوقت من الفجر، فعاد وجلس عارياً في غرفة الجلوس، وبدأ يشاهد التلفزيون ليخفف عن نفسه.

هل كان حقيقة لا يحب زاد كامرأة؟ ولماذا انهارت كل أخاديده النفسانية السحيقة فجأة، واضطرب أمامها كمن ضربته صاعقة؟ وكيف يمكنهما التلاقي وكل منهما سيتجه إلى دولة مختلفة؟ وكيف يمكنها التغلب على مشكلة اختلاف دينهما؟ وماذا عن فارق العمر بينهما؟

- وضعت شقتي برسم البيع يا ميتش. قالت زاد.
- وهل ستعلنين اعتزالك؟
- الامر ليس مهما. سأصفي أعمالي ومكتبي وأغادر. وماذا عنك؟
- ما زلت أنتظر وصول رقم الاقامة الدائمة في كندا. مسألة وقت لا أكثر لأن الموافقة تمت. أخبرت زوج خالتي وقرر الاحتفاظ بالشقة حتى يبيعها بثمن مناسب.
- لكن يجب الالتزام بوقت محدد حتى تسافر. لا يمكنك البقاء هنا أكثر من شهور قليلة بعد الحصول على رقم الاقامة.
- أخبروني ذلك.

- وماذا بعد؟ سألته زاد وهي تبتسم.
- لا وقت لدينا لما بعد..
- وما هو هذا البَعْد؟
- كيف سنتزوج؟ الوقت قليل أمامنا. قال لها وهو يبتسم أيضا.
- هل حقيقة تريد الزواج مني؟ سألته وهي تنظر بهدوء شديد في عينيه.
- نعم.
- هل أنت مقتنع فعلاً؟
- تماماً. لكن كيف سنتزوج؟
- وأين سنعيش؟ سألته زاد.
- إذن نحن أمام مشكلتين. قال ميشال.
- هل نهرب منهما ويذهب كل منّا إلى بلد آخر؟ سألته زاد.
- لا. لذلك نحن نفكر.
- يمكننا الزواج مدنياً في قبرص ثم السفر منها.
- وماذا عن أولادنا؟
- القوانين المدنية ستحل مشكلة ارتباطنا. ربيهم على دينك فأنا غير مؤمنة، ولا داعي لتقول ذلك لهم.
- وهل ستناسبكِ الحياة في كندا؟
- المواطن الاميركي سهل عليه العيش في كندا. حلمي يمكن تحقيقه فيها أيضاً.
- وماذا عن أهلكِ؟

- ميتش. هناك أمور في حياة الانسان يعبرها وحده ويستحيل عبورها مع آخرين. خصوصاً في حياتي التي كانت دائماً مُرتبكة ومُلتبسة. كنت دائماً مُتهمة فيها. لن يكون هناك فارق كبير بالنسبة لهم إذا عشت في كندا أو أميركا. أنا اتكلت عليك في أمور كثيرة ولم تخذلني، لكن ما نتحدث فيه الان أهمها على الاطلاق، وخطوتنا الأولى ستكون سراً حتى وصولنا إلى كندا.

- يمكنكِ الاتكال عليَّ.

قال ميشال وهو يمسك يدها، بينما زاد تنظر إلى عينيه وتبتسم.

- لكن كيف ستقولين لأهلكِ لاحقاً كل هذه الامور؟! سألها ميشال.

- خطوة بخطوة. بالطريقة نفسها التي خرجت بها خالة الرجل لتتمشى في النكتة إياها!